حول التعريب

عندما شرع العرب في يوم غابر من تاريخهم ، في تعريب أرسطو ، لم يعمدوا إلى نقل هذا التراث العقلي إلى العربية نقلاً حرفياً ، وإنما الذي فعلوه هوأنهم عربوا أرسطو، بمعنى أنهم أدركوا في تلك الحقبة الغابرة ، أن التعريب ليس هو الترجمة ، وإنما التعريب هو تعريب العقل . فهم لم يتركوا لأرسطو أن يخضعهم لمنطقه خضوعاً كلياً ، وبالتالي فهم لم يمتثلوا لكل ما قاله أرسطو ، وإنما الذيفعلوه هو أنهم قاموا بعملية تمثل لأرسطو ، . . . فهموه واستوعبوه وفسروه وأضافوا اليه ، فكان نقله إلى العربية تعريباً ولم يكن بحال من الأحوال ترجمة . .

وحين انعقدت ندوة التعريب في مدينة طرابلس — ليبيا بدعوة من مجلة الثقافة العربية ، وشارك فيها نخبة ممتازة من المختصين والمهتمين بمسألة التعريب ، ومعظمهم من العاملين في هذا الحقل ، كان المرجو من الأبحاث التي طرحت للمناقشة ، أن تعالج المسألة من هذا المنظور . . . أي أن تقول بمنطق واضح وصريح إن التعريب ليس هو الترجمة وإنما التعريب هو تعريب العقل . وفيما عدا البحث الذي قدمه أستاذنا أنطون مقدسي عن التعريب في دلالته التاريخية ، والذي طرح فيه مسألة التعريب من هذا المنظور ، فإن الكثرة الغالبة من هذه الأبحاث عالجت مسألة التعريب باعتبارها مسألة ترجمة أو مسألة تعريب للمصطلحات .

إن التعريب حين يفهم على أنه الترجمة ، فإن المسألة عندئذ لا تعدو أن تكون تنظيماً تضطلع بمهمة القيام به مجموعة من الكتاب الذين يجيدون هذا الفن ، أو لنقل هذه الصنعة . وحين يفهم التعريب على أنه ترجمة المصطلحات ، فإن مجامع اللغة العربية ، في القاهرة ودمشق وبغداد ، أو مكتب تنسيق التعريب في الرباط ، يمكن أن تقوم بأداء هذه المهمة . لكن التعريب ليس هذا ولا ذاك ، وإنما هو تعريب العقل . وتعريب العقل يعني باختصار أن تكون لنا رؤيتنا المتميزة إلى العالم ، وأن نتمثل حضارة الآخرين ونمتصها ونعيد فرزها بما يتلاءم مع شخصيتنا الحضارية .

رئيس التحرير

التعريب في دلالته التاريخية

أنطون مقدسي

مقاربة أولى

لو بعث صاحب القاموس المحيط حياً لوجد ما يضيفه إلى تعريفه للتعريب عندما يقول : « هو تهذيب النطق من اللحن » .

ومع ذلك فقد أوجز المشكلة . إذ أن التهذيب ليس إزالة الدخيل وحسب ، والإعراب مجرد التقيد بقواعد اللغة . وإنما الأول هو استعادة الإيقاع العربي بالتربية ؛ والثاني ، الإفصاح والإبانة ، كما يقول صاحب القاموس أيضاً . والإيقاع والبيان صمتان متلازمتان إلى حد

الا تدماج ؛ إذ أن الموجود حركاته وسكناته ، وهذه ترتسم أمام الوعي صورة ، عندما يقولها القائل وبنسبة إحكام القول .

وتلك خصائص النطق الصحيح أن يؤلف الفسحة اللسانية حيث يمكن للقول أن يكافىء الموجود ، وعندها يشف هذا عن أبعاده فهو تجلٍ .

إنها حقائق أوجزها صاحب القاموس ، بالأحرى دل عليها ، واقتصر على الدلالة ؛ إذ لم تكن المشكلة ، يومها ، اشكالا يبلغ حد الإحراج (الطريق المسدودة في لغة الفلسفة) كما هي عليه الحال اليوم .

لسنوات قليلة خلت ، لم تكن كذلك ، فشوقي والمطران ، الرافعي والبشري ، ورئة المتنبي والبحتري ، الجاحظ وابن المقفع ؛ وهؤلاء بدورهم ورئة الجاهليين . . . وكلهم ، كل منهم بنفسة عبقريته ، من أركان اللسان المبين ؛ صافهم وصاغوه ، فوصل الينا تراثاً حياً ، وكأنه من الأزل إلى الأبد .

فاذا جرى حتى تبدل الوضع ، أكاد أقول بين عشية وضحاها ، وفقد القول العربي إعجازه الممتنع ؛ فالإيقاع أصوات تسعى لا همّة لها حتى لدلالة عصية حتى ليخيل إلى السامع أو القارىء أن اللغة جسد فقد روحه ، والنص سيل من العبارات ، مرصوف بعضها إلى جانب البعض الآخر في سلسلة تعرجات يضيع في متاهتها الكاتب والقارىء ، الكاتب قبل القارىء .

لسنوات قليلة خلت ، كان الأصل ما يزال حاضراً ؛ فلنا نموذج هو التراث ؛ اعلامه ، آياته ، معاجمه ؛ تراث مرجع نحتكم اليه وله القول الفصل . والعربية بهذا ، آلة في نظر أربابها ، متضمنة شروط وجودها ؛ تساير خطها فأنت إلى الأصالة ، وتحيد عنه فأنت إلى الهجانة .

وعلى فجأة ها هو الماضي — القريب منه والبعيد — يبدو ماضياً ، له طريقه ولنا طريق أخرى . فكل خطوة إلى الأمام تباعد بيننا وبينه خطوات .

إنها قطيعة تصيبنا في الصميم من شخصيتنا ، وتستدعي العروبة رداً لا رد سواه .

وهذه ، حياتها ونواتها ، فعل التعريب الذي ينشئها .

فما هو هذا الفعل ؟ وما هو على الضبط ، الاشكال الذي يدل عليه ؟ والمسألة بعد ليست جديدة . لقد جابهها أجدادنا يوم امتد الفتح ، وواجهوا فيما واجهوا ، ثقافات العالم ؛ تمثلوا منها ما تمثلوا وحاوروا ما حاوروا ، تبنوا ما تبنوا وأسقطوا ما أسقطوا . واختيارهم

هذه كونت في تاريخ الفكر منعطفاً حاسماً ما يزال حتى اليوم من مكونات هذا الفكر . فهل بوسعنا أن نعثر على المقياس الذي اعتمدوا عسى أن يسعفنا ، ونحن اليوم نواجه مثلما واجهوا وأكثر ؟ هل بوسعنا أن نكتشف الخط الذي هداهم فرسم لذواتنا خطاً غير الذي رسموا وإياه في الوقت ذاته ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بالأمر السهل ؛ إذ ان الموضوع لم يدرس بعد ، وان درس فمن منظور أجنبي يسعفنا مرة ويضللنا مرات .

والمنظور هنا وفي كل دراسة أخرى أساسي . لأن العلم ، وإن كان موضوعياً ، فهو ينطلق من موقع اليه يرتد .

والمطلوب منا ، نحن عرب اليوم ، بناء الموقع العربي ، ذلك الذي ننطلق منه نحو حوار جدي ومنتج مع تراثنا من جهة ، ومع التراثات الأجنبية من جهة أخرى .

أقول مسبقاً اني لا أدعي الجواب ، وإنما شق بعضاً من الطريق التي تؤدي اليه .

على أية حال فان الجواب – أي جواب – يفترض مسبقاً ، تعريف التعريب .

ما التعريب ؟

التعريب فعل .

والفعل إنشاء ،

فماذا وكيف ينشىء ؟

لنلاحظ ، بادىء ذي بدء ، ان إيجاد المصطلحات الفنية – التقنية الذي هو اليوم الشغل الشاغل عندنا للاختصاصيين وللدوائر المختصة ، ليس ، على أهميته ، إلا مقاربة أولى من المشكلة ،تكاد تكون جزئية هامشية بالقياس إلى المشروع المقبلالذي تدل عليه كلمةعروبة ، والذي هو استعادة شخصيتنا التاريخية والثقافية .

أقول : مشكلة جزئية وهامشية لأن المصطلح هنا محض اصطلاح (ما تواضع عليه الناس) فهو حيادي . وبتعبير أدق هو رمز لا يحيل إلا إلى ذاته ؛ وبهذا يمتص الدلالة ويلاشيها ، فسيان استخدمنا لأدائه هذه الكلمة أو تلك . وبوسعنا بالتالي أن نقتفي إثر أجدادنا عندما شرعوا في الترجمة ؛ فقد استعملوا ، في مرحلة أولى الكلمة الأجنبية بمنطوقها الحرفي تقريباً . وفي المراحل التالية نحتوا أو اشتقوا الكلمة الأقرب إلى عبقرية لغتنا .

وإنما تبدأ الصعوبات عند مواجهة النص ؛

أقصد المكتوب (ما كتب) من حيث أنه ، تعريفاً ، يؤلف كلا يحيل ، سيان كان هذا الكل علماً أم فكراً أم أدباً أم أي موجود آخر خضع لمستلزمات الكتابة .

إذ مع النص تتعدد الدلالات ؛ فالا حالة الكلية احالات : إلى الأشياء ، إلى الموضوعات (ما وضع) ، إلى ذاتها من حيث هي تواصل يستدعي الآخر ، كما أن الرموز والكلمات والعبارات تحيل بعضها إلى البعض الآخر .

والنص على مستويات هي التي تجعلنا نلمس مواطن الصعوبة عند النقل من لغة إلى غيرها :

أولا اللغة بحصر المعنى حيث النص بنية ، أي كما يقول شومسكي « كيان من التبعيات الذاتية » أو إجملة علائقية كما يقول أرباب علم اللغة المحدثون ، أو فلنقل مجموعة رموز اصطلاحية وبالتالي حيادية . فاذا رد النص إلى هذا القاسم الصوتي المشترك بين كافة لغات العالم ، كان بالامكان تطبيق قواعد الترجمة الآلية عليه ؛ أو ، بقول أعم ، وضع ترجمة تحاذي الأصل وتكافئه ؛ فهي ترجمة موضوعية أو علمية ؛ وهي التي دفعت بعض علماء اللغة في عصرنا ، إذ أصبح التواصل بين الثقافات والوحدات الثقافية أمراً ضرورياً ، إلى وضع علم للترجمة ، له من الدقة ما لبقية العلوم (١) .

ودفع بالمقابل غيرهم إلى إناطة أمر ترجمة الشعر بالشعراء ، والمسرح بالمسرحيين ، الخ . وبهذا المعنى يقول ادمون كاري : « الترجمة الأدبية ليست عملية لغوية ، وإنما أدبية » (٢) .

والمستوى الثاني هو حيث اللغة جملة قواعدية ، والنص بنيان وظائفي ومعه يبدأ صراع فعل الترجمة ومفعوله .

ذلك أن قواعد التصريف التي تعين حركية الكلمة وحركتها في النص وقواعد الإعراب التي تعين درجة فعاليتها ونوعها ، تشير بتوضعها على هذا المحور أو ذاك الى نمط انفتاح لغة على الموجودات . وهذا المنحى هو الذي عناه همبولت عندما قال عن القواعد اللغوية أنها « منظومات لا يمكن أن ينفذ بعضها إلى البعض الآخر » (٣) ؛ منحى دفعه هو وبعض الكنطيين الجدد

(١) راجع عرض هذه النظريات ومناقشتها في كتاب جورج موئين المشكلات النظرية للترجمة بخاصة الفصل الثاني صفحة ١٠ وما يلي . الكتاب من نشر غاليمار بباريس عام ١٩٦٣ .

(٢) المرجع ذاته صفحة ١٣ .

(٣) المرجع ذاته صفحة ٩ .

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى أقصى حدوده ، عندما اعتبروا اللغات ، كل منها بمثابة رؤيا للعالم مستقلة كلياً عن الأخرى ؛ ولا يمكن بالتالي أن تؤدي رؤيا في لغة رؤيا أخرى ؛ فالترجمة ممتنعة (١) .

ومع ذلك فهذه أمر واقع في كافة الأزمنة والأمكنة .

ولكنها تصبح ، عملياً ، في هذا المستوى والذي يليه ، نقلا موضوعياً ، وفي الوقت ذاته ، استعادة أو قراءة وتفسيراً . والقراءة – والترجمة من فصيلتها لحد بعيد – مهما كانت دقيقة وموضوعية ، تبديل في المنظور ؛ حتى لكأن القارىء يكتب نصاً هو غير الأصل وإياه .

مثال ذلك والمثال صارخ وإن كنا لم ننتبه اليه ، هو ،

إن علم الوجود (انطولوجيا) الذي يلخص الفلسفة كلها ، قد انبثق – أكاد أقول برمته – من تأملات افلاطون وارسطو – هذا أكثر من ذلك – في الفعل الذي يربط بين الموضوع والمحمول وهو فعل الوجود في اللغتين الإغريقية واللاتينية وفي كافة اللغات الغربية الحديثة (٢) . فاذا لاحظنا ان هذا الرابط في العربية ليس فعلا بل في ضمير الغائب هو ، ندرك الجهدالشاق الذي بذله مترجمونا ، والارباك الذي وقعوا فيه ، عندما نقلوا ميتافيزيقا أرسطو إلى لغتنا . وندرك في الوقت ذاته واحداً من نقاط الخلاف الأساسية بين الفلسفة الإغريقية والفلسفة العربية . فهذه ، وإن كانت قد وضعت في إطارتلك (أرسطو وافلوطين في الواقع) فانها غيرها . وربما – وهذا هو الأرجح – ان ماوراء – الطبيعة بالمعنى الحديث للكلمة قد نشأ يومها (٣) .

---

(١) المرجع ذاته ، القسم الرابع . وقد لخص جورج مونين نظرية همبولت في كتابه تاريخ علم اللغة . راجعه في ترجمته بدر الدين القاسم الرفاعي ، نشر وزارة التعليم العالي بدمشق . أما الكنتليون الجدد فمثلهم في هذا المجال هو الفيلسوف الألماني ارنست كسيرر .

(٢) راجع أميل بنفنيست ، مشكلات علم اللغة العام المجلد الأول ، نشر غاليار في باريس صفحة ٦٢ وما يلي .

(٣) راجع الترجمة العربية لكتاب ما وراء الطبيعة مع تعليق ابن رشد في تحقيق الأب بويج ونشر المطبعة الكاثوليكية في بيروت . ومن المؤسف أن أياً من المهتمين بالفلسفة في الوطن العربي لم يمر هذا النص الطويل جداً (ثلاثة مجلدات ضخمة) والأساسي جداً ما يستحقه من أهمية . فالمقارنة بين المفردات الإغريقية ومقابلها العربي كافية للتدليل على الفارق الأساسي بين المنظورين والفلسفتين . وسأعود لماماً على هذا الموضوع .

المستوى الثالث

والتواصل ، هو أيضاً كالترجمة ، أمر واقع.

فالرؤيا ليست صورة عن العالم وحسب ، بل هي أيضاً دلالة — دلالات في لادلة — ؛ وهذه ، حيث يتعرف الإنسان إلى الإنسان : يسأله ، يستمع اليه ، يجيبه ، يتحدثان ويتجاوبان بقول أدق : اللغة منظور وموقف وموقع . فالمنظور (من نظر) هو كيف يمفصل الإنسان الموجودات ، ويقطعها تبعاً لمفاصلها ؛ والموقف هو نمط تفاعله معها ؛ والموقع حيث يقع منها ويراها ، يستدعيها اليه وتستدعيه اليها.

تلك هي ، بقول آخر ، الأمة : فسحة حضور ولقاء .

وهذا معنى ربطنا ، نحن العرب ، بين اللغة والأمة ؛ إذ في اللغة يتفرد الإنسان وفي الوقت ذاته يتأنس . وكلما ترسخت جذورنا في موقعنا ، كلما تعرفنا إلى إنسانية الإنسان فينا وفي كافة البشر .

وهذا ما عناه اسبينوزا ، في جملة ما عناه ، عندما قال عبارته المعروفة : إذ يزداد الإنسان علماً بالفرديات ، يزداد علماً بالكليات (١) .

إن لغة علماء اللغة هي القاعدة التحتية للغة بمعناها الأشمل والأوسع . فهذه بالدرجة الأولى لسان . واللسان حيث يفجر القول الجملة العلائقية المغلقة لتنفتح فتصبح صلة وتواصلا .

والعبارة هي حيث تبلغ اللغة كمالها ، فهي — كما في الآيات والحكم العربية — قول ؛ أقصد ما يفصل بين الخطأ والصواب ؛ وبيان ، أقصد حيث يحاذي الكلم معناه .

والقول ، في لغة المحدثين ، نص : ما نص عليه إذ يشف عن كافة أبعاده ، وبالتالي يحفظ في الذاكرة أو يسجل على الورق . وعندها يصبح فسحة إنسانية ، في الوقت ذاته خاصة وكلية : خاصة لأنها تنتمي إلى وحدة ثقافية — تاريخية محددة هي الفسحة الأوسع أو الأمة ، من موقعها ينطلق القول واليها يرتد ؛ كلية لأنها رسالة : ما يرسله إنسان إلى إنسان ؛ فالقول قابل التنقل إلى كافة لغات الإنسان .

والنص هو الحدث الكلامي الأساسي :

---

(٧) الأخلاق .

جائز ككافة الأحداث ، يمكن أن يكون أو لا يكون .

وفي الوقت ذاته ضروري ؛ إذ عندما يوضع ، يصبح ملزماً – يلزمك في حالتي الرفض والقبول – ، الزامه بنسبة إبداعيته أو شعريته أو قدرته على الإبانة .

إن مفارقة النص الأول هذه توضحها الثانية ؛ وهي كونه يجمع بين الحرية والعقل ، كل منها لا ينفصل عن الآخر ؛ فهو يحرر الإنسان من الأطر الجاهزة والبنى المستهلكة ؛ وبوصفه عملا معقولا يشده إلى الآخر ؛ إذ العقل هو الذي يعد البنى الأوسع حيث تنتظم الجماعة وتنفتح على غيرها من الجماعات الإنسانية .

تلي الثالثة وهي الأشمل . فالنص يستدعي الماضي يجعل منه حضوراً يستحيل باستمرار مستقبلا ؛ وهكذا تتوالى أجيال الأمة متضامنة في المصير . فعندما نقول : « العرب أمة واحدة » نستعيد الوحدة الأولى ، نجعل منها أفق المستقبل ، ونلزم أبناءنا به . وكذلك عندما جعل أجدادنا من البيان السمة المميزة للقول العربي فقد ألزمونا بخط القول العربي في الآداب كما في السياسة ، في الفكر كما في أية ممارسة أخرى : فالا بيان ليس في دنيا العرب .

وتلك قدرة القول : أنه مبدع لوجود هو غير الأول وإياه ؛ وبهذه القدرة ، بها وحدها تتحقق وحدة الموجود التاريخي الذي هو الأمة .

وتتبدى قدرة القول هذه ، أكثر ما تتبدى في الكلم العظيم ، كلم الشاعر والمفكر ، كما شدد عليه هيدجر (١) ؛ كل منها يستجيب للآخر ؛ فالشعر يستحيل فكراً والفكر شعراً ؛ وكلا هما إبداع للوجود .

والكلمة بعد ، أيا كانت ، كما يلاحظ بول ريكور (٢) موقعها من العبارة موقع المبادل إذ هي حيث يحصل الا نتقال من المنظومة المغلقة إلى الفعل الذي يشق الطريق من البنية إلى الحدث ؛ وأضيف في الخط ذاته : من الصرف الذي هو أقرب لطبيعة المنظومة إلى النحو الذي هو الطريق إلى اللسان ، أو « نحو . . . اللغة » كما يكتب الفيروزبادي (٣) .

أضف – وهذا من خصائص لغتنا – ان الكلمة العربية ، بحكم اشتقاقها في أغلب الحالات من المصدر ، فعالة أكثر مما هي عليه في بقية اللغات ؛ تركز النص حول محاور ، كل منها

(١) راجع دراساته عن ريلكه وجورج تراكل وبخاصة هولدرلين .

(٢) تعارض التفسيرات ، نشر سوي ، باريس ، صفحة ٩٣ .

(٣) القاموس المحيط مادة عرب .

تستقطبه ، تشده اليها ؛ فيبدو وكأنه منظومة من الوظائف اللا مركزية ، إن صح التعبير ، وظائف ناظمها يتباعد عنها كلما اقتربت منه (١) .

وتتكثف هذه المحاور في عدد قليل من الكلم ، كل منها قمة من قمم فكرنا ودنيا من الدلالات تشير إلى حيث يتجه لساننا من الأصل وإلى ما لا نهاية إله . إنها أيضاً حيث تبلغ إبداعية اللسان ذروتها ؛ فهي إمكانات الكلام الذي يلي ، إمكانات هي لا — مقول التراث يتعين . يصبح قولا في كل مرحلة تاريخية يشقها الإنسان العربي إذ يقول مصيره فيحدده .

في هذا المستوى تستحيل الترجمة تعريباً .

ترجمة هي تعريب :

فعندما ترجم أجدادنا (أوسيا) الإغريقية بجوهر وموجود ، و (فيسس) بطبيعة و ((نوس) بعقل و (ايدوس) بمثال و (أرخه) بمبدأ ، وغيرها بما اعتقدوا انه يقابلها ؛ ونحتوا كلمات أخرى مقاربة لهذه مثل هوية وماهية ، لا مقابل لها في لغة الاغريق ، أقله في المرحلة الافلاطونية — الارسططالية ، لم ينقلوا ، لم يترجموا ، بل عربوا اي شقوا الطريق إلى خط فكري غير الاغريقي ، وإن كان ينطلق منه (٢) .

فالترجمة بعد من أبعاد التعريب .

أو هي ، بقول أدق ، وجه من أوجه فعل أشمل هو الذي يكون التراثات .

---

(١) إن زكي الأرسوزي هو ، في حدود ما أعلم ، أول من شدد بشكل لا مثيل له على فعالية الكلمة العربية ، إذ حاول اشتقاق لساننا كله من عدد محدود من المصادر ذات الصوتين . ولكنه انتهى إلى نتيجة غير التي انتهيت اليها . ذلك أنه اعتبر الوجود برمته منظومة كاملة ومتكاملة يستنفدها اللسان العربي المكافىء لها . راجع بخاصة كتابه الأول والأسامي العبقرية العربية في لساننا ، المجلد الأول من أعماله الكاملة ، نشر لجنة خاصة الفتها حكومة الجمهورية العربية السورية لهذا الغرض .

(٢) إن كلا من هذه المفردات الأساسية جدير بدراسة مستقلة توضح الفوارق بين ما هي عليه في الأصل وما آلت اليه مع الترجمة . فـ (ايدوس) الافلاطونية ليست المثال بمعنى النموذج ، ولا المثالي أي ما هو قائم في الشعور أو ناتج عنه . وربما ان المثالية بوصفها مدرسة فكرية نشأت مع الترجمة إلى العربية وإلى اللغات الغربية . فمثال أعطت مثالي ، و Idée,idea أعطت Idéalisme .

الواقع أن هذه الكلمات وغيرها مما يشبهها – وقد حاولت إيرادها بمنطوقها – لا تؤدى بأي من اللغات غير الإغريقية . إذ انها بوصفها كلمات الأصل – أقصد انبثاق الموجود تعبيراً – متعددة الدلالات ، متنوعة الآفاق . فالتعريب (أو النقل إلى أية لغة) اقتطاع وقطيعة بمعنى أنه يأخذ واحدة من الدلالات (أو عدداً محدوداً منها) ويسقط الباقي ؛ ولكنه بالمقابل ، إذ ينقل الكلمة من منظور إلى آخر ، يجعل منها فسحة جديدة قابلة لأن تتلقى دلالات مبتكرة .

الكلمة ، أقول أيضاً – الهم إذا كانت أساسية – مكثف لتاريخ . فاذا نقلت استحالت تاريخاً ثالثاً قدرته الاجرائية متناسبة مع أصالة التأليف .

مثال ذلك :

كلمة (أرخة) ؛ فهيدجر يرى أن لها في لسان تلك المرحلة مدلولين : الأول ، من حيث أن شيأ ما ينطلق وينبثق ، الثاني الينبوع من حيث أنه يهيمن على كل ما يصدر عنه (١) . فاقرب كلمة عربية اليها هي كلمة (أصل) . فلم أر المترجم العربي اداها بكلمة (مبدأ) التي تعني ما يبدأ به بحيث يصبح ما يلي معقولا ، سواء كانت نقطة الابتداء موجوداً متحققاً أو مبدأ مجرداً كالسبب والمقولة فيما يرى ابن رشد ؟ (٢) ومن الجدير بالتشديد عليه أن المترجم اللاتيني حذا حذو المترجم العربي ؛ واقتفى اثرهما ، لا المترجم إلى اللغات الحديثة

---

(١) مرتن هيدجر ، ما هي الطبيعة وكيف تتعين ؟ تعليق على المقالة الثانية (١٩٢ ب – ١٩٣ ب) من كتاب السماع الطبيعي لأرسطو ، الترجمة الفرنسية لفرنسوا فديه في كتاب مسائل ٢ نشر غاليمار بباريس صفحة ١٩٠ وفي أماكن أخرى .

راجع للمقارنة ترجمة السماع الطبيعي العربية الأولى لاسحاق بن حنين ، تحقيق وتقديم عبد الرحمن البدوي ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، المجلد الأول صفحة ٧٨ وما يلي .

(٢) راجع تلخيص ما بعد الطبيعة لابن رشد ، تقديم وتحقيق الدكتور عثمان أمين نشر مصطفى البابي الحلبي في القاهرة صفحة ٣١ ؛ وكذلك تعريفات الجرجاني .

وحسب ، بل المعلق والشارح والفيلسوف والناقد الأدبي بحيث أصبحت كلمة مبدأ من مكونات الكتابات الفكرية . (١)

ليس الجواب على السؤال بالأمر السهل . فالكلمات المستحدثة في العربية وفي اللاتينية ، واستناداً اليها في كافة اللغات الحديثة ، هي بدورها ، ذات دلالات متعددة .

على سبيل المثال في العربية :

كلمة (نوس) الإغريقية التي كان يجب أن تؤدى بكلمة (بصيرة) ؛ إذ أنها تشير عندهم إلى الأبصار والبصر ، في حين أن المترجم العربي اداها بكلمة عقل ، وفي عدة مدلولات تتأرجح بين حدين أقصيين : العقل بوصفه ربطاً منطقياً بين المفاهيم ، والعقل بوصفه جوهراً مفارقاً ، كلما ورد في تعريفات الجرجاني ولدى غيره .

وأيضاً الطبيعة ،

فهي ، في المفهوم الإغريقي كما يرى هيدجر ، مرادفة — أو تكاد — لكلمة وجود ، وتشير إلى التفتح الذاتي والإحتواء (٢) ، وهي ، بالتالي توحي وتدل أكثر مما تعين وتحدد . أما في المفهوم العربي فتتعدد المعاني وتتداخل مؤذنة بانفصال الطبيعة واستقلالها كما لدى ابن رشد مثلا الذي ، إذ حاول ضبط معانيها بما أمكن من الدقة ، ردها إلى ما يلي :

١ – أصناف التغيرات الأربعة : الكون والفساد ، والنقلة ، والنمو والإستحالة .

٢ – صور مبدأ هذه الحركات .

٣ – الطبيعة الصانعة بمعنى القوة المدبرة .

٤ – الطبيعي مقابل النطقي (بوادر التمييز بين الطبيعة والثقافة) .

---

(١) راجع ، فيما يخص الترجمات العربية النص الفرنسي الكلاسيكي ، وقد وضعه هنري كرترون لمنشورات بديه ، وهو مزدوج اللغة (اغريقي – فرنسي) . ويلفت النظر وحدة المفردات الأساسية بيننا وبينهم ، مثلا كلمة مبدأ ، مثلا أيضاً الطبيعة من حيث هي طبيعي ومطبوع فقد وردت بهذا الشكل أيضاً في نص اسحق بن حنين (صفحة ٨٥) بينما يترجم هيدجر « الطبيعة . . . في سيرها نحو الطبيعة » (صفحة ١٧٦) .

(٢) مرتن هيدجر ، الدراسة المذكورة حيث يرد هذا المعنى في مواطن كثيرة .

ه – أصناف الهيولى ، والاسطقسات التي يتركب منها الشيء (١) . والامثلة لانهاية لهـا . . .

أخلص إلى هذه النتيجة الهامة ، وهي أننا ، مع الترجمة العربية والترجمة اللاتينية التي أفادت منها ، ومع ما تلاهما من ترجمات أخرى ، في مرحلة انتقالية تتوسط بين ما اسميه مرحلة الأصل ومرحلة العقل . في الأولى المفردات الأساسية شعرية – فكرية زاخرة بالمعاني تستدعي الإنسان أكثر مما تسعف عقله ، بينما تتحدد أكثر فأكثر في الثانية لتصبح نقدية ؛ إذ يعين العقل مدى صلاحية كل منها لمفصلة الواقع وفهمه ، كما يعلمنا مؤلف نقد العقل النظري .

أجل ، مرحلة انتقالية .

فالعلوم – الرياضية منها بخاصة – قد حققت تقدماً كبيراً مع الخوارزمي والبيروني وغيرهما ، ومهدت السبيل مع منهج ابن الهيثم وضوئياته لقيام الفيزياء الرياضية (غاليله) ونظرية المعرفة التي ستتكون في القرنين السابع عشر والثامن عشر (ديكارت – كنط) .

ولكن من جهة ثانية فان الفكر ما زال متأرجحاً بين نظرية المعرفة ذات المعالم الواضحة والإنشاءات الميتافيزيقية الأرسطالية – الأفلوطينية . وهذا بين في الموجز السريع الذي قدمته عن معاني كلمة واحدة – واحدة وحسب – عند ابن رشد . وبوسع القارىء أن يتأكد منه بمراجعة سريعة لخلاصة متأخرة ومحكمة كتعريفات الجرجاني مثلا .

فالعرب لم يقتصروا على حفظ التراث الأغريقي ونقله – سليماًمعافى ! –إلى أصحابه كما يزعم هؤلاء ، بل الفوا بين الخطين الكبيرين في تاريخ الفكر الإنساني وهما الخط السامي –

(١) تلخيص ما بعد الطبيعة لابن رشد ، الطبعة المذكورة صفحة ٣٢ . ونجد امثلة أخرى كثيرة في المعاجم الفلسفية العربية القديمة .

لقد وضعت هذه المقارنة السريعة جداً بالاستناد : أولا ، إلى نص هيدجر المذكور ونصوصه الأخرى التي علق فيها على كبار فلاسفة الإغريق فجدد فهمنا لهؤلاء ، ومن ثم إلى الترجمة العربية للسماع الطبيعي ، وأخيراً إلى الترجمة الفرنسية ومقابلها الإغريقي . وأرى بهذه المناسبة التشديد على أن محاولتي ليست دراسة ، بل بداية متواضعة جداً ، وعلى ضرورة القيام بمثل هذه الدراسة الأساسية لأنها ، وحدها ، تكشف عن مدى أصالة الفكر العربي . ولكن مثل هذا العمل الشاق يحتاج إلى باحثين متخصصين يعملون على سنوات .

العربي من جهة والخط الأغريقي من جهة أخرى . وهذا التأليف هو الذي قامت عليه الثقافة منذ عصر النهضة إلى المنعطف الذي يتكون اليوم مع الحداثة .

ان المرء ليدهش لأول وهلة عندما يلاحظ التلاقي الشبه كامل بين المفردات والتعبيرات الفكرية العربية وما يقابلها في الفلسفة الكلاسيكية اللاتينية (البرت الكبير ، توما الأكويني) كما يدهش لسهولة النقل من احدى اللغتين إلى الأخرى . ولكن عندما يعرف أن الثانية حاذت الأولى وقلدتها واقتبست منها يدرك الدور الخطير الذي لعبناه في تاريخ المعقولية . فالقراءات الغربية لتراثنا منذ أواخر القرن التاسع عشر الى أيامنا ، أقله جزئية ، أن لم أقل مغلوطة ومغرضة ، اذ لاتريدان ترى في انجازاتنا سوى تمهيد الكلاسيكية اللاتينية في العصر الوسيط .

الواقع ان تراثنا الأكثر اصالة — اقصد الأدبي والروحي — قد علق وطمس ؛ وكأنه توارى على فجأة من التاريخ ؛ مع أن أجدادنا المتأخرين أعني أولئك الذين حققوه وصنفوه وشرحوه وسجلوه في المعاجم الموسوعية منذ القرن الرابع عشر وما بعد ، وحفظوه بذلك حيا ، دلونا على الطريق اليه .

اجل توارت الدلالات العظيمة التي هي مفاصل تاريخنا وأمه .

والايقاع الذي أشرت اليه لاينفصل عن هذه الدلالات .

فمن الذي يسائل اليوم عن الذكر والبيان ؟ عن الآية والغيب؟ عن المعنى وبقية الشؤون التي كانت محاور تفكير وتفكر أجدادنا .

وبما ان كنا ، هنا ، ضحية الترجمات التي سطحت وشوهت أكثر مما أدت ؛ بسطت وتصرفت أكثر مما سايرت المعنى ففاتها الشكل والمضمون .

وكيف يؤدي الكلم العظيم في لسان غير الذي وضع من أجله وهو علامته المميزة ؟

مامن شك في ان حركة التاريخ تبدلت ؛ ولكن للانجازات الكبيرة تاريخها ، يخترق التاريخ المرحلي ، ويسمعه من هو من مقياسه .

أقول معقباً :

ان فعل التعريب مزدوج الاتجاه : الواحد نحو ثقافات البشر والآخر نحو الذات .

والتعريب ، ان نكون ذاتنا او لا نكون .

ونحن ، اذ نتعرف الى ذاتنا هذه ، نرغم الأجنبي على التعرف اليها .

وتلك مسألة المسائل اليوم .

عـلام أرسـطو ؟

ثمة سؤال لم يطرح بعد بكافة أبعاده فيا أعلم !

لم آثر اجدادنا ، يوم التعريب الأولى ، ارسطو ، فنقلوا إلى لغتنا ما وصل إليهم من مؤلفاته حتى المتحول منها أو المنسوب إليه ، ثم علقوا عليها حتى الأرهاق ، واختصموا حول عدد كبير من قضاياها ، دخلت في تلافيف علم الكلام ، وبقية العلوم العربية ؟ وحتى الذين وقفوا موقف المناهض الرافض استخدموا المنهج الارسطاطالي ، وبالنتيجة وبعد التعديلات أصبحت الأرسطاطالية من صلب تراثنا ، وجزءاً لايتجزأ منه ؟

لقد عرف أجدادنا في تلك الفترة الممتدة على قرون ، ثقافات الأمم ، البائد منها والمستمر ، فاقتبسوا منها ما اقتبسوا ، عربوا ما عربوا ، تمثلوا ما تمثلوا ، اهملوا ما اهملوا . . بمعنى ما تخطوا الكل واستبقوا المعلم الأول ، صنوا لحوار لما ينته بعد على الأرجح .

ويبدو أن معارف أجدادنا الموسوعية أكثر بكثير مما يظن المرء للوهلة الأولى ؛ وإذا كانت المصادر قد أغفلت ، فالشذرات والحكم ، الأخبار والسير والعبر ، العلوم ورحلاتهم اليها . . كلها شاهد على انهم امتصوا كل ما وقعت أيديهم عليه حتى الاشباع ، بحيث باتوا يخشون خطر الغزو الأجنبي يشوه كيانهم ويهدد حقيقتهم ؛ وعندها خاضوا معركة الشعوبية التي ما تزال مستمرة حتى اليوم ، وان كانت أشكالها قد تبدلت .

أما أرسطو ، وقد كان في تواضعه العلمي جباراً ، فلم يخشوا منه بأساً ، بل حرصوا على الاستزادة منه وكأنه البحر ، لا ينضب معينه . ولم يكونوا على خطأ .

ولكن علام أرسطو لا أفلاطون .

علام أرسطو ، لا أفلاطون وارسطو ، وكل منهما يكمل لحد ما الآخر ؟

وكان يجب أن يستهويهم صاحب الجمهورية بنموذجه الأمثل للحكم ، وبرؤياه أيضاً .

أو ليس الحاكم عنده عالماً بشؤون « الغيب » اليه يرقى — وتلك وظيفة الديالكتيك — ومنه يستمد سلطانه ؟ .

والواقع برمته عنده أليس مشدوداً إلى « الملأ الأعلى » وبه يستقيم ؟

في حين أن أرسطو يمشي بمحاذاة الأرض لا يحيد عنها ؛ فالنفس عنده تكاد تكون من

طبيعة جسدية ؛ والعقل – باستثناء العقل الفعال – إذا فارق الهيولى تلاشى وانطوى أمره(١) ويحصل العكس ،

إذ في مجال الرؤى ، من مسألتين مسألة ، اما . . أما . . . على حد تعبير كير كجارد .

ولقد كانت العرب رؤيا لا تعدلها لديهم أخرى ، وفيها سر وجودهم وعزتهم .

وهذا ما جعل دور « الشيخ أفلاطون » عندهم ثانوياً رغم انهم عرفوا بعضاً من نصوصه الأساسية كالجمهورية ؛ حتى لكأن الأفلوطينية – وهذا ما هو واقع – امتصته وحرفت فكره عن مقاصده الأساسية .

فالاسطورة ، بالأحرى الخبر الأفلاطوني استحال حكاية تروى للعبرة ، حكاية خلو من الفكاهة ، ذات طابع أخلاقي . و « المثالية » أوحت لهم بالمدن الفاضلة وبقيسة الطوباويات و « المثل » عوضاً عن أن تكون « مفاصل الوجود » حيث هذا يتكشف ويعبر » أصبحت عالماً مفارقاً هو مجال شطحات الخيال الصوفي (٣) .

وإن اداء إيدوس بـ «مثال» (وهذه لا تتصل بتلك إلا بسبب ضعيف) ليدل على أن القراءة العربية أضعفت الأفلاطونية إذ أقحمتها في منظور هو أقرب إلى الروحانية الأفلاطينية منه إلى المعقولية الديالكتيكية التي هي إحدى السمات المميزة لفكر أفلاطون (٤) .

(١) راجع كتاب النفس ترجمة أحمد فؤاد الأهواني ومراجعة جورج شحاته القنواتي نشر عيسى البابي الحلبي في القاهرة ١٩٤٩ الصفحات ٦ و ٤١ وما يلي فيما يتعلق بالنفس ، والصفحة ١١٢ فيما يتعلق بالعقل .

(٢) اقتراح مبدئي لتعريف كلمة « ايدوس » التي هي أساس الفلسفة الأفلاطونية .

(٣) راجع على سبيل المثال بحث سامي النشار « فيدون في العالم الإسلامي » حيث تجد نصوصاً كثيرة عن قراءات مفكري العرب لفاذن افلاطون ، بالإضافة إلى لائحة لمحاورات افلاطون التي عرفها العرب ؛ في كتاب الأصول الأفلاطونية ، الفيدون دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٢ . وكذلك أيضاً كتاب الروابيع المنسوب لأفلاطون ، وقد نشره عبد الرحمن بدوي في مجموعة الأفلاطونية المحدثة عند العرب صفحة ١٤٩ وما يلي نشر مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٥ .

(٤) راجع محاولات هيدجر لضبط مدلول كلمة ايدوس في كتابه محولات ومحاضرات ترجمة أندره بريو نشر غاليار ، باريس صفحة ٢٧ .

وعلى أية حال – وهذه هي القضية التي انطلق منها بحثي – فان الذي عنى الفكر العربي أكثر ما عناه ، يوم التعريب الأول ، هو العقل ؛ وأقصد على الضبط ، التحليل الذي وضع أصوله أرسطو في «التحليلات» ، وهو الكتاب الذي عرف بعدئذ باسم المنطق ، أي فن النطق السليم .

أجل ، لقد كان أرسطو في نظر العصر الوسيط ، العربي وغير العربي ، هو الكاشف عن العقل .

ولم يكونوا على ضلال .

فالعقل بمعناه التقني هو قدرة الإنسان على تخطي واقعية الواقعة لإدراك نواتها المعقولة ، أو لقراءتها في لغة المفهوم ، ومن ثم رد المفاهيم إلى أجناسها العليا التي هي المقولات . وعندها يمكن للإنسان أن يضع الجملة المعقولة (النطق السليم) التي هي نسبة المحامل كل منها الى موضوعه (الهوية) ، وفي مرحلة أخيرة ربط القضايا بعضها إلى البعض الآخر استنتاجاً (لزوم النتيجة عن المقدمات أو المقدمة) .

أجل ، أرسطو وحده ، فالمعقولية بعده غيرها قبله .

لقد نشأت قبل أرسطو وبعده مناهج أخرى ، أهمها الديالكتيكي (أفلاطون – هجل – ماركس ، هذا إذا اقتصرنا على الكلاسيكيين) ، والفينومينولوجيا (هوسرل وخلفاؤه من الوجوديين وغيرهم) : ولكن ، كلها يجب أن تمثل أمام العقل التحليلي ، تؤدي حسابياً عن صحتها ؛ وهو الذي يسوغها (١) ؛ وفلسفات اللامعنى والعبث بدورها التي تقول بالوقائعية وبلا معقولية الوجود ، تدلل على قضاياها ببرهنات تكاد تكون في تماسكها أقيسة صورية .

وباختصار فان الشفافية العقلية تحليلية .

صحيح أن مفكرينا ، الكلاسيكيين منهم بخاصة (من الكندي إلى ابن الرشد ، مروراً بالفارابي وابن سينا وغيرهما) وضعوا ميتافيزيقا للعقل والعقول ؛ فرتبوا هذه في درجات وعينوا لكل منها وظيفته ، من العقل الفعال إلى العقل الهيولاني مروراً بالعقل المستفاد

---

(١) فأسلوب العرض لدى هجل وماركس مثلاً تحليلي مع أن صلب الرؤيا ديالكتيكي . ولقد كان ماركس واعياً لذلك ، فهو يتحدث عن اسلوبه التحليلي ؛ ويميز ، بهذه المناسبة بين طريقة البحث وطريقة العرض ، مما يدعو إلى التأمل . راجع مقدمة الكتاب الأول من رأس المال ، في ترجمة انطون حمصي ونشر وزارة الثقافة بدمشق صفحة ٣٧ .

والعقل بالملكة (١) ؛ صحيح أيضاً أن هذه الإنشاءات المستوحاة من الارسططالية – الأفلوطينية (هذه أكثر من تلك) تحتل الصدارة في الدراسة والتدريس ، وهي جديرة لحد بعيد بذلك لأنها حلقة أساسية من حلقات نمو المعقولية .

ولكن الأهم والأبقى هو الإستحالة التي طرأت على اللسان فنقلته من مرحلة الأصل إلى مرحلة العقل ؛ وهي مرحلة ما نزال في الطريق اليها .

فليس من قبيل الصدفة ان ترجم العرب (لوجيكه) الاغريقية بـ (منطق) إذ انهم دلوا بذلك على ضرورة المعقولية في اللسان : ثم جعلوا من « الكتاب » المدخل لكل دراسة ، والأداة التي يتمرس بها العقل فينمو لأنها ترسم له حركته الذاتية ، أو حركة تأليفاته .

وبالمقابل عمقوا العلاقة التحليلية لأنها المتمم المنطق . فهي في الميتافيزيقا علاقة واهب الصور (العقل الفعال) بمتلقيها العقل المنفعل أو الهيولاني (٢) ؛ وفي العلوم الدقيقة الانتقال من الأمور الحسية التي هي عناصر العلم إلى صورتها التي هي الأمور العقلية كما يقول ابن الهيثم (٣) أو من الواقعة إلى المفهوم ، كما نقول اليوم .

وهكذا تصبح الطريق مفتوحة امام المنهج التحليلي بشقيه : الاستقراء والاستنتاج ، كما سيكمله بيكون وديكارت وخلفاؤهما .

وترتكس هذه المنطلقات المبدئية على صياغة العبارة العربية ، فبعد ان كانت في لسان الأصل شعرية – حكمية تدل أكثر مما تبرهن (أو أن برهنتها في دلالتها) ، أصبحت

(١) راجع الفصل الثاني من كتاب جميل صليبا ، الدراسات الفلسفية ، الجزء الأول ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤ ، ففيه خلاصة جيدة عن معاني العقل في الفلسفة العربية ، وبخاصة الصفحة ٤٨ حيث يضع المؤلف تصنيفاً للعقول ، كما ورد عند أهم الفلاسفة .

(٢) راجع إلى جانب كتاب صليبا المذكور ، دراسة عبد الرحمن بدوي عن العقل الفعال عند اليونان والمسلمين واللاتين ، وهي مقدمة لكتاب ارسطوطاليس في النفس ترجمة اسحق بن حنين مع دراسات أخرى عن الموضوع ذاته وقد حققها عبد الرحمن بدوي ونشرتها مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٤ .

(٣) راجع كتاب الحسن بن الهيثم لزهير كتبي في سلسلة علماء العرب نشر وزارة الثقافة بدمشق صفحة ٧٣ .

تتحرى ضبط المعاني وتسلسلها وتماسكها وتركيزها حول واحد أو عدد محدودمنها بحيث تؤلف نصا أو قولا معقولا .

وبتعبير أدق ، فبعد أن كان الكلام طبيعة وفطرة استحال ثقافة وتربية ، وبعدها صناعة وتقنية .

مع هذه الخطوة الحاسمة ، يبدأ مايسميه الجاحظ النثر او الكتاب ، ومانسميه اليوم العلم والبحث العلمي ، او بقول اعم : النص .

والعرب بعد ، كما هو معلوم ، تناولوا مختلف المعارف والعلوم التي عالجها سابقوهم وطوروها اذ ادخلوا عليها تعديلات جذرية ، بخاصة علوم اللغة والفقه والكلام ، الرياضيات والطبيعة والطب ، التاريخ والجغرافيا ، السياسة وتدبير المنزل (الاقتصاد) . وأخطرها شأن علم الكلام الذي لم يكن هدفه الدفاع عن العقيدة وحسب (٢٦) ، الا اذا فهمنا بكلمة (دفاع) الصياغة المنطقية ، تدفع اللبس وتحرج الخصم . . وعندها وضعت ، من جهة الموسوعات التي تصنف الملل والنحل (الأشعري ، الشهرستاني ، ابن حزم وغيرهم) وتحصي اراء كل منها ومواقفه ، ومن جهة أخرى البحوث المطولة والمكثفة في القضايا الكبرى : الايمان والكفر ، الثواب والعقاب ، الجبر والاختيار ، المحلل والمحرم ...

من لسان الأصل إلى لسان العقل :

العلم بحصر المعنى قراءة للوقائع .

اماصياغة الكلام – لسان الاصل – فهي قراءة مزدوجة ، من جهة للكلام ذاته ، ومن جهة أخرى للعقل التحليلي في ذاته وفي انجازاته ، وكل منهما تعريب على طريقته .

والقراءة هذه تفسير . وكل تفسير يتم في فسحة قطيعة ومراجعة .

ولم تتم عملية القراءة او التعريب هذه بسلام .

فقد اختصم العرب حولها : قضاياها ومفرداتها ، مشكلاتها واشكالاتها ، نظمها العلمية وأسس هذه النظم . . بحيث ادركوا مرحلة الاحراج ، والاحراج يستدعي تعميقه وتفجيره للخروج من المأزق ، بانتظار آخر .

اختصموا حول الفلسفة ، فرأى فيها بعضهم (١) الصيغة المصفاة للعقيدة ، وردها

(١) ابن رشد مثلا في كتابيه المعروفين ، فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة .

غيرهم قبل وبنان بقرون على أنها من شأن يونان (١) غريبة عن الطبع العربي وان جل اربابها عندنا هم من الأعاجم . (٢) وكان القول المأثور : «من تمنطق فقد تزندق» .

اختصموا حول علم الكلام فأعطاه واضعوه (مثلا المعتزلة والاشاعرة على مابين الفرقتين من خلاف اساسي) . المقام الاول ، في حين رأى فيه بدعة وكفراً أئمة من مقياس الانصاري والغزالي و ابن حزم وابن تيميه وغيرهم(٣) .

اختصموا حول الالهيات ،

اختصموا حول العلم .

اختصموا حول العقل والحرية ،

اختصموا حول عقلهم ، فتساءلوا قبل المستشرقين والمستعربين ما إذا كان قابلا أم لا للخوض في المجردات (٤) .

التساؤل الأخير – وهو أشمل وأعم مما تقدم – إن دل فهو يدل على أن العقل العربي قادر لا على استنباط المفاهيم ومعالجتها جملة وتفصيلا وحسب – فالمشكلة ثانوية – بل على لم رصيده برمته وزجه في معركة يعتقد أنها حاسمة .

وكانت معركته ، يومها ، كذلك ، إذ إما أن يكون بمقياس الثقافات ويفيض واما أن لا يكون .

والثقافات ، يومها واليوم ، أن يكون الإنسان سيد الموجودات بعقله .

وتبلغ المعركة ذروتها ، ألله في وجهها الفلسفي ، في الخصومة التي اخترقت الفكر العربي

---

(١) راجع كتاب مصطفى عبد الرازق المذكور صفحة ٣١ وما يلي حيث يورد مختارات معبرة من «مقالات المؤلفين الإسلاميين» في فلسفتنا .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، الباب السادس ، الفصل الرابع والعشرون **والفصل** الخامس والثلاثون .

(٣) راجع إلى جانب كتاب مصطفى عبد الرازق المذكور ، مؤلف اوى غرده ، المشاكل الكبرى للكلام الإسلامي ، المجلد الأول الله والمصير الإنساني ، المقدمة صفحة ١٩ .

(٤) راجع كتاب مصطفى عبد الرازق المذكور ، الفصل الثاني بخاصة في الصفحتين ٣٢ و ٣٣ .

من الأشعري إلى ابن تيمية مروراً بالغزالي وابن حزم وغيرهما ، وأخذت شكلها الأحد والأدق عندما أراد الغزالي بإرادة جازمة وضع جدول كامل بمقاصد الفلاسفة وفضح تهافتهم ، ودافع عن هؤلاء ابن رشد في كتابه المعروف تهافت التهافت .

من البديهي أن المعركة دارت حول العقيدة الدينية .

ولكن لها وجهاً آخر قلما ننتبه اليه وهو الذي يعنيني ، إذ أنه كاشف عن الفارق الأساسي بين الرؤيا العربية والرؤيا الإغريقية ، أي عن الخلفية البعيدة لصراعات الفكر العربي .

ليس من قبيل الصدفة ، من جهة أن الغزالي أراد تحطيم أرسطو « مقدمهم . . . الفيلسوف المطلق . . . الذي رتب علومهم وهذبها » كما يقول (١) ، ومن جهة أخرى انه عندما بدأ بتفنيد القضايا المتنازع عليها ، وضع في مقدمتها مسألة قدم العالم .

ومن ثم فإن الصياغة ، بغض النظر عن أي اعتبار آخر ، لتدل في مفرداتها كما في منطوقها على أن التعريب انتقال من دنيا إلى أخرى . فكلمة عالم مغايرة الكلمة (كوزمس) ، هذه تشير إلى نظام قائم بذاته وتلك مخلوقات الله المتدرجة مكاناً وزماناً أمام الإنسان ؛ وكذلك كلمة (قديم) فهي تدل في لغتنا على بعد الزمان المغرق في الزمنية إن صح التعبير ، بينما تدل عند أرسطو على الموجودات الطبيعية من حيث تلقائية حركتها ومن حيث أن هذه الحركة عدد يقيس كماً القبل والبعد .

والسؤال ذاته لا مقابل له عند أرسطو ، ولا عند الإغريق . في حين يتعلق هؤلاء من الزمان الدوري كما يوضح ذلك أفلوطين آخر فلاسفتهم (٢) ، يرى الفكر العربي في الزمان كما في الأشياء الملازم لها ، سلسلة وقائع جائزة .

وأخيراً فإن عصب الموضوع بالنتيجة مسألة الجواز والضرورة . فكلمة (جائز) العربية لا مقابل لها في الإغريقية أقله بهذا المدلول . وبالمقابل فإن كلمة (ضرورة) ثانوية في لغتنا ، قفزت إلى الصف الأول عندنا تحت تأثير التعريب ؛ في حين أنها أساسية لا تعرف لدى

---

(١) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الأب بويج ونشر المطبعة الكاثوليكية في بيروت ، المقدمة الأولى صفحة ٨ . ما زال هذه الطبعة أدق الطبعات واليها استند كافة الذين نشروا النص بعدها .

(٢) راجع جان جيتون ، الزمان والأبدية عند افلوطين واغسطين ، نشر بوافان في باريس ، الفصل الأول صفحة (١) وما يلي .

الإغريق ؛ فـ (انانكه) تشير إلى سرمدية النظام وهيمنته على الموجودات طراً بمـا فيها الإنسان والآلهـة .

وبعد أهي مسألة قدم العالم هي الرئيسية لدى أرسطو وفي فكر يونان ؟ أقصد : أهي التي كانت حاسمة في قيام الفلسفة واستمرارها إلى أيامنا أم مسألة أخرى صاغها افلاطون (١) وأعاد صياغتها مراراً وتكراراً أرسطو في الميتافيزيقا دون أن يتمكن من إعطائها شكلها النهائي .

إن الفكر الإغريقي ،

يسائل الموجود في وجوده عن وجوده ؛ وذلك هو العلم ،

يعتبر الموجود ، شمولا من حيث هو ، وتلك هي الفلسفة ، كما يقول الهيدجريون(٢) ،

يرى الموجود حضوراً في الوجود ، ذلك هو أفقه .

ويتفرد أرسطو من بينهم في مساءلته عن فعل الموجود :

الفعل بما هو مقولة قواعدية ، أو حيث العقل يتجلى تعبيراً ،

والفعل بما هو فعالية الموجود ذاته ، ويضعه أرسطو في الصورة .

وتلك كانت انطلاقة الفلاسفة اللاتين عندما ترجموا وألفوا ، إذ جعل توما الأكويني من هذا الفعل (أسه في لغتهم) محور فلسفته الانطولوجية ، أو حيث تتجمع هذه فتصبح منظومـة .

فلم أسقط الفكر العربي هذا الجانب الهام من الموضوع ليأخذ ، بخاصة مع ابن سينا (٣) بالفيض الأفلوطيني وينسج ، مع هذا وغيره ، حوله من التنويعات ما طاب لهم ؟ أو ليرفض

---

(١) أفلاطون ، حوار البرمنيدس وحوار السفسطائي ، راجع هذا الأخير في ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة ونشر وزارة الثقافة بدمشق ، بخاصة صفحة ١٥٢ .

(٢) جان بوفره ، حوار مع هيدجر ، الجزء الأول ، الفلسفة الاغريقية ، نشر مينوي في باريس ، صفحة ٢٢ .

(٣) تجد نظرية الفيض هذه في كافة الكتب المدرسية . راجع ، على سبيل المثال ، عرضاً جيداً في كتاب جميل صليبا من افلاطون إلى ابن سينا دمشق ١٩٣٨ صفحة ٨١ وما يلي ، وكتاب تيسير شيخ الأرض ، المدخل إلى فلسفة ابن سينا ، بيروت ، دار الأنوار ١٩٦٧ ، بخاصة صفحة ٢٢٥ وما يلي وصفحة ٤٢٨ وما يلي النصوص .

لدى طرفه المقابل والمناهض للفلسفة الكلاسيكية هذه الانشاءات الميتافيزيقية جملة وتفصيلا ويكفروها ؛ ثم يحل محلها فلسفة أخرى قد لا تقل عنها بالنتيجة تأثراً بالأرسططالية ألفه في المقولات والصياغة وهذا أمر حاسم ؟ .

أقول بالمناسبة أن العقل التحليلي – الانتقادي الذي استخدمه الطرفان أداة ذات أهمية حاسمة ، ولكن الأكثر حسماً هو خلفية التحليل وموضوعه .

انه سؤال من جملة أسئلة أخرى طرحتها ؛ لا أزعم الإجابة عليها ، لا أزعم حتى صياغتها ؛ وإنما التمهيد إلى هذا ، ألقاء تسليط النور على بعض أبعادها ، إذ أسائل مرة بعد مرات الفكر الإغريقي في مفرداته الأساسية بمدلولها وبمدلول التعريب ؛ يدفعني إلى ذلك الإمام الغزالي الذي ، إذ نسب الضلال والبدعة إلى عدوى « سقراط وبقراط وافلاطن وأرسطاطاليس وأمثالهم » (١) دلنا ، إن لم يكن بكافة أفكاره فبموقفه الصارم ، إلى حيث الخلاف والتنافر ، إلى حيث الإحراج الذي يجب علينا استبقاؤه كي يكون ثمة حوار وتفاعل ، اليوم كما بالأمس .

لم يوجد أرسطو من العدم ، بل هو نتاج تراث يرقى إلى أكثر من قرنين . فقبله أكد برمنيدس على التجاوب الانطولوجي – ينبوع علم الوجود – بين الفكر والوجود (٢) ؛ وكذلك هرقليطس الذي رأى في اللوغس ، حيث تتجمع تعارضات الوجود وتأتلف وتعبر (٣) . وقبلها فإن انكزاغوراس هو الذي وضع البصيرة (نوس) في صميم الموجودات على ما يقول أفلاطون (٤) .

وقبل هذا وذاك ، قبل الزمان والمكان وقبلها وبعدهما ، ثمة ناظم لغزي للموجودات والمعقولات هو (انانكه) نرسم للكل والجزء طريقاً لا طريقاً سواها .

فالتحليل الذي يتم في فسحة المراجعة ، يستعيد « أولا » أو « أصلا » يفصله منطقياً ليسوغه أمام العقل . تلك كانت مثل افلاطون وصور ارسطو وغيرها من النظريات

(١) تهافت الفلاسفة ، الطبعة المذكورة صفحة ٥ .

(٢) جان بوفره ، المرجع المذكور صفحة ٦٠ ، أو لمزيد من الإيضاح ترجمته *لقصيدة برمنيدس* وتعليقه عليها ، المنشورات الجامعية الفرنسية بباريس .

(٣) هيدجر ، محاولات ومحاضرات ، الطبعة المذكورة صفحة ٢٤٩ وما يلي .

(٤) الفيدون (فاذن) في الطبعة المذكورة صفحة ٩٦ .

الفلسفية ؛ كل منها ، اذ يستجيب لمشكلات عصره السياسية والثقافية وغيرها ، يجعل من الماضي حاضراً ومن لسان الأصل لسان العقل .

وذلك هو إحراج النقاش حول قدم العالم ؛ اذ ان نقل برهنة ارسطو من الكوزمس المغلق إلى آخر « العالم » منفتح إلى مالا حد له وعلى اللامتناهي ، ادخل بعد الزمان على الموجود الا رسطالي وفجرمن الداخل. فالقديم العربي مغاير لـ(أرخه) الا غريقية ؛ هذه نقطة وقوف ، وأما ذاك فحاضر يستدعي ماضياً قبله ، وهذا آخر قبله ، وهكذا إلى مالا نهاية له . واللا متناهي ، كما لا حظ العرب قبل ديكارت بقرون ، لا يحصل من إضافة شيء إلى . . . كما في السلسلة الرياضية غير المحدودة تعريفاً ، بل إنه حقيقة إيجابية يعطيها العقل صيغة السلب (لا — متناهي) لعجزه عن تصور موضوعها . وهذا هو مدلول الأزل « عدم الأولية » كما يقول التفتزاني (١) .

فالخلاف هو :

أولا حول العالم (مجموع الأشياء) ماإذا كان يؤلف كلا مكتفياً بذاته (كوزمس) أم انه في وجوده ناقص ، وبالتالي منفتح بانفتاح مطلق .

ومن ثم حول الموجودات ؛ فهي ، في النظر العربي مخلوقات ؛ وهذه جائزة تعريفاً ؛ ماهيتها ليست من طبيعتها ؛ أو هي أحداث ؛ وهذه آيات ؛ والآية تدل أكثر مما تعين وتحدد .

والحدث — الآية — وهذا ثالثاً — يستبق ؛ لا يرد إلى مفهوم ، ولا يعبر عنه بلغة التحليل (إلا اللهم في مرحلة النقد) بل يخبر عنه . ولهذا كانت الرواية النوع الأدبي المفضل لدى العرب ، المتقدمين والمتأخرين ؛ وكان الخبر طريقة الأداء التي بلغت ذروتها عندنا .

ورابعاً ، حول الروابط بين الموجودات أو السبب بالمعنى الأعم ، في حين ان السبب عند الإغريق ما « يجيب . . . عن أمر آخر » وأن الأسباب الأربعة المعروفة أفعال (بالمعنى الا رسطالي) كل منها يجيب ، من زاويته ، على ظهور (ومنه الظاهرة) الموجود في فسحة الوجود (٢) ، نلاحظ أن الظهور في الفكر العربي الأول هو البيان (ومنه المبين) ؛ وهذا

(١) التفتزاني ، شرح العقائد النفسية ، تحقيق وتقديم كلود سلامه ، نشر وزارة الثقافة بدمشق ، الصفحات ٣١ — ٣٧ حيث توجد ملاحظات ثابتة حول اللامتناهي ، والموضوع عولج بعناية في تراثنا .

(٢) راجع ملاحظات هيدجر الحاسمة حول معنى كلمة سبب لدى الإغريق بخاصة في كتابه محاولات ومحاضرات ، الترجمة المذكورة الصفحات ١٢ — ١٦ .

تجلي الموجود دفعة واحدة وبكافة أبعاده في النور ؛ أما السبب فهو « ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه » (١) .

خامساً حول الناظم للموجودات والضابط لوجودها : أهو متضمن فيها أم غائب ، فعل حضوره في غيابه ؟ ولهذا – وتلك فرضيّ – كان الرابط في القضية بين المحمول والموضوع ضمير الغائب (هو) .

وأخيراً ، وهو أهم مما تقدم :

عندما راجع الفكر الإغريقي برمته ذاته مع أفلاطون – وكانت تلك خطوته الأبعد مدى – جعل من المذاكرة البعد العمقي للمعرفة وللموجودات ؛ فالعلم إستذكار ؛ والتربية عودة الذاكرة ؛ والتعبير ذكر : ذكر الأصل إذ كانت الموجودات في حضورها الأكمل .

تلك كانت نهاية

وهي لدى العرب بداية .

فالآية إذ تحيل تذكر . والقول ، إذ يدل ، يحيل إلى القول الأول ؛ إذ قال للموجودات : كوني فكانت ، وأبدعها على أحسن تقويم ، عهداً بأن تبقى – أن يبقيها – ما برحت تذكر .

فالعربي إنسان الذكر .

والفارق أساسي : فارق المنفعل عن الذاتي ، الأول يؤسس العلم ، والثاني دلالات الوجود .

ولهذا كان التعارض الأكثر جذرية والأكثر خصباً في الفكر العربي بين العقل والنقل . بين الفلا – ذكر والذكر .

والسؤال العربي الأكثر أصالة : عن دلالات الوجود ، عن المصير ، عن الحرية في وجود ، وجوده أعطي له .

وأما النقائض التي اخترقت الفكر العربي وكانت موضوع الخصومة : الموجود – العدم ، الواجب – الممكن ، الصانع – المصنوع ، القديم – المستحدث ، التقدير – الاختيار ، الخ ، فإن هي إلا دلالات الوجود – بعض منها – وقد صيغت في لغة أرسطو ، مع أن قدرتها في دلالتها أكثر مما هي في صياغتها .

(١) تعريفات الجرجاني ، مادة علة .

ومع ذلك فقد كانت الصياغة واحراجاتها ضرورية ، إذ كيف يمكن للانسان أن ينمو ويتقدم إذا لم ينتقل من لسان الأصل إلى لسان العقل !

وبعد فهذه الصياغات هي التي مهدت السبيل إلى المعقولية الحديثة التي ، اذ استعادتها ، تكشف – وما تزال – عن نقائض أخرى .

أجل مهدت ، إذ فجرت العقل التحليلي لتعيد إنشاءه .

وبالنتيجة ذابت المعقولية الارسطالية في الفكر العربي . صهرها هذا عندما عادت اليه سكينته وهو على ليالي الشتاء .

تشهد على ذلك الموسوعات التي وضعت يومها .

فمقدمة ابن خلدون التي كانت خلاصة مرحلة وخاتمتها ، وفاتحة أخرى طال انتظارها ، لتدل ، إن دلت ، على أن الفكر العربي كان قادراً على تخطي ذاته وتخطي الثقافات التي يواجهها .

أفهو اليوم قادر ؟

تلك هي المسألة .

. . . فإلى التعريب الثاني

ونحن اليوم نواجه تعريباً آخر ،

اقحمتنا فيه حركة لا تقاوم ، انطلقت من صميم الشعب ، إذ رأى بعفوية الشعوب في الساعات الحاسمة ان طريق الخلاص في الوحدة ، وهذه تكافىء – أو تكاد – فعل التعريب . في فترة وجيزة – ربع قرن أو أقل أو أكثر تبعاً لكل قطر :

١ – انحسرت العامية ، تقلص مجالها ، وأخذت الفصحى تحل محلها ؛ فالتفاهم اليوم ميسور بين الأقطار ، بخاصة بين مغرب العرب ومشرقهم .

٢ – عرب الأعلام ؛ فتكون رأي عام عربي موحد ، ألفه حول الأهداف الكبرى للأمة .

٣ – ترجم عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والأدبية ، ووضعت نصوص مبتكرة من وحي النضال ومشكلاته ، وحقق ونشر جانب هام من التراث ؛ وأصبح بالإمكان تعريب المدرسة بكافة مستوياتها ؛ فسقطت بسرعة ذرائع خصوم التعريب وتلاشت حججهم .

وتلك بديهية : انك لا تستطيع التوجه إلى الشعب إلا انطلاقاً من مشكلاته الحقيقية ،

القريب منها – خبزه اليومي – والبعيد – كرامته وهويته وحريته – ، تلك التي يعبر عنها بلغة أجداده وتاريخه .

أما الشك في قابلية لسان لتمثل العلوم والآداب فخطيئة لا تغتفر ؛ إذ أنه الشك بالإنسان ؛ وقديماً رأى ديكارت في العقل قسمة عدل بين البشر .

والشعب هو الذي دفع الحاكم ، بالتمرد وبالثورة ، بالاحتجاج وبالتظاهرة ، أولاً إلى فتح المدارس ، إذ أقبل عليها ؛ ومن ثم إلى تبني الحداثة ، إذ زحف على المدينة ؛ وأخيراً إلى التحرر ، إذ باشره في الوقت المناسب وغير المناسب .

فالتعريب بعد من أبعاد معركة كلية ، اقتصادية وسياسية ، جغرافية (الأرض) وتاريخية (التراث) ، علمية وفنية ، بعد هو أساس ومستقبل .

وطريق الشعب طريق اللاعودة .

ومع ذلك فالطريق في بدايتها ،

وسوف تكون أوسع أفقاً وأبلغ مفعولاً مما نتصور لأول وهلة ؛

سوف تكون كالأولى تحكاً لقدرتنا على التمثل .

إذ من نتائج ما تقدم :

ان الترجمة انفتاح على الآخر ؛ فهي تلقٍّ ؛ وان التعريب شق طريق اليه فهو فعل .

ان الترجمة تزيد حصيلة المترجم من المفردات والتعابير والمعاني ، وان التعريب استعادة لكل ذلك في إبداع ، أصالته متناسبة مع درجة فعاليته .

فالترجمة والتعريب مثلا زمان كما الانفعال والفعل ؛ أولوية أحدهما على الآخر مقياس به تقاس فعالية الأمة .

والترجمة في منظور التعريب استحالة في القطبين الناظمين لوجود الإنسان – القمة والقاعدة إذا صح المجاز – أقصد الحساسية والعقل ، يلتقيان في اللسان ، فالبيان رهن بها .

والكل يستند إلى هذه الحقيقة الأساسية وهي أن التعبير ليس حيادياً ؛ فكل تبدل يطرأ عليه يستدعي الموجود الإنساني في ماهيته ووجوده ويبدله .

وهذا ما وقع فعلا : فخلال ربع قرنٍ الذي أشرت اليه امتص – وما يزال يمتص – موروثنا اللساني من طريق الأداء ما أقحمنا مرة ولكل مرة في صميم الحداثة .

ويبقى سؤال كبير معلق : لأية درجة بوسعنا أن نكون منتجين أكثر منا مستهلكين ؟ .

كانت لأجدادنا نظرة النسر ؛ يحلق ، يطل من عل ، يحدد الهدف ويذهب اليه في خط مستقيم .

بهذا عرفوا هدفهم ، ومقابلهم التاريخي .

فأرسطو ليس فرداً من الناس . إنه عالم كامل ما يزال يستدعي العقل اليوم كما بالأمس القريب والبعيد . وإلا فعلام الخصام حوله ؟ أرسطو هو عقل الإغريق في أعمق وأبقى ما أعطى. إذ عندما كتب كان مركز الثقل السياسي – والثقافة لا تنفصل عن السياسة – يتحول من بلاد الإغريق إلى أماكن أخرى . فكأن عقل الإغريق في تلك الأيام الحاسمة ، وهو يبلغ نهاية مطافه ، قد ختم مرحلة ليبدأ أخرى ؛ كما حبة الحنطة ، يجب أن تموت لتعطي ثماراً كثيرة .

ويدرك أجدادنا هذا فيواصلون الطريق حيث وقفت ، لتصبح معهم طرفاً ، كما أشرت إلى ذلك .

والواقع أن أرسطو مكن أجدادنا من شق فسحة الحضور : حضورهم لذاتهم وحضورهم للتراثات الأخرى .

والتراث ، أياً كان ، ليس جملة معاني وقيم وأفكار ، أو جملة مفردات وأنماط من التعبير ، كلها معروضة أمامنا ، كما الأشياء ، كما السلع في واجهات المبيع ، ينتقي منها الشاري ما طاب له ؛ وإنما هو رصيده ، قدرته الا نتاجية متناسبة مع قدرتنا على توظيفه واستثماره ، أي على استعادته وتمثله وإبداعه .

التراث هو شخصيتنا تنتج بنسبة قدرتنا على تحريرها .

وإني لأتساءل ، اليوم ، والتراث جزء هام وأساسي من برامجنا ، أهو الذي يربي أجيالنا الناشئة ، أم أن هؤلاء يستمدون ثقافتهم من مصدر آخر ؟ لا بل أتساءل : أهي الآداب الأجنبية والعلوم الوضعية التي تثقفنا كلنا أم وسائل الإعلام التي ، إذ تبسط المعارف ، تدخل عليها الا بتذال إذ تهبط على المرء جاهزة كالعقاقير تلتصق به وتمتصه كله . ؟

إن المعرفة – أياً كان مصدرها – لا تصبح ثقافة إلا إذا ألفنا بيننا وبينها فاصلا ، هو حيث العقل يمارس دوره التمييزي والا نتقادي ، وحيث الحرية تمارس دورها الإبداعي .

والقيادة في هذا الفاصل وهذه الفسحة .

فإذا قلت انها غاية – أو تكاد – فلا أظن اني أبالغ .

ان الشعب يدل ويقتصر على الدلالة . إذ انه ملتحم بالتاريخ . وهو ، لهذا يتمتع بحس

متعاوضين ومتلازمين : حس القديم من حيث انه القيم عليه ، وحس المستقبل من حيث ان الشعب في تطلعاته .

القيادة تلي ؛ واذ تستخلص ما يلزم عن الدلالة من نتائج تستحيل طليعة . فمتى تباشر القيادة مهمتها لتنتقل من مستوى العفوية إلى مستوى التخطيط ؟

ذلك هو السؤال الذي يطرحه التعريب علينا اليوم .

* * *

وربما أن النصوص الأفلوطينية في تراثنا ، تضاهي ، عدداً ونوعاً ، النصوص الأرسطالية .فأفلوطين صاحب نظرية الفيض التي هي من مقومات الميتافيزيقا الكلاسيكية عندنا . وهو أيضاً الذي وفر المتصوفة الهيكل العقلي ، عليه أشادوا ممارستهم النظرية والعملية . وأخيراً فانه ، في تاريخ الفكر الإنساني ، صاحب أكبر محاولة لتعقيل الحياة الروحية .

ومع ذلك ، أغفلته ،

أغفلته لاعتقادي الجازم أن المرحلة الراهنة ارسطالية أكثر منها أفلوطينية . أقصد عقلية تريد ذاتها عقلية خالصة ، أيا كان اللامعقول الذي تفرزه . وعلى من يعيش الحياة الروحية أن يجد السبيل الوعرة اليها في زمن ، حتى الروح استحالت فيه جسداً . ونحن الذين نواجه اليوم هذه المرحلة بالتعريب وبغير التعريب ، علينا أن ننظر إليها من هذه الزاوية ؛ منها أولا ؛ إذ فيها تتجمع ، وما تبقى يلي .

من البديهي أن كلمة (عقلي) لا تساوي كلمة (ارسطالي) ، مهما وسعنا المفهوم الأخير . وقد تكون معقولية الحداثة مناهضة للارسطالية ، كما يرى بعضهم (١) ورأيهم صحيح بمعنى ما وحد ما . فتجربة تاريخية ، أيا كان مداها ، لا تعاد . بل إن الانسان في هذا المجال ، كما في غيره ، يفجر الماضي ليكشف عن لا - مقوله ، فينشيء منه وعلى أنقاض الغابر بناء الآتي .

---

(١) راجع على سبيل المثال ، بشلار فلسفة الـ - لا ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، حيث يركز المؤلف برهنته حول نقض مبدأ الهوية الارسطالي .

إلا ان تجربتنا التاريخية التي حاولت استشرافها كاشفة عن الجانب في الوجود العربي الذي يستدعينا اليومَ كما بالأمس ؛ أقصد استعادة الأصل عقلا ، أو بشكل أعم علاقة الأصل بالعقل . وبذلك نواصل الطريق حيث وقفت وتوقفت .

ان وحدة العرب في أصلهم .

وأصلهم في الكشف العظيم الذي أشرت اليه ، الا وهو الموجود من حيث دلالاته الكبرى ، أو في طرحهم السؤال الأكثر جذرية : من هو الانسان ؟ ما مصيره ؟ ما موقعه من الوجود ؟ ما هو في مواجهة الطبيعة وما فوق الطبيعة ؟ . .

وكان لهم جوابهم . . كما ان لكل وحدة ثقافية ؛ لكل أمة ؛ لكل مرحلة تاريخية . . لكل انسان . . جواب .

هذا يتمرد وينفي ، وذاك يقبل ويذعن ، وغيرهما يردد ويعلق .

كما ان لكل منهم سؤاله ، بالأصح صياغته للسؤال ، طالما أن لكل انسان ، فرداً وجماعة ، موقعه من التاريخ .

وربما أن السؤال واحد والجواب واحد .

وهكذا تتعدد الصياغات عاجزة عن الإحاطة بالذي يحيط بالموجودات ويحفظهـا في الوجود .

ان موقع العرب من التاريخ الفكري والثقافي للإنسان ، انهم كانوا على مفترق الطرق بين الساميين الأوائل والعصور التي تلت ؛ استنادوا – عربوا – سؤال الأصل . عربوه وعقلوه ونقلوه الينا ، نحن ورثتهم وإلى بقية الأمم ؛ فكانوا واحداً من المحاور الأساسية لتلاقي بين الأصل والعقل .

وتلك دلالة وجودهم .

فما هي دلالة وجودنا ، نحن أحفادهم ؟

ما الطريق اليها وإلى وجودنا في التاريخ ؟

ثمة نقطة لا شك فيها عندي وهي ،

من حيث صياغتها العامة أن العقل هو المرجع بين البشر بما هم كذلك ؛ فاليه يحتكمون ، وحول تعقيل الموجودات يختصمون . والعقل بعد واحد – قسمة عدل بين البشر كما يقول

ديكارت – وفي الوقت ذاته انماط لا تنتهي من التعقيل ؛ لكل عصر نمطه يستجيب لمشكلاته السياسية والثقافية ، الاقتصادية والإجتماعية وغيرها .

من حيث صياغتها الخاصة ، انه إذا كانت طريق أجدادنا إلى أصلهم وإلى الأمم مرت عبر ارسطو ، فطريقنا تمر عبر معقولية الحداثة التي هي المعقولية الإجرائية .

* * *

ان فعل التعريب يحاذي فعل التعقيل . فليس من قبيل الصدفة ان ترجم العرب عبارة ارسطو المعروفة « الإنسان حيوان عاقل » بـ « الإنسان حيوان ناطق » ؛ اذ رأوا في كل ظاهرة انسانية وجهها التعبيري بحيث أن فعل التعريب عندهم يكافىء – أو يكاد – فعل التعقيل .

وهذا الجانب من الموضوع هو الذي يجب علينا أن نوجه اليه أكبر قسط من اهتمامنا ، اذ ننقل إلى لغتنا بالدرجة الأولى القمم الفكرية الكبرى ، تلك التي كونت العقل الحديث في كافة المجالات .

فليس من قبيل الصدفة أيضاً أن أصبح لساننا بعد ترجمة الثقافات الأجنبية غيره قبلها .

والأمر كذلك اليوم ، رغم اختلاف المعطيات . فتسارع الترجمة منذ ربع قرن ، وعلى ما فيه من فوضى مؤسفة ومؤذية ، قد جعلنا نتكلم لغة غير التي كان يتكلمها أجدادنا الأقربون ، ونستخدم ألواناً وأنواعاً من الكتابة لم يعرفها هؤلاء ولا الذين سبقوهم .

ولم تفقد مع ذلك لغتنا هويتها .

وبعد فان اللسان الذي هو مؤسسة ، يحيل إلى المؤسسات الأخرى ، الإجتماعي منها والإقتصادي ، السياسي والثقافي . فقد نقلنا ، في هذه المجالات ، من انماط التنظيم مالا سابق عهد لنا به . أشير بخاصة إلى طرق امتلاك الثروة وانتاجها وتوزيعها ، ومن ثم ترتيب الجماعة في أطر مهنية وادارية (النقابات ، الاتحادات ، الإدارة المحلية) تلائم الاقتصاد الحديث ، وأخيراً اعداد الشعب في التنظيمات الحزبية ليسهم في شؤون الدولة .

والمؤسسات هذه تحيل بدورها إلى القوى الشعبية الطليعية التي استدعتها وتجاوبت معها ، قوى انبثقت من صميم اللا – تاريخ لتحتل ساح التاريخ ، ويكون لها القول الفصل في أحداثـه .

كل ذلك ، وأيا كانت قيمته ، أسميه تعريباً .

اذ ما التعريب ان لم يكن الشعب العربي معبراً عن إرادته ؟

وأسميه أيضاً تعقيلا .

فاذا ما انطلقنا من هذه النقطة ، إذا ما انطلقنا من القوى ومؤسساتها ، ندرك البون الشاسع الذي يفصلنا عن المعلم الأول ـ ارسطو ، إذ رأى النموذج الأكمل للجماعة في الدولة الصغيرة (المدينة – الدولة) والفرد في الحكيم الذي حقق توازنه في ذاته ومع الكون ، لم يشهد ما تشهد اليوم من حركات شعبية وقومية وعالمية تتصاعد وتتزايد ، متوقعة القيادة التي تضبط حركاتها لتبطي مردود طاقتها كاملا وخير الإنسان .

ولهذا تبدل فعل التعقيل .

فهو اليوم ، تصور هذه القوى ، رصدها ، سبرها ، احصاؤها إذا أمكن ؛ ومن ثم تصور حركتها ، وحيث تتجه هذه الحركة ؛ وأخيراً وضع الخطة لاستقطابها وتسييرها في الخط المناسب للمصلحتين القومية والإنسانية .

وذلك هو النموذج الإجرائي : تصور مزدوج الحاضر في مستقبله ، والمستقبل في حاضره بحيث يستنبط الواحد من الآخر .

وتلك هي معقولية الحداثة .

ليست ذرائعية ما ، ترى الحقيقة في النجاح

ليست واقعية تطبيقية ما ، تعطي الأولوية للنتائج المباشرة ، على حساب الأفق الأوسع .

وإنما هي معقولية تستعيد ما سبق وتكمله ، اذ توحد بين النظر والعمل ؛ فتجعل من الصدفة معقولية ، ومن المفاجأة فعلا حرا .

هذه المعقولية هي التي يجب علينا أن نعربها بادىء ذي بدء ، لا بترجمة كتبها وتأليفاتها وحسب ، وانما أيضاً وبالدرجة الأولى ، بترسيخها في وطننا و في كيان كل منا ؛ إذ بها وبها وحدها نستطيع أن نلم شتات وطننا المبعثر في دولة تعيد إلى هذه الأمة مكانها في التاريخ .

من هذا المنظور الأوسع يمكننا أن نفهم :

أولا بعضاً من اشكالات فكرنا ،

ومن ثم الدور الذي لعبه ارسطو والتراث الفلسفي الإغريقي عندنا في الماضي ،

ان نفهم ، ثالثاً ، فعل التعقيل الذي استثاره ارسطو والكامن في قلب المعقولية الحديثة .

وأخيراً وبخاصة الدلالة التاريخية للتعريب . فهذا ليس قطاعاً من قطاعات الثقافة ، وإنما هو الحركة التي بها تنمو العروبة إذ تجمع رصيدها لتواجه ثقافات الأمم فتؤلف من هذه المواجهة مستقبلا هو الأمة في تقدمها إلى ما شاء الله .

عوائق في طريق التعريب

الدكتور شكري فيصل

تتوالى خلال هذه العقود الأخيرة الإجتماعات والندوات والمؤتمرات على طول البلاد العربية وعرضها من أجل التعريب : الحديث عنه والتأكيد عليه والبحث فيه والخوض في قضاياه . . . وتتكاثر المقالات والأبحاث والكتب لتأصيل الفكرة والعمل على إنجاحها والتوفيق بين الخطى المتداخلة أو المتضالفة لتحقيق أهدافها . . ويكتب الكاتبون في ذلك ويبحث الباحثون . . . وينطلق ذلك كله من هذه الحقيقة الأكيدة التي أضحت بمثابة المسلمات في الحياة العربية وهي أن هذا الوجود العربي الذي نجهد له ونسعى في سبيله ونريد صياغته من نحو وتأكيده من نحو آخر واعتماده من نحو ثالث لا يمكن أن يتحقق إلا في نطاق لغة عربية سليمة أصيلة واحدة . . .

تنتظم ألسنة هذه الملايين التي تمتد بين الخليج والمحيط كما تنتظم عقولهم . . وتوحد بين أساليبهم في التعبير وبين أساليبهم في التفكير ، وتلائم بين جهودهم في نطاق المعرفة النظرية والبحث العلمي حتى لا تأتي هذه الجهود متنافرة أو مجهولة حين تتقاسمها مجموعة من اللغات الأجنبية التي فرض علينا أن تكون ، في هذه المرحلة بالذات ، لغة العلم عند العديد من علماء هذا الجيل والأجيال التي حوله .

ب – وإذا كانت بعض المؤتمرات والندوات أو بعض البحوث والمقالات في الماضي قد عرضت ، أو عرض بعض المشاركين فيها ، لهذا الأصل بشيء من التشكيك وحاولت أن تجعل العربية قاصرة على مرحلة من مراحل التعليم كالمرحلة الثانوية أو على فرع من فروع الدراسات كالدراسات الإنسانية ، أو على جيل من الأجيال كهذا الجيل الذي ينشأ في المدارس الأصلية أو التعليم الأصلي . . . وإذا كان شيء من ذلك قد ساور بعض النفوس أو استهال بعض الأذهان أو دعا اليه بعض الداعين ، فإن حركة التعريب قد انتهت بعد حول طويل وجهد متصل إلى قرار هذا المبدأ الأصيل : وهو أن أي تقدم علمي تريد الشعوب التي تطرق أبواب الحضارة المعاصرة أن تحققه لا يمكن أن يتوفر لها كاملاً ومثمراً ومنتجاً إلا إذا كان التعليم في هذه الشعوب يتم بلغتها . . وبقدر ما يكون من غنى هذه اللغة بقدر ما يكون من نجاح هذا التعليم وارتقائه . . وهذا يعني – بالنسبة إلى الشعوب العربية – أن هذه الشعوب لا يمكن أن تحقق حظاً كبيراً من تقدم في المعرفة العلمية مالم تكتسب هذه المعرفة باللغة العربية ذاتها .

جـ – وإذا كانت بعض الأصوات أو بعض الفئات قد أنكرت خلال هذه العقود الأخيرة مكانة اللغة العربية وتنكرت لها وتجاهلت ميزاتها وإذا كانت قد أخذت ببعض اللغات الأجنبية للتقدم الذي حققته هذه الشعوب التي تتحدث بهذه اللغات . . وإذا كانت العربية قد تعرضت لرياح جليدية عاتية حاولت أن تطمس على خصائصها الغنية التي تكفل لها مواكبة الحركة العلمية الواسعة وملاحقة المسيرة الحضارية العريضة وأرادت أن تتجاهل ماضيها حين نهضت بنوبتها الحضارية التاريخية – إذا كان شيء كثير من ذلك قد كان ، فإن الذي انتهى اليه الفكر العربي المعاصر أن هذه اللغة العربية تملك من القدرات ما يساعدها على أن تفي بكل حاجات الدراسات الحديثة ، لا تقتصر في ذلك على الدراسات الإنسانية وحدها ، ولكنها تجاوزها إلى الدراسات العلمية . . وأن ماتميزت به هذه اللغة من أسباب الغنى في الاشتقاق والتصريف والقدرة على المجاز والنقل ، ما يكفل لها أن تكون اللغة التي تكافىء التطور العلمي الحديث في ميادينه كلها ، والتقدم الحضاري الذي يسوق اليه هذا التطور العلمي بكل منشآته ومنجزاته .

— ٢ —

والمتتبع للجهود اللغوية خلال العقود الخمسة الأخيرة منذ كان إنشاء أول مجمع لغوي في دمشق هو المجمع العلمي العربي « مجمع اللغة العربية الآن » اثر قيام أول دولة عربية مستقلة في أعقاب الحرب العالمية الأولى – يستطيع أن يرد أكثر الذي كتب في موضوع التعريب أو أثير في موضوع اللغة العربية – سواء كان هذا الذي كتب في نطاق المعالجات القومية أو القضايا التربوية أو المسألة اللغوية – إلى هذه الثلاثة الأشياء .

أ – إلى هذه المسلمة القومية – الاجتماعية التي تربط بين الوجود العربي السليم وبين الوجود اللغوي السليم لأن فقدان هذا الوجود اللغوي المشترك يحيل الوطن العربي الواحد إلى جزر أعرابية متناثرة .

ب – وإلى هذا المبدأ التعليمي الذي يربط بين الإقبال على المعرفة العلمية وبين القدرة على تمثل هذه المعرفة على أوسع قياس عن طريق اللغة العلمية . . . لان العدول عن ذلك إلى لغة أجنبية يقطع الطريق على مشاركة أكبر عدد ممكن من أصحاب هذه اللغة ويجعل الزاد العلمي من نصيب نفر ضئيل محظوظ يتاح له أن يتمكن من اللغة الأجنبية ، ولا يتمكن من اللغة الأجنبية في العادة إلا القلة . . وكأنما يقود ذلك على نحو حتمي إلى نوع من الارستقراطية العلمية ، ما أشد حاجة الشعوب الناشئة إلى الانصراف عنها وتجنب الوقوع في أضرارها .

جـ – وإلى هذه الحقيقة العلمية التي انتهى اليها علماء اللغة العربية بالمقارنة مع اللغات الأخرى من غنى هذه اللغة ووفرة ما في طبيعتها وخصائصها من أساليب التوليد اللغوي الذي يمكن أن يكافىء – في شيء من الجهد المنظم – آفاق التطور العلمي الحضاري وأن يفي بكل حاجتنا تعبيراً وتسمية ووصفاً ودراسة .

— ٣ —

وإذا كان ذلك كذلك . . إذا كانت هذه الثلاثة تلخص جملة ما دار حوله البحث اللغوي وانتهى اليه فان السؤال الذي يلخص الموقف الحاضر هو إذن هذا السؤال : ما الذي يحول دون التعريب الكامل ؟.. ما الذي يحول بين حركة التعريب وبين أن تبلغ أبعد غاياتها في مواطن العربية كلها . . . في هذا الوطن العربي وفي الأوطان الإسلامية الأخرى التي تود لو تأخذ بالعربية لغة حياة على نحو ما تأخذ بها لغة دين .

وفي تقديري أن أول ما يجب أن نأخذ به في هذا المؤتمر وفي المؤتمرات أو الندوات التي

قد تنتج عنه أو تأتي بعده هو أن نتجنب معاودة البحث والحديث والنقاش حول هذه القضايا التي أشبع الحديث فيها ، حتى لا تظل قضايانا اللغوية وقضايا التعريب في مقدمتها موضع مراوحة : لها ذات الحركة المتكررة في الزمان وذات الحركة المتكررة في المكان .

إننا إذا أردنا أن نتقدم على طريق البحث اللغوي المنتج يجب أن نتجنب مثلا السؤال : لماذا التعريب ؟ لأنه أياً كانت الإجابة ، وأياً كانت أساليبها فان التعريب هو الصيغة اللغوية الموازية للوجود العربي . . . وليس هناك من يناقش في الوجود العربي إلا أولئك الذين يريدون أن ينالوا منه أو يشككوا فيه .

ويجب أن نتجنب كذلك مثلا هذا التساؤل : لماذا نصر على اللغة القومية في نطاق المعرفة العلمية ؟ فنحن نربط باطمئنان وثقة بين التقدم العلمي والتقدم اللغوي . . ونعتقد أن القدر الذي يحتاج اليه في الوطن العربي من التقدم العلمي ومن شيوع المعرفة العلمية ومن تحديث الفكر المعاصر لا يمكن أن يتم بعيداً عن المشاركة ، بعيداً عن الا نتشار ، وبالتالي بعيداً عن النقاش فيه ومعارضته أو تأييده وما تقود اليه هذه المعارضة وهذا التأييد من إغناء . . . والمساهمة فيه من حق هذا الجيل الجديد ، وهو الحق الذي حرمت منه الأجيال السابقة بحكم الغربة اللغوية .

ويجب كذلك أن نسقط إلى الأبد في مثل هذه المواقف التساؤل عن مميزات اللغة العربية والجهد المستمر المتكرر في الحديث عن خصائصها في مجال البرهنة على قدرتها . . فاذا تجاوزنا أن هذا أضحى حقيقة نيرة صادقة ، علماء اللغات المقارنة هم الذين انتهوا اليها وشهدوا بها وأكبروا العربية الذي قدر لها من صقل وخصائص تكاد تنفرد بها . . . إذا تجاوزنا هذا فان هذه اللغة هي لغتنا ، أياً كانت صفاتها . . ونحن نريد أن نعلم هذه اللغة ونتعلمها . وأن تكون لغتنا من المهد إلى اللحد ، وفيها بعد اللحد . . وأن تكون لغة البيت ولغة المدرسة ولغة الجامعة . أن تكون لغة المعرفة الإنسانية ولغة المعرفة العلمية ، وأن تكون لغة الحضارة المعاصرة والمقبلة كما كانت لغة الحضارة السابقة . . وانه لذلك كله لامجال — حين يكون الأمر متصلا بدراسة خطى التعريب — أن نطرح مثل هذه القضية وأن نضعها في كل مرة موضع المناقشة ، لننتهي دائماً إلى ذات النتائج .

وأحسب أنه ، مالم نغادر هذه الأسئلة وأمثالها من الأسئلة الأخرى التي تنشقمنها وتتفرع عنها وتتخذ في كل مرة وجهة وأسلوباً وصياغة فان مؤتمراتنا اللغوية ولقاءاتنا حول التعريب ستظل تبدأ من الصفر ، وأحياناً مما قبله . . . ثم تحقق بعض التقدم فيما تتخذ من مقررات وتوصيات . . . ثم لا يلبث أن يبدأ مؤتمر آخر أو ينشأ مؤتمر آخر . . . فاذا هو يعاود

الطريق من أوله مرة أخرى . . . ونظل في كل ذلك لا نحقق إلا أضعف الخطى وأبطأها على طريق طويلة ." . . ما أبعد آفاقها وما أكثر ما تحتاج اليه من جهود .

إن داء القضية اللغوية في ذلك يشبه أن يكون داء القضية السياسية .في السياسةالعربية أيضاً تتحدث – منذ ولدت هذه الأوضاعالتي نعيش فيها– عن الوحدة العربية .. عن ضرورتها ، عن مقوماتها ، عن ملازمتها للوجود العربي . . عن أنها وحدها طريق الخلاص . . . ثم لا نلبث أن نجد أننا نعاود ذلك بحثاً ، دون أن نتقدم على الطريق إلى الوحدة . . إذا لم نقل – والزمان دائب التقدم – اننا نسير القهقرى .

ولقد بدا لي ذات مرة أن أقترح على المجلات العربية – لو كان لي سلطة اقتراح –أن نوقف الحديث عن الوحدة العربية . . لأن ذلك ينزل من نفوسنا منزلة العقيدة . . بل هو جزء من هذه العقيدة . . ثمعاودة الحديث في ذلك قد تكون نوعاً من التشكيك . . والإنسان لا يبني عقيدته في كل يوم ثم ينقضها ثم يجددها . . والشعوب لا تخضع هذه التجارب وإنما تخضع حركة الشعوب إلى هذه المبادىء الكبرى دون مناقشة يومية لها وطرح الأسئلة المستمرة حولها.. وأنه خير من أن نبدىء في ذلك ونعيد أن توجه الأحاديث وجهة أساليب العمل وتوسعة الخطى وإدراك الغاية .

هنا ، في القضية اللغوية ، أحس أننا في حاجة إلى مثل هذا الاقتراح . . إلى أن نجاوز – – دون ردة – معاودة الحديث عن القضايا الأساسية في التعريب ، عن ضرورة هذا التعريب ، وعن أنه الطريق إلى المشاركة في المعرفة والمشاركة في الحضارة ، وعن قدرة اللغة العربيـــة على الوفاء بما تحتاج اليه المعرفة من الحديث عن مصطلحات وتسميات .

إني لا أقصد من هذا إلى شيء من تجميد هذه البحوث . . فليس شيء من ذلك مما أفكر فيه . . ولكني أريد أن تبقى هذه البحوث لأصحابها في الجامعات والمجامع والمخابر يغنونها بالاضافات ويثرونها بالنتائج . . أن تكون موضع إثراء لا موضع جدل . . . موضع عمل لها لا موضع نقاش متكرر مستمر فيها .

— ٥ —

من هنا أصل إلى أول الجواب عن السؤال الذي كنت انتقيته : ما الذي يحول بين حركة التعريب وبين غاياتها ؟.. ما هي العوائق في طريق التعريب ؟

إن تكرار الحديث في الموضوع الواحد ومعاودة طرحه وبخاصة حين يكون موضوعاً

ناضجاً يخشى عليه أن يحترق ، أو موضوعاً ينزل من النفس موضع العقيدة – هو أول العوائق التي تعترض حركة التعريب ، وتعرضها لشيء كثير من الجهد المعاد ومن الجهد المضاع . . وليس أجدى على حركة التعريب من أن تباعد ما بينها وبين القضايا النظرية وأن تتخذ وجهة عملية . . ليس أجدى عليها من أن يكون كل مؤتمر متابعة للذي قبله من حيث انتهى المؤتمر الذي قبله . . وحينذاك فإن الجهود لن تكون عقيمة والخطى لن تكون قصيرة . . وإنما ستحقق هذه المؤتمرات أكثر الحظوظ من النجاح وأوفر النصيب من طيب النتائج .

ولقد انتهى مؤتمر التعريب في الجزائر الذي عقد أواخر العام الماضي « عام ١٩٧٣ » بالجهود التي مهدت له وتقدمته – إلى أفضل النتائج التي أحسب أنه ما حققها مؤتمر قبله . . . لقد انتهى هذا المؤتمر إلى اقرار المصطلحات العلمية في ستة من العلوم : في الفيزياء والكيمياء ، وفي الحيوان والنبات ، وفي الرياضيات والجيولوجيا ، في المرحلة الثانوية . . . ولم يبق إلا تعميم هذه المصطلحات والأخذ بها ، حتى يكتمل تعريب المصطلح الثانوي لتبدأ بعد ذلك مرحلة تعريب التعليم الجامعي .

ومن عجب أن هذه الخطوة الضخمة لم تنل حقها من الإشادة بها . . وعلى أن تلك مسألة ليس هذا أوان الحديث عنها . . فأنا إنما أشير اليها على أنها عقبة من عقبات التعريب . تتمثل في فقدان التسلسل والتتابع على بناء الصرح اللغوي .

وإذا كانت معاودة طرح القضايا النظرية هي من أشكال عوائق التعريب . . فان انقطاع الجهود أو انقطاع تواصلها هو شكل آخر من أشكال هذه المعوقات .

وبعد هذين تأتي سلسلة العوائق الأخرى التي أحب أن أقف عندها .

– ٦ –

ويبدو لي أن هناك سلسلتين من العوائق

١ – العوائق الخارجية وهي هذه العوائق التي تحتاط عملية التعريب من خارج . . إنها ليست جزءاً منها بل هي محمولة عليها حملا .

٢ – العوائق الداخلية وهي هذه العوائق التي تنشأ عن ممارسة الجهود في التعريب . . بما تقضي به هذه الممارسة من تنهيج وتخطيط وتنسيق .

أولا – العوائق الخارجية

هذه العوائق المحمولة على قضية التعريب والمفروضة عليها من هنا أو هناك تحتاج أن نواجهها مواجهة في غير مواربة ، وأن نقف عندها وقفة المتصدي لها لا وقفة المستحي منها .

ان جملة هذه العوائق تتمثل في قضية الالتزام بالتعريب ومدى الوفاء بهذا الالتزام. والالتزام بالتعريب ليس من شأن الأفراد والجماعات ولا من شأن العلماء والمتخصصين . . . ولكنه قبل كل شيء قضية قرار قومي سياسي يتخذه أولو الشأن في البلاد العربية جميعاً ، متعاهدين على الالتزام بالتعريب وبما يعانيه هذا الالتزام من اشاعة العربية في كل وجه من وجوه الحياة العلمية والعملية وفي كل مرحلة من مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية والعالية .

إن مثل هذا الالتزام هو وحده الذي يمكن أن يعطي قضية التعريب حجمها الحقيقي ومكانتها الطبيعية . . ذلك لأن العائق الأكبر في هذه القضية يعود إلى أنها قضية،وجودها الواقعي وجود هزيل ضامر بالقياس إلى وجودها النظري . . وإن قيمتها في إقامة الحياة العربية الأصيلة لا تجد ما يوازيها في الحياة الفكرية والتعليمية والإدارية في أكثر البلاد العربية . . . وانه إذا كانت ظروف قاهرة مثل ظروف الاستعمار – في الماضي – قد أبعدت اللغة العربية عن مكانتها في الحياة ومكانتها في الفكر ، فان رد الفعل الطبيعي أن تعود هذه اللغة إلى مكانتها . . بل إلى ما هو فوق مكانتها إن صح هذا التعبير . . وذلك كفاء ما كان من غيبتها أو تغييبها .

ومالم يكن هذا الالتزام ، أعني مالم تتخذ الحكومات العربية مثل هذا القرار القومي السياسي ، في اجتماع من اجتماعات القمة ، فان كل جهد يبذل في نطاق التعريب يبقى هذا الجهد النظري الذي لا يجد من يطبقه أو يستخدمه أو يعنى به . وتبقى الحماسات التي ترافق هذا الجهد والوقت الذي ينفق فيه والمؤتمرات التي تعقد له ، يبقى ذلك كله مهدداً بأن يهمل حيناً وأن ينسى حيناً وأن يعاد الحديث فيه أحياناً وأن يطغى عليه الواقع اللغوي المشتت في كل الأحايين .

ومالم يكن هذا الالتزام كذلك ، فان العاملين في قضايا التعريب يحسون حيناً بعد حين نوعاً من الانتقاص والنكوص ، ويغطي عملهم شيء من قتام ، وتتبدد جهودهم على غير طائل . . ولا يبقى لهم مما يدفع بهم نحو العمل إلا بقية من إيمان يغالبون به كل بدوات اليأس في نفوسهم ، وكل غزوات الدخيل من حولهم .

إنني لاأقول جديداً . . ولست وحدي الذي أقوله . . وإنما أضحى هذا الأمر عقدة العمل كله في قضية التعريب .. يتحدث فيه الجامعيون والمجمعيون على السواء ، يكتبون ويحاضرون

ويتحدثون عنه في كل مرة يجتمعون . ألم يقل المرحوم الأمير مصطفى الشهابي الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية بدمشق ، في مقال له في هذا الموضوع تحدث فيه عن بعض المبادىء في حركة التعريب « نريد أن تلتزم الحكومات العربية استعمال الألفاظ العربية والمعربة في أدارتها ومحاكمها ومدارسها الرسمية والأهلية » .

وبعد ، فان الذي يساعد على اتخاذ هذا القرار أن مصطلحات العلوم في مرحلة التعليم الثانوي قد أقرت في مؤتمر التعريب الثاني في الجزائر . وذلك يعني أن الأخذ بتعريب العلوم في هذه المرحلة قد مهدت سبله واكتملت وسائله ولم يبق فيه معتذر لمعتذر .

وذلك يعني أيضاً — حين تمضي الأمور في طريقها الطبيعي — أنه لابد من الأخذ بالتعريب في مجال التعليم الجامعي ضماناً للاستمرار ، ومنعاً للبلبلة .

أفلا يكون من حقنا اذن في هذا الاجتماع أن يكون أول ما نطالب به وأشد ما نصر عليه أن نزيح هذا العائق الضخم من طريق حركة التعريب ؟ .

ثانياً — العوائق الداخلية

هل هناك عوائق داخلية حقاً تلازم حركة التعريب . . أم أن هذه العوائق تأتي أثراً لهذا العائق الخارجي الذي قدمت الحديث عنه ، تنتج عنه وتجيء منه ؟ . ألا يؤدي سقوط هذا العائق الخارجي والأخذ بمبدأ الالتزام بالتعريب إلى اسقاط كل هذا الذي يتراءى لنا أنه هذه العوائق الداخلية التي تنشأ عن عملية التعريب ذاتها .

أياً كان الأمر فان كل الذي تلاقيه حركة التعريب من عوائق وكل الذي يتبدى خلال ممارستها من صعوبات ، يمكن أن يتمثل في أمرين :

أحدهما : تشتت الجهد .

والآخر : غياب المنهجية .

أ — فأما عن تشتت الجهد فذلك أن جملة من القوى تنهض بعبء التعريب . .... بعض هذه القوى هيئات وجماعات ، وبعضها أفراد بأعيانهم آمنوا بهذه الغايات ونذروا أنفسهم لها .. وليست الهيئات سواء ، بعضها دائم وبعضها مؤقت .. وركنها الأساسي هذه المجامع الثلاثة في القاهرة ودمشق وبغداد وعناصرها من هؤلاء المجمعيين والجامعيين الذين آثروا لغتهم على اللغات الأخرى .. ومن ذلك كله بدت الجهود المبذولة في التعريب وكأنما يلازمها هذا التشتت .. وحين نسند هذه الجهود إلى البلاد العربية أو إلى أصحابها من هيئات أو من أفراد نحس هذا التشتت . . وحين

تحاول توزيعه على فروع المعرفة العلمية ندرك وجهاً آخر من وجوه هذا التشتت اذ يظهر نصيب بعض الفروع أضعاف أضعاف نصيب فروع أخرى .

وأحسب أنه من هنا كانت الفكرة الأساسية في انشاء اتحاد مجامع اللغة العربية . . ولابد لهذا الاتحاد من أن يتاح له كل وسائل العمل وأدواته حتى يستطيع أن يدفع هذا التشتت . . وحتى يستطيع أن يقدم خطة كاملة لعمل مشترك في نطاق التعريب . . وحتى تكون جهود الهيئات والأفراد في ذلك كله جهوداً متكاملة تدور في أفضل مسارها وتعطي أكل مردودها .

ان من نافلة القول أن أتحدث عن صور من هذا التشتت في المعاهد والجامعات وكيف تختلف المصطلحات وكيف يتباين المصطلح بين جامعة وجامعة في بلد واحد حينا ، أو بين كلية وكلية حيناً آخر ، وبين قسم من كلية وقسم يجاوره حيناً ثالثاً . . . ومن نافلة القول أن أتحدث عن عديد من معاجم الطب في دمشق وبيروت والقاهرة وبغداد . . ما بينها من من تباعد قد لا يكون أقل مما بينها من اتفاق .

فاذا مضت حركة التعريب في مثل هذا التشتت فان الأمر يوشك أن يكون حجة في أيدي خصوم التعريب . . ثم تتسرب هذه الحجة إلى ألسنة بعض القائمين على الجامعات العربية ممن لانشك في أنهم يريدون الأخذ بالتعريب . . ولقد سمعت في جلسة عامة من مسؤول جامعي كبير كان يدور فيها البحث عن تعميم التعريب قوله : أعطوني مصطلحاً موحداً وأنا قمين أن أشيع استعماله في جامعاتنا .

ب – وأما غياب المنهجية فلعله وجه آخر من وجوه تشتيت الجهد أو سبب فيه . وتتبدى الحاجة إلى المنهجية في مراحل كثيرة من مراحل حركة التعريب . . تتبدى في صورة خاصة حين نواجه هذا الخلاف بين اللغات الأجنبية في التعبير عن المصطلح الواحد ، وكيف نختار وماذا نختار . . وحين نواجه الخلاف كذلك في تعريب السوابق واللواحق التي تتقدم الكلمة الأجنبية أو تضاف اليها . . هل نأخذ بها وكيف نأخذ بها . . كما تتبدى مثلا حين يصطرع النقل والتعريب والمجاز والوضع والنحت ، ماذا نفضل وكيف نفضل .

والحق الذي يجب أن نعلنه ونأخذ به أننا لا نفتقد هذه المنهجية ولكننا نفتقد الأخذ بها ، والتطبيق المشترك لها ومراقبة تنفيذها . . وان عمل عقود عديدة من السنين في وضع المصطلحات

في نطاق المجامع قد أولى هذه المنهجية عناية خاصة ، وأدار حولها كثيراً من النقاش ، وانتهى فيها إلى جملة من القواعد (١) .

ولكن العمل المشتت في التعريب والجهد المبعثر في التطبيق يقود دائماً إلى الإعادة والبدء في مثل هذه القضايا التي تتصل بمنهج العمل ، دون كبير تقدم .

ان في قرارات مجامع اللغة وفي أبحاث كثيرين من أعضائها كبير غناء في ذلك . . والتغلب على هذه العوائق لا يقتضي شيئاً هو أكثر من تجميع هذه القواعدالمنهجية وطبعها ، وتوزيعها بين أيدي الباحثين ، منهجاً لهم وعلامات مضيئة على طريقهم .

أفلا يحق لنا هنا أن نطمع في أن يكون بين ر ؤوس المسائل المطروحة في هذه الندوة أن نأخذ بجملة هذه القضايا التي تتعلق بالمنهجية وأن ننطلق منها ؟

وبعد فان رصد عوائق التعريب يضعنا أمام حقيقة كبرى أحسب أنه لا بد من الأخذ بها .. أن يكون العمل للتعريب ، في مرحلة نرجو أن تكون جديدة من مراحل الوعي اللغوي، منطلقاً من الأخذ بالالتزام أولا ، ثم متفرعاً بعد ذلك في متابعة الطريق من حيث انتهى اليه عمل العاملين في هذا الطريق ، وفي تجميع الجهود بين الذين يجب أن ينهضوا بهذه الجهود، وفيتوزيع العناية على جوانب المعرفة العلمية كلها في ضوء ما كان وما نأمل أن يكون .

---

(١) راجع فيذلك كتاب « المصطلحاتالعلمية في اللغة العربيةفي القديم والحديث»للمرحوم الأمير مصطفى الشهابي .

لقاء مع :

جمال حمدان

- الحرب
- الوحدة العربيّة
- القوة السادسة
- الوطنية والقوميّة

أجرى اللقاء :
صفوان قدسي

•• فلنبدأ هذا الحوار من حيث انتهى إليه كتابك « ٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية » . هذا الكتاب يرسم خارطة سياسية وعسكرية وجغرافية للمعركة ، وهو يضع يده على مجموعة نقاط تشكل المحور الذي يقوم عليه الكتاب . وأكثر من ذلك ، فان الكتاب يحدد موقع هذه

الحرب من الاستراتيجية العالمية ، وينظر إليها باعتبارها تمثل تحولا بالغ الخطورة في هذه الاستراتيجية ، ويجيب عن السؤال الحاسم : لمن النصر ؟ .

• الكتاب هو قصة المعركة ، ولكن ليس على أساس سردي ، وإنما تحليل موضوعي وعلمي بقدر الإمكان . وأنا أعتقد أن هذه المعركة ، معركة فاصلة ، وخطيرة جداً ، وتحتاج منا إلى دراسات ودراسات ، وأرجو أن يكون هذا الكتاب مجرد بداية في مكتبة المعركة .

من الطبيعي أن جزءاً من الكتاب استراتيجي عسكري ، والجزء الآخر سياسي . في الأول نأخذ صورة عامة عن أرض المعركة ، المسرح الطبيعي للعمليات العسكرية في الجولان، أو في سيناء ، ونعطي صورة كاملة لأرض المعركة ، لطبوغرافية المعركة ، لمواقع العمليات والعوامل الطبيعية التي تسيطر عليها ، وتحديدها لمسار المعركة .ونخرج من ذلك بدروس استراتيجية ، وجيو – استراتيجية في منتهى الخطورة سواء بالنسبة للجولان ، أو بالنسبة لسيناء ،دروس يجب على المخطط العسكري في المستقبل أن يضعها في ذهنه دائماً ، وقد نعود إلى الحديث عن هذه النقطة بعد أن ننتقل إلى المعركة نفسها ونتحدث عنها بإسهاب، وبتفصيل كاف جداً ، نتعرض لجميع وجهات النظر ، ونحلل المعركة إلى مراحلها ، ونقسمها إلى عمليات مختلفة . والملاحظة الأساسية في هذا الموضوع هي أن هناك تناظراً عظيماً جداً ، في سير المعركة ، ومجراها ، على الجبهتين الجنوبية والشمالية ، ولعل الضابط المشترك ما بين هاتين الناحيتين ، هو التدخل الأمريكي الذي كان عاملا وضابطاً أساسياً للصعود والنزول في خط سير المعركة .

بعد هذا الفصل ، وهو في الواقع باب يشمل عدة فصول ، ونخصص فيه فصل كامل للمعركة السورية الكبرى ، ونبين فيها البطولات والأمجاد التي سجلها الجندي السوري الباسل، ندخل في موضوع في منتهى الخطورة ، واعتقد أنه مهم لكل مواطن عربي ، وهو : لمن النصر ؟ . . . من الذي انتصر ؟ . . .

هذا السؤال في ظني سؤال حرج جداً ، يجب أن نجيب عنه بدون أية مواربة أو تهرب . السؤال بسيط ، هو أن هناك شكوكاً أثيرت حول هذا الموضوع بالذات ، ليس فقط من

معسكر العدو ، ولكن من بين أشقائنا العرب أنفسهم . ولهذا كان همي الأساسي أن أجيب عن هذا السؤال بموضوعية ومواجهة مباشرة . . والرأي عندي بعد جميع المقارنات والدراسات والتحليلات العلمية البحتة من جميع المصادر ، هو أن العدو هزم هزيمة حقيقية ، وانتصرنا نحن العرب انتصاراً حقيقياً ، وإذا كان هذا النصر نسبياً أو جزئياً ، واذا كانت المعركة لم تكتمل لأسباب خارجة عن إرادتنا ، وهي التدخل الأجنبي المعروف تماماً ، فهذا لا يمنع أننا انتصرنا مائة في المائة . والعدو يقول انه انتصر ، بل إنه انتصر أكثر مما انتصر في عام ١٩٦٧ ، وهذا ليس إلا دعاية سافرة إنقاذاً لروحه المعنوية المنهارة كنوع من الحرب النفسية ، والدعائية . ولكن الحقيقة انه بعد المعركة اعترف كل قادته ، وانكشفت حقائق رهيبة جداً . كان معسكر العدو في انهيار تام ، وكانت معنوياته تحت الصفر .

« موشي دايان » كان رجلا محطماً ومهزوماً ، و « مردخاي غور » قال بأن الثغرة لم تكن إلا حقنة أنسولين لمريض بالسكر ، و « مابير » اعترف أنه كان بين إسرائيل وبين الهزيمة الكاملة ، والنهاية التامة لدولة اسرائيل « شعرة » .

كل هذا تكشف بعد المعركة ، لم يبق هناك مجال أبداً ، أو مبرر لأي عربي أو غير عربي ، يزعم بأننا لم ننتصر ، أو أننا انتصرنا انتصاراً باهتاً أو ضعيفاً .

لقد انتصرنا حقيقة ، وليس هذا أول نصر فقط يسجله العربي في ربع قرن ، ولكنه سيكون بداية نهاية اسرائيل في المدى البعيد جداً .

أنا أرجو أن أوضح هذه النقطة جيداً ، لن تنتهي إسرائيل غداً ، ولا بعد غد ، وتقديري كما توصلت إليه في الكتاب هو أن هناك على الأقل ربع قرن آخر إلى أن تعود إسرائيل إلى حد يمكن استئصاله وقهره ، وقد لا تمر سنة (٢٠٠٠) على المنطقة العربية إلا وإسرائيل تكون قد أصبحت شيئاً من الماضي ، لعل هذا يعطينا فكرة أن تاريخ إسرائيل كله عبارة عن منحنى صاعد في جانب وهابط في الجانب الآخر .

فمنذ سنة ١٨٩٧ ولغاية سنة ١٩٤٧ ، هذه فترة صعود ، وامتدت بعدها إلى سنة ١٩٦٧ . ومن ١٩٦٧ تبدأ فترة التحول . سنة ١٩٧٣ هي نقطة التحول الحاسمة ، وبعدها يبدأ السقوط .

قد نحتاج إلى مثل المدى الزمني السابق حتى تنتهي إسرائيل ، وهذا الكلام الذي قلناه منذ عدة شهور ، أصبح الآن حديثاً يومياً لجميع ساسة وقادة إسرائيل ، وخارج إسرائيل .

الحديث الآن لم يعد من الذي انتصر ، من الذي انهزم ، ما هي النتائج ؟؟ . . . . وإنما السؤال هو هل تبقى إسرائيل أم تزول ؟ . . .

فهذه المعركة ، معركة ذات أهمية كبرى في تاريخ العرب ، وسيكون لها ما بعدها ، هي الخطوة الأولى ، وسيعقبها مئات الخطوات ، لكنها هي نقطة الفصل ، ومن يريد أن يتفاءل ، فلينظر إلى (٦) أوكتوبر .

** هناك من يعتقد بأن قيمة انتصار ٦ أوكتوبر أنه أتى بعد هزيمة ساحقة ، حدثت في عام ١٩٦٧ ، فهل هذا كلام دقيق أم أن انتصار ٦ أكتوبر هو انتصار حقيقي بصرف النظر عن حجم الهزيمة التي منينا بها في ٥ حزيران ؟ . . . .**

* نعم ، هو يستمد أهميته من الناحيتين ، في حد ذاته على الإطلاق ، وبالمقارنة إلى سنة ١٩٦٧ ، أي على النسبة . فنسبياً ، وعلى الإطلاق ، هو انتصار ضخم بجميع المقاييس . بقدر ما تكون السقطة السابقة يكون الإرتفاع اللاحق ، لكن المعركة في حد ذاتها تعتبر نصراً استراتيجياً له قيمته التاريخية ، حتى لوكنا نطمع في أكبر منه . وعلى أي حال هناك تسليم تام من الجميع بأن المعركة لم تنته ، ولم تستكمل ، وأنها لأسباب خارجة عن إرادتنا ، حدث ما حدث . ولو لم يكن حدث ما حدث ، لكان من الممكن جداً أن تتعرض دولة اسرائيل للإنهيار الحقيقي .

معهد الدراسات الإستراتيجية السويدي قال ما معناه انه لولا التدخل الأمريكي لكان الطريق إلى تل أبيب رأساً مفتوحاً سنة ١٩٧٣ ، تماماً كما كان الطريق إلى القاهرة مفتوحاً سنة ١٩٦٧ . .

هذا فيما يختص بالفصل الخاص : النصر لمن ؟ . . بعد هذا الفصل ، نعقد دراسة مقارنة في الإستراتيجية الإقليمية بين حرب ٦٧ و ٧٣ .

هناك اختلافات جذرية بطبيعة الحال ، وهناك مجالات للمقارنة كثيرة جداً جداً .

أيضاً نقارن بين معركة ٧٣ وبين معارك الدبابات الكبرى التي حصلت في « العلمين » من قبل ، وفي حرب « ستالينغراد » في الحرب الثانية ، وهناك أيضاً حرب الهند والباكستان ، وهناك مشابهات عجيبة جداً ، يندهش القارىء جداً حين يعلمها ، ما بين حرب أوكتوبر ،

وحرب الهند والباكستان. كذلك نعرض للانقلابات الإستراتيجية التي أحدثتها حرب ٦ أوكتوبر ، سواء في استعمال الأسلحة ، سواء في تفوق الدبابات أو الطيران ، سواء من ناحية الدور الجديد للمشاة ، معناه بالنسبة للدول البرية ، بالنسبة للدول في العالم الثالث ، الدول المتخلفة التي لا تملك أسلحة ، ولا تفوقاً تكنولوجياً ، ولكنها يمكن أن تعوض بكثافة السكان. هذا كله يمثل انقلاباً في خريطة القوة على العالم .

المستقبل الآن للعالم الثالث من ناحية القوة العسكرية البحتة ، إذا اراد أن يستفيد من دروس أكتوبر .

أيضاً هناك مقارنات فيما يختص بقيمة الدفاعات الثابتة ، والمتحركة ، ونوعية المقاتل العربي الجديد ، والقصة الطويلة عند الجيش الذي لا يقهر ، الجيش الاسرائيلي ، وكيف قهر ، وكيف كان من السخرية مثلا أن الأسرائيليين كانوا دائماً يتباهون بأن أسرائيل، هذا الجسم الضئيل ، يدمر الدول العربية ذلك الجسم الضخم جداً ،وكان التشبيه المعروف في هذا هو داوود وغولياث .الذي حدث في أكتوبر هو العكس تماماً ، فقد جاء ليسخر من سخرية الإسرائيليين . الذي حدث أن الصواريخ المصرية والسورية من طراز سام هي التي حطمت الدبابات والطيارات الجبارة للجيش الذي لا يقهر ، وكان الوضع يكاد يشبه أو يذكرنا « بالارمادا » الإسبانية ، « الأرمادا » التي لا تقهر ، نفس الكلمة التي يستعملونها عن الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر .

فالذي حدث بالأرمادا أن البحرية الاسبانية الضخمة كالقلاع المتحركة تقابلت مع الزوارق الصغيرة جداً لقراصنة انكلترا في ذلك الحين ، وبفضل السرعة والمرونة ، والضآلة ، استطاع الصغير أن يدمر الكبير ، وهذا ما حدث في أكتوبر ، الصواريخ والقواذف للمشاة العرب هي التي دمرت الوحدات الجبارة للجيش الإسرائيلي فأصبح الوضع الآن هو أن داوود هو العربي هذه المرة ، وغولياث هو الإسرائيلي .

•• أريد أن نتوقف قليلا عند الفصل الخاص بالمعركة السورية الكبرى . أنا أذكر أننا عندما نشرنا هذا الفصل من الكتاب في مجلة « المعرفة » قبل صدور الكتاب ، ترك ذلك انطباعاً جيداً ، باعتباره يمثل أفضل دراسة كتبت باللغة العربية عن المعارك التي جرت على الجبهة السورية .

« كنت أتمنى أن تكون المواد الخام المتاحة لي لكتابة الفصل أكبر من ذلك ، ولكن في ذلك الوقت كان المتاح محدوداً ، ومع ذلك فأنا أعتقد أنه أمكن تغطية الموضوع تغطية لابأس بها ، وأستطيع أن أوجز بعض النقاط الأساسية في هذا الفصل .

يوجد فارق أساسي بين المعركة « السينائية » ومعركة « الجولان » ، فبينما سيناء صحراء ، وحرب صحراء كاملة ونموذجية مائة في المائة ، يعني النموذج المثالي لحرب الصحراء ، نجد أن « الجولان » كمسرح عسكري لعمليات حربية أقرب إلى البيئة الأوروبية بمعنى أنها جبلية ، غابية ، باردة ، ممطرة ، وإذا كانت لاتغطى في بعض الأجزاء بالغابات ، فالأحراش موجودة ، فهي أقرب ببيئة جنوب ألمانيا ، بيئة فرانسا العسكرية ، من هنا كانت أقرب في طبيعتها إلى حرب الجبال ، والبيئات الباردة .

وبينما كانت الدبابات مجالا أساسياً للصراع في سيناء ، ورغم أهمية دور الدبابات جداً في الجولان ، إلا أن الجانب الخاص بعنصر المفاجأة ، وعنصر « الكمون » والانقضاض من وراء المرتفعات ، وفي الوديان ، في الجبهة السورية ، كان أوضح جداً منه في الجبهة المصرية . هذا من ناحية .

من ناحية أخرى حصل اختلاف آخر ما بين سير المعركة على الجبهتين ، ففي سيناء حدث عبور من الغرب إلى الشرق ، ثم عبور جزئي آخر مضاد من الشرق إلى الغرب . هنا المد والجزر متبادل على مستوى أفقي ، ومرة واحدة .

الذي حدث في سورية هو أن المعركة بدأت باكتساح سوري ساحق من الشمال إلى الجنوب ، كاد يصل إلى الجليل الأعلى . وبالفعل ، الأبطال السوريون والمغاوير السوريون شربوا من ماء الأردن ، وسبحوا في مياه طبريا ، وبعد هذا حدث وللأسف ، ارتداد إلى الوراء ، كما حدث في حالة الجبهة المصرية ، ولكن أضيف إلى هذا بعد ذلك انقضاض سوري آخر نحو الجنوب ، انتهى بارتداد على محور القنيطرة سعسع ، فهنا المد والجزر مزدوج ، وهو ليس أفقياً ، ولكنه رأسي ، بمعنى أن كلا من الجانبين طغى على الجانب الآخر أكثر من مرة ذهاباً وإياباً ، تقدماً وتقهقراً ، هذا هو الهيكل الأساسي المعركتين ، وهذا هو الفرق بينهما في الشمال والجنوب .

والمعركة السورية على كل حال ، مراحلها تتزامن تقريباً ، بل أكاد أقول بالضبط ، مع زميلتها المعركة المصرية ، وكان ضابط الإيقاع في الحالتين واحداً ، وهو التدخل الأمريكي ، ولذلك نجد أن نبض المعركة ، وايقاعها في الشمال وفي الجنوب ، واحد ، وفي

ترابط تام ، وهذا ما يؤكد وحدة المعركة . وفي النهاية ، الشيء الذي يمكن أن أخرج فيه هو أن مصير العالم العربي كله يتحدد في هذا المحور التاريخي الجغرافي الخالد : سورية مصر .

أيام التتار ، أيام الصليبيين ، أيام العثمانيين ، في العصر الحديث ، في الصراع الإسرائيلي، في المستقبل الأبعد ، سيظل هذا المحور هو محور القوة الأساسي، وقطباه: سورية في الشمال ، ومصر في الجنوب .

والصفة العسكرية في تكوين المجتمعين السوري والمصري ، صفة أصلية ، وأكاد أقول جغرافية ، لأنها من حتّم التاريخ والبيئة ، وستظل هذه المنطقة هي مناط أمل العرب إلى الأبد ، وعلى هذا المحور ، سيتكسر الغرور الإسرائيلي عن قريب كما نرجو .

** أنا أعتقد أن هذا يشكل مدخلا معقولا جداً للحديث عن الوحدة العربية ، فكيف ترى أنت بالذات إلى هذا الهدف الكبير الذي ظل العرب يناضلون من أجله عشرات السنين دون أن يصلوا حتى الآن إلى أي نتيجة محددة وواضحة .**

* أنت تدخل يا عزيزي في موضوع في منتهى الأهمية ، وأنا أعتقد أن مصير العرب كله معلق بهذا الأمر . الوحدة ، أمل عربي شاهق ، وضخم ، كبير جداً ، وعشنا فيه ما لا يقل عن ٢٠ سنة ، هذا الجيل على الأقل . ومع ذلك حدث مع الأسف الشديد نكسات وخيبة أمل ، ويجب أن نعترف بهذا على أساس علمي وموضوعي ، وليس في هذا أبداً أي دعوة إلى التشاؤم ، ولكنني أقول أن الوحدة آتية لا ريب فيها ، ولكن يجب أن ندرك أن الوحدة عمل أضخم جداً مما كنا نتصور جميعاً ، وكل النكسات التي حدثت هي تجارب نستفيد منها ، ولها قيمة أكثر من سلبية .

إذا كانت الوحدة السورية المصرية قد تحققت في الماضي ، ثم للأسف تحطمت ، فهذا درس مفيد جداً لنا . هو لا ينفي الأمل ، ولكن يؤكده ، كل ما في الأمر أن علينا جميعاً أن ندرك أن الوحدة شيء ضخم جداً ، ولن يتم في جيل ، ويحتاج إلى أجيال ، وهي عملية تاريخية نامية باستمرار ، وتحتاج إلى مواطن كبير ، لأن الوطن الكبير يحتاج إلى مواطن كبير ، أقصد أن نكون جميعاً على وعي سياسي مرتفع ، ولا بد من إنكار الذات ، ولا بد من أن ندرك أن هناك مشاكل وعقبات يجب أن نتغلب عليها ، أما العصر فهو عصر الكتل الضخمة ، والعالم يتجه إلى التكتلات ، والبقاء يلزمنا أن نتكتل ، كل هذه أصبحت بديهيات ، ولكن الوحدة

العربية لا تستمد من عوامل الضغط الخارجي ، بل هي انبثاق داخلي أصيل . الأساس في هذا هو أن العرب أمة واحدة .

قيل أن العرب ليسوا أمة واحدة على الإطلاق ، وقيل انهم شبه أمة ، وقال آخرون هم أمة في سبيل التكوين in thema king ، كل هذه آراء فيها بعض التجاوزات . والحقيقة أن العرب هم أمة كاملة ، كأكل ما يمكن أن تكون ، كل ما في الأمر أنه كما أن هناك نقاط قوة في تكوينها الطبيعي ، هناك إلى حد ما ، نقاط ضعف يجب أن نعترف بها ولا نخشى أن نواجهها ، فليس على وجه الأرض قومية تتألف من ١٣٠ مليون نسمة ، وتحتل مثل المساحة الجغرافية ، والرقعة الطبيعية التي يحتلها العرب . معنى هذا أن الأبعاد والمسافات بالغة الطول ، وهذا عنصر تفكك بطبيعة الحال ويخلق أجواء محلية ، ومجتمعات محلية ، واختلافات وفروقاً محلية ، ومن هنا لا بد من الترابط .

لو أن السكان العرب كانوا موزعين في كتلة واحدة ، لأمكن لمثل القطر السوري أن يضمهم جميعاً .

من هنا نفهم خطورة التشتت ، بأنه يخلق وطنيات متبلورة ، ويخلق شخصيات محلية متحضرة ، والعملية الحضارية التاريخية الجديدة هي أن تذيب هذه الفوارق وتقرب فيما بينها . المواصلات الآن ، والمواصلات اللاسلكية ، والمواصلات غير المكانية ، كالإذاعة والصحف . . . الخ ، كل هذا ترابط هام جداً . البترول له دور كبير جداً في هذه الناحية ، وهو أننا نستطيع أن نقسم مراحل الوحدة العربية إلى ثلاث مراحل :

آ — ما قبل البترول

ب — عصر البترول

ج — ما بعد البترول

أما قبل البترول فكان العرب أمة واحدة على الورق فقط ، وليس بينهم تبادلات ولا تفاعلات ولا اتصالات إلا الحد الأدنى ، لأن الإمكانيات الماديةالبحتة للمواطن العربي كانت محدودة جداً في الاتصال والسفر والاحتكاك والانتقال ، وكان مستوى المعيشة محدوداً ، إلا أن البترول أعطى إمكانيات رهيبة جداً من هذه الناحية ، والاتصالات أصبحت خميرة للوحدة ، والآن نجد السوريين في مصر يومياً واللبنانيين في العراق يومياً ، والخليج

في الشام يومياً ، والمغرب في المشرق كل أسبوع ، هذه الاتصالات هامة جداً ، الإذاعات توحد ، الصحف توحد ، الكتب توحد ، كل هذا عامل أساسي جداً ، وبفضل البترول تم هذا ، ولكن يجب أن نعترف أن البترول ، هذا السائل الرجراج ، قد جمد الوطنيات والدول العربية على شكلها ونمطها السياسي الحالي ، بمعنى أن كل دولة عربية تريد الآن أن تنفرد ببترولها ، ولهذا السبب أصبح البترول عامل تجميد للوحدة .

حقيقة انه يؤهل المجتمع والشعب فعلا للوحدة ، ولكن في الترتيب السياسي العلوي تظل الحدود قائمة أكثر مما كانت ، وأشد مما كانت .

ولكن المهم في الموضوع كله أن هذه مرحلة عابرة ، فالذي حدث هو أن البترول قدم العرب للعرب ، أو بالأحرى أعاد تقديمهم إلى بعضهم البعض .

والمرحلة الثانية هي مرحلة البترول التي أصبح الكل فيها يتفاعل ، ولكن داخل حدوده . بعد حين ، حين ينتهي عصر البترول بالتحديد ستكون الحاجة إلى الاندماج . والوحدة أصبحت حقيقة لا يمكن الإفلات منها ، سيكون فضل البترول أنه رفع مستويات الدول الصحراوية الفقيرة ، إلى مستوى الدول الزراعية الغنية القديمة وأزال كل الحساسيات والعقد ، وفي نفس الوقت لم يعد هناك البترول الذي يجمد الحدود ، ويبغي صاحب البترول أن يحتفظ به لنفسه ، فالنتيجة أن البترول مر في هذه المراحل الثلاث . قبل البترول : الوحدة والقومية كانت حقيقة تاريخية ولكن على الورق ، والمرحلة الثانية : البترول نفسه ، وهو قرب ، ولكن جمد الحدود . والمرحلة الثالثة : وهي المرحلة الأخيرة ، بعد البترول ، حين ينتهي وسيكون هذا سنة (٢٠٠٠) عموماً ، سيأتي الدور الثالث ، وهو دور الوحدة والاندماج ، تكون فيه الأواني المستطرقة قد تساوت ، والكل تداخل ، وأصبح أمر الوحدة مجرد مسألة زمن . وعلى هذا الأساس أنا أعتقد بأن الوحدة قادمة ، ولكن في حدود أوائل القرن الحادي والعشرين . وأنا أتكلم عن الوحدة الشاملة من المحيط إلى الخليج ، وليس الوحدات الجزئية ، فقدتتحطم غداً ، وقد تتفكك بعد غد . هذه ناحية ،وناحية ثانية، أنا أخشى أيضاً أن أضيف أن لا زال أمل الوحدة الكبير يخيف البعض منا ، أو البعض يتخوف ويخشاه لأنه تغيير ضخم جداً مهما كانت الأمور ، ولذلك فأخشى أنه لا توجد لدينا نحن ، ولا لدى ساستنا ، الشجاعة السياسية الكاملة على أن نغامر بتحقيق الوحدة يوماً ما إلا بعد أن نرى ذلك الجار الذي نقلده في كل شيء ، وأعني به أوربا عبر البحار ، أنا أخشى أن أقول أننا في انتظار الوحدة الأوربية ،وحين تم سيكونهذا ناقوسألنا بالوحدة .وعلى أي حال ،

فلا بأس بهذا ؛ نحن لسنا في عجلة من الأمر ؛ وأوربا في بحر سنة ١٩٨٠ ستظهر إمكانيات وحدتها أم لا ، وفي غضون سنة /٢٠٠٠/ بالتأكيد ستكون أوربا موحدة ، وبعدها ستكون العرب قد أدركت الحقيقة . وستتقابل في وقت متقارب جداً .

ثالثاً : في نفس التاريخ سنة /٢٠٠٠/ ؛ وهذا طبعاً رقم تقريبي بحت ، يعني يجوز بالزيادة وبالنقصان ، عقداً أو عقدين ، في ذلك الوقت كما قلنا ستكون اسرائيل في مرحلة الشفق أو الغسق ، إن لم تكن النهاية . الحقيقة ، لا شك أن إسرائيل في الوقت الحالي هي معوق أساسي من معوقات الوحدة . نحن نعلم أن الوحدة دونها عقبات كثيرة جداً ، وتسبب مشاكل ،ولو تفرغنا لها لما وسعنا أن نتفرغ لإسرائيل ، ولو تفرغنا لإسرائيل يجب أن نؤجل الوحدة ، هذا حقيقي إلى حد ما . فالنتيجة أن زوال إسرائيل أو انكماشها إلى الحد الذي يجعل لا قيمة لها في وجودها ، سيعجل بالوحدة ، وسيكون علامة بقيام الوحدة .

فهذه العوامل الثلاثة : البترول – الوحدة الأوربية – إسرائيل ، كلها ستلتقي في سنة /٢٠٠٠/ كتاريخ نهائي أو تقريبي ؛ ستكون إشارة بقيام الوحدة العربية الكاملة . وأيضاً هذا إطار عام ، أو تطور تاريخي . من الناحية الجغرافية أنا أرجو أن لا أتهم بأنني أثير الجدل القديم : وحدة أو اتحاد ، ولكن بعد تفكير طويل ، وبعد تجارب طويلة جداً ، أنا مقتنع تماماً بأن العالم العربي مكتوب عليه الوحدة الاتحادية ، لا كمرحلة يمكن أن نقفز أو نتطور منها فيما بعد ، إلى الوحدة الاندماجية . أنا أقول بأن هذا النظام الفيدرالي أو الاتحادي يجب أن يظل هو الهدف والأساس إلى النهاية ؛ لماذا ؟ . . . لا تساع رقعة العالم العربي الضخمة جداً ، ولا يمكن تجاهل هذا .

ثانياً : الاختلافات ، والفروق المحلية التي نعبر عنها باسم الوطنية ، ككمل أو مقابل للقومية ، فهذا سيفرض نفسه ، وليس معنى الوحدة الاتحادية أنها نصف وحدة كما يتصورها البعض ، أو أنها شبه وحدة ، أو أنها وحدة متفككة ؛ أو قابلة للانهيار ، أو أنها عبارة عن مشروع للانفصال كما يتصوره البعض قطعاً . معظم دول العالم التي نعلمها ، الجمهوريات الكبيرة والصغيرة ، هي اتحادية ، وليس في هذا ما يضيرها إطلاقاً ، الولايات المتحدة الأمريكية هي اتحاد ، الاتحاد السوفييتي اتحاد ، البرازيل اتحاد ، الأرجنتين اتحاد ، الهند اتحاد ، سويسرا اتحاد ، حتى تشيكوسلوفاكيا التي كانت وحدة ، دولة وحدوية واحدة ؛ انتقلت انتقالا عكسياً ؛ لا من الاتحاد إلى الوحدة ، بل من الوحدة إلى الاتحاد .

يوغوسلافيا الصغيرة اتحاد ، فليس في هذا أبداً أي انتقاص من الوحدة ، وإنما هذه

طبيعة الأمور . لأن فيه صحراوات هائلة تفصل ما بين العرب ، ما بين العراق وما بين سورية ، يلتقيان في الشمال لكنه يوجد فاصل ضخم جداً في الوسط والجنوب . الجزيرة العربية . مصر . المغرب العربي ، هذا الموضوع من الناحية العلمية لا يقبل الجدل ، وليس موضوعاً للمساومات أو المهاترات السياسية كما يتصور البعض .

يبق بعد هذا أني لا أعتقد ولا أسلم بأن الدول — هيكل الدول العربية الحالي — العشرين الحالية ، يجب أو ينبغي أن تدخل إطار الوحدة بهيكل الحالي .لابد من احترام الحقائق الطبيعية والتاريخية ؛ فأنا مثلا لاأنظر إلى الشام على أنها سورية ولبنانوالأردن— باعتبارأن أسرا ئيل خارج الموضوع طبعاً — وأنما أنظر اليها كلها كوحدة . فحين يوجدالهيكلالاتحادي للدولة العربية الكاملة أتصورأن الشام كله وبرمته يدخل فيها كدولة أحادية بسيطة غير مركبة . وتكون هذه الأجزاء الأربعة هي أجزاء داخليةشأنهاشأن أجزامصر ومحافظاتها.وفيا يختص بالشام بالذات ،فإنلي تشبيهاً وهو أن الشام ورغم أنه يبدو على الخريطة كثلث كبير من الناحية السياسية ، إلا أنه في الحقيقة من الناحية العمرانية ، عبارة عن شريط مستطيل ضيق بطول الساحل من الشمال إلى الجنوب ، وهذا يشبه تماماً الشريط المصري المعمور ، فالمعمور المصري كالمعمور الشامي ، ضيق وطويل ورفيع . في مصر يوجد الدلتا ، والصعيد ، وواحة الفيوم ، على جنب ،على حدة ، وهذا قد يشبه التراكيب الداخلي المحلي المعمور السوري ، فسورية السياسية بمعناهاالحالي هي الدلتا ، وتقابل الدلتا المصرية حجماً ومساحة واتساعاً و . . الخ . . وعدد سكان .

الصعيد المصري يقابله فلسطين والأردن ، البر الشرقي والبر الغربي ، الضفة الشرقية والضفة الغربية ، وكواحة الفيوم على حدة ، يأتي لبنان على حدة ، باعتباره جبلا منفصلا بعض الشيء ، ويستمد تميزه من هذه الحقيقة أساساً .

فالذي أود أن أقوله أنه يجب أن لا تدخل الدول العربية الراهنة بحدودها السياسية ، وتفتتها الحالي في الوحدة الكبرى ، وإنما يجب أن يعاد النظر في هذا الهيكل من جديد ، فدول الخليج لا يمكن أن تدخل فرادى كشظايا ، فالطبيعي أن تجتمع كلها في كيان واحد ، وتدخل في الوحدة ، وبالنسبة للشام ، فهذا أوضح وأوضح .

** نفهم من ذلك أنك تقترح أن نبدأ بنوع من الوحدات الاقليمية ثم ننتقل إلى الوحدات الأكبر ؟ . . .**

* لا أقصد هذا بالضبط ، وإنما أقصد الآتي ، الوحدات الإقليمية أو الجزئية تتم ، وقد تمت عينات منها. مثلا اتحاد الجمهوريات العربية الحالي ، رغم ضعفه الشديد ، ومن قبله

الوحدة العربية السورية المصرية ، هذه الوحدات الجزئية للأسف أن البعض ينظر اليها بأنها تحاور ، وأنها في الواقع تمزيق أكثر منها توحيد ، فسواء كان هذا صحيحاً أم خطأ ، فلا بد من القبول بالوحدات الجزئية ، وإلا فسننتظر إلى مالا نهاية حتى تتم الوحدة مرة واحدة ، وهذا غير معقول ، فإذاً ، البديل هو قبول الوحدات الجزئية . ولكنني أقصد فيما يختص بالهيكل الأمثل لدخول دولة الوحدة الكاملة هو أننا قبل دخولها يجب أن نعيد النظر في الكيانات الممزقة الحالية ، فنعيد تجميع المجموعات الطبيعية منها ، وتدخل الوحدة كوحدة واحدة موحدة بسيطة داخل مركب الاتحاد الكبير ، وأبرز مثال كما قلت هو الشام ، فالشام – طول عمره – هو الشام ، أي سورية الطبيعية من طوروس إلى رفح ، هذا كله – طول عمره – عبارة عن إقليم سياسي واحد ، شأنه شأن مصر تماماً من البحر إلى أسوان .

•• أذكر أنك أثرت في كتابك «شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان» موضوع الوطنية والقومية ، وفي حدود ما أذكر فإن وجهة نظرك كانت أنه لا تعارض بين الفكرتين ، بل إن الفكرة تكمل الفكرة الأخرى ، القومية تكمل الوطنية ، والوطنية أيضاً تقوم بنفس الدور . ولكني ألاحظ أحياناً أن فكرة الوطنية عندما تشتد وتنمو ، فإنها غالباً ما تشتد وتنمو على حساب الفكرة القومية ، وتتحول إلى ما يمكن أن نسميه بالإقليمية ، نسميها أحياناً بالوطنية ، ولكنها في الحقيقة تكون نوعاً من أنواع الإقليمية .

• تماماً يا سيدي ، أنا لا أعترض على تصويرك للموقف من البداية إلى النهاية ، والمسألة هي مسألة النسب ، عنصر النسبية ، وعنصر المعقولية ، كما يقول الإنكليز . بمعنى أن الشيء إذا زاد عن حده يمكن أن يعطي ضده ، والخير إذا زاد يمكن أن يتحول إلى شر . فالعزة الوطنية أو المحلية ، شيء صحي ومفيد ومطلوب ، لكن إذا تحول إلى نعرة فيصبح كارثة . هذه في جميع الحالات قاعدة . ولكن أنا أقول ان المادة الخام التي يتألف منها جسم القومية هي الوطنية ، ولا فكاك منها ولا مهرب لأنها حقيقة واقعة ، نحن نتفاعل ونتعامل في حياتنا اليومية وعلى أساس حياة مشتركة واحدة في داخل مانسميه الوطنيات ، فالسوري إذا انتقل إلى العراق سيشعر باختلافات معينة ، ولا بأس بأن يعترف بهذه الحقيقة ، والمصري إذا ذهب إلى سورية فيبدو مصرياً حتى دون أن يتكلم ، حتى إذا تكلم اتضحت حقيقته أكثر ، فإذا تكلم أو

تحرك انفصحت أكثر وأكثر ، فلا مفر من الحقيقة ، وليس في هذا عيب إطلاقاً ، فحتى في الدول الصغيرة كفرنسا نجد أن المحليات معروفة ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من النورماندي ، وهذا من الألزاس . . . الخ ، هذه حقائق لا يمكن الهروب منها . وكل ما في الأمر أنه كلما ارتفع المستوى الحضاري للدولة ؛ ارتفع المستوى الحضاري للمواطن وإمكانياته ، وتفتحه الذهني ، ، وإمكانياته المادية ، كل هذه الفوارق تذوب بالتدريج ، وتفقد الكثير من قيمتها ، ويصبح ما كان بالأمس عامل تفريق ، عامل توحيد . ويصبح العامل المشترك ما بين الوطنيات المختلفة أكثر من عامل الاختلاف ، لما معنى التفاعلات الهامة جداً التي تحدث بين العرب على اختلاف دولهم ، الزيارات والرحلات والطلبة الذين يدرسون خارج دولهم ، البعثات التجارية ، التجار . . . الخ ، كل هذه التفاعلات هي التي تقرب بين العرب بالتدريج ، وطبعاً كما قلت ، وسائل الحضارة اللامكانية الحديثة كالإذاعة والصحافة الخ . هذه تقرب جداً جداً ، فالعالم كله أصبح قرية صغيرة كما يقال ، فما بالك بالعالم العربي عندما يصبح ضيعة صغيرة في وقت ما . وتاريخ الوحدات السياسية في العالم كله هو من الضيق إلى الواسع ، من القرية إلى القارة في النهاية مروراً بالمحلية ، بالإقليم ، بالدولة ، بالدولة الكبيرة ، بالوطنية ، ثم بالدولة الوطنية ، ثم بالدولة القومية ، فهذا هو اتجاه العصر ، وكلما عجلنا بعملية التفاعل ما بين العرب ، فسنتم عملية تراجع وانحسار الوطنيات وتذويبها ، بينما تتأكد القومية أكثر وأكثر ، هذا نمو تاريخي ، واتجاه تاريخي .

ولا يضيرنا مطلقاً أن نكون متعصبين لسورية مثلا إذا كنا سوريين ، دون أن نتعصب ضد الآخرين ، وإنما نتعصب لقوميتنا أيضاً ، وكما يقال : الولاء بأني أولا لموطنك ، ومن ثم للموطن الأكبر ، وليس في ذلك عيب إطلاقاً . نحن نعتمد على أن يطور المجتمع العربي سياسياً ، ونضجه ، واتساع أفقه هو الذي سيقضي على كل هـذه الظواهر التي هي من إرث الماضي وتخلفاته وإلى زوالها بالتأكيد ، وطبعاً نحن نرفض النعرة الوطنية بتاتاً ، وإذا تعارضت مع القومية فلتغلب القومية ، ولتذهب الوطنية إلى الجحيم ، ولكن إذا أمكن عمل توازن صحيح بين الاثنين فكلاهما يدعم الآخر ، الوطنية تستمد قوتها من القومية ، والقومية خامتها ومادتها الأصلية هي الوطنية ، ولا يوجد تعارض إلا في العقول الضيقة ، وفي العقليات التي تمت إلى الماضي .

•• في كتابك ٦ أوكتوبر في الاستراتيجية العالمية تحدثت عن العرب في المستقبل ، العرب كقوة سادسة سوف تلعب دوراً أساسياً في

العالم . هل هذه الصورة هي مجرد نبوءة سياسية ؟ هل هي مجرد احتمال ؟.. أم أنها حقيقة بدأت تؤكد نفسها ولها ظواهر محددة يمكن أن نتحدث عنها ؟ . :

● هذا سؤال ممتاز فعلا ، ويجب أن نضع النقط على الحروف ، وأنا أشكرك لأنك أتحت لي هذه الفرصة لأن أضع حداً لبعض المزايدات الرهيبة في هذا المجال .

أولا لقد قال القائلون بأننا أصبحنا قوة سادسة في العالم بعد انتصارات أوكتوبر ، والذي قال هذا هم الكتاب الغربيون . نحن نشكرهم ، ونقدر لهم هذا التقدير . أكثر من هذا ، بعضهم قد دعانا لأن نتصور أنفسنا القوة الثالثة لا السادسة ، باعتبار أنه لا زالت الصين إمكانية واحتمالا ، ولا زالت غرب أوروبا مفككة ، ولا زالت ، ولا زالت . . . ومن ثم لم يبق إلا الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة الأمريكية ، فإذاً ، نحن القوة الثالثة . وأخشى أن يغتر البعض منا بهذه الدعوة لأنها مغرية جداً . بوضوح ، هذا نوع من أنواع خداع النفس .

أرجو أن تسمح لي أن أقول اننا لسنا القوة السادسة ، ودعك تماماً من القوة الثالثة . متى نصبح القوة السادسة ؟ إذا تحول الممكن إلى واقع ، من بالقوة » إلى بالفعل ، كما يقول « المناطقة » وأهل الفلسفة . كيف يتم هذا ؟ . . . هذا يتم بالعمل الرهيب الدؤوب . أمامنا على الأقل ثلاثة أو أربعة عقود نعمل فيها كالعبيد إذا صح التشبيه ، وكل دول العالم التي قفزت إلى المقدمة ، مرت على جسر من النصب الوطني الذي لا حد له . الانكليز لم يصلوا إلى القوة إلا بعد قهر رهيب في داخل بلادهم لجميع العقبات وإنكار الذات ، وهكذا دول أوروبا . الاتحاد السوفياتي ، الولايات المتحدة ، كل هؤلاء الناس لم تأت اليهم القوة منقادة ، وتجرر أذيالها ببساطة ، وبالمثل إذا أردنا أن نكون القوة السادسة ، أبداً ، إطلاقاً ، علينا أن نعمل ليلا ونهاراً ، ونكدح لنحقق هذا من مجرد احتمال أو إمكانية إلى واقع ملموس ، أمامنا على الأقل حتى سنة /٢٠٠٠/ ، ومع ذلك فليتنافس المتنافسون .

●● هل يعني ذلك ، أن هذا الاحتمال قابل للإجهاض إذا لم يعمد العرب إلى تحويل هذا الامكان إلى واقع ؟ وهل يمكن لظروف خارجية أو أو ظروف داخلية أيضاً أن تجهض هذا الإحتمال ؟ . . .

● هذا السؤال أيضاً رائع ، يا سيدي العزيز ، من لا يتقدم ، يتقهقر ، أنت تجري

وآخرون يجرون وراءك ، فإذا تركت لهم المجال فسوف يسبقونك ، وهذه المسألة ببساطة ، التاريخ لا يحقق نفسه بنفسه ، ولن نعود إلى قصة حتمية التاريخ ، التاريخ أنا الذي أصنعه وأنت ، ولا ينزل علينا من السماء ، أو من غياهب الجغرافيا ، إن لم أحولها أنا بيدي إلى حقيقة ، فلا يمكن أن تتحول ، يمكن لغيري أن يسبقني ، فلا بد من العمل ، وهناك منافسون كثيرون جداً ، وأخشى أن أشير إلى أقرب مثال : إيران ، وهي دولة وحيدة وصغيرة نسبياً إذا قيست بالعالم العربي . هناك مشاريع ضخمة وطموحة جداً لكي تصبح هي القوة الثالثة في العالم . إيران وحدها بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وهذا الكلام تقرؤه كل يوم في الصحف ، فهذا المثل قريب جداً منك ، وعندهم القليل من الإمكانيات البسيطة .

وكيف ننسى الهند بامكانياتها الرهيبة ، وحجمها الضخم ؟ البرازيل كانت مرشحة في وقت ما أن تكون هي القوة الخامسة أو السادسة الكبرى في العالم بعد الحرب الثانية وهي شبهقارة . فإذاً ، يجب أن لا نغتر ، ويجب أن نفهم أن العملية ليست مجرد انبثاق بترولي رفعنا من الأرض إلى السماء . لا بد من العمل الرهيب جداً ، والبناء الحضاري على أسس علمية كاملة ، وعلينا أن نقتبس الحضارة وأن نؤصل فيها ، ونتنشى فيها ، ونخلق فيها ، وتصبح ملكنا ، تماماً ، كاليابان ، يعني تتحول الحضارة الغربية إلى ملك يدينا ، نضيف اليها ، نغير منها ، نملك نواصيها ، ولا نصبح مجرد مستوردين لكل شيء من الإبرة إلى المصنع ، فهناك إمكانيات فعلا للاجهاض . هذه دعوة الى عدم التكامل والنوم ، وإنما دعوة للعمل ، ولكن إذا عملنا فمن المؤكد فعلا أن لنا مستقبلا ضخماً جداً في صدارة العالم . وبهذه المناسبة اسمح لي أن أقول ان التاريخ العالمي ، تاريخ العالم كله ، هو تاريخ العالم القديم بطبيعة الحال . العالم الحديث ليس إلا إضافة من « كذا » قرن ، العالم القديم لم يكن إلا قسمة أو شركة إما تعاونية أو تنافسية ما بين إقليمين في العالم القديم ، أوربا في الشمال والعالم العربي في الجنوب ، بينهم البحر الأبيض المتوسط ، الذي هو بحرنا بقدر ما سماه الأوربيون بحرهم في وقت ما . والحقيقة أن البحر الأبيض المتوسط ليس إلا بحراً داخلياً كما يقال « in land Sea » ، بحيرة مشتركة ما بيننا وبين أوربا ، وكان التاريخ كله دولة ما بيننا وبينهم ، كانت لنا اليد العليا أحياناً ، وكانت لهم أحياناً ، وعبر التاريخ كنا نحن الأكثر سيطرة واحتكاراً للقوة ، التاريخ القديم كان ملكنا ، التاريخ المتوسط كان قسمة ما بيننا وبينهم ، وكنا نحن متغلبين ، لم يتغلبوا نهائياً إلا في التاريخ

الحديث ، حضارة العالم اليوم هي من صنع هاتين المنطقتين أيضاً ، السيادة ، ظاهرة الامبراطورية ، وانشاء الامبراطورية في العالم ، كانت مقصورة على هاتين المنطقتين . الصراع على السيطرة العالمية ، على السيادة العالمية ، مشترك فيما بينهم ، وقاصر عليهم ، وكل ما عدا ذلك كان على الأطراف ، وعلى الهوامش عوالم منفصلة ، وقائمة بذاتها ، الصين ، الهند ، جنوب شرق آسيا . . . الخ ،فمن الطبيعي جداً أننا نتطلع إلى امكانيات هائلة جداً ، لأن البترول أعاد خلق العالم العربي ، وبالتالي ، أعاد توزيع القوى في العالم كله ، نحن نشهد في الوقت الحالي أهم حقيقة يجب أن يدركها المواطن العادي ، هو أنه توجد عملية إعادة توزيع القوة على سطح الكرة الأرضية ، هناك نجوم تأفل ، ونجوم تنبثق . هناك قوى كانت كبيرة ، بدأت تنحدر ، وهناك قوى كانت صغيرة بدأت ترتفع . طبعاً عصر زوال الاستعمار والامبراطورية ، وظهور العالم الثالث ، هذا بحد ذاته حقيقة جديدة . كلمة العالم الثالث معناها أنه قد حصل إعادة توزيع في القوة . صحيح أنهم لا زالوا في أسفل السلم ، ولكنهم أصبحوا شيئاً بعد أن كانوا لا شيء .

الحقيقة الثانية هي ظاهرة تعدد المراكز ، ظهور المراكز المتعددة القوة . كان هناك قطبان فقط ، أصبح عندنا ستة أقطاب ، هذا يعطي فرصاً أكثر ، وستأتي فرص أكثر وأكثر في المستقبل ، كل هذا معناه إعادة توزيع القوى . إنهزام إسرائيل هو بداية إعادة توزيع القوة إقليمياً في منطقتنا ، وهذه مسألة خطيرة جداً ، وإسرائيل تخشاها وتعرفها تماماً ، وتعرف أنه محكوم عليها بالفناء ، إذا استمرت هذه العملية . طبعاً البترول عامل قوي جداً. – ويكفي أن أوربا اليوم ترنو الينا وتتطلع ، وأصبحت تنظر إلينا كأنداد ، بعد أن لم تكن تفعل ذلك ، فالذي أقصد أن أقوله هو أن هناك عملية توزيع في القوة ، ومستقبلنا مؤكد ومضمون ، والبترول له دور كبير في هـــذه العلمية ، والباقي هو واجبنا نحن نحو أنفسنا .

٥٥ نقطة أخيرة في هذا الحوار ،هي الحرب الخامسة . لقدتحدثت عن هذا في كتابك ٦ أوكتوبر في الاستراتيجيةالعالمية،ثم استفضت في الحديثعن الحرب الخامسةفي دراستكالمنشورة في العددالماضي من المعرفة، وتنبأت بأنهذه الحرب واقعة لا محالة. يبدو أن هذهالنبوءةتكادأنتصح ، وكل الشواهدالآنتدل على أنهذهالحرب توشكأن تقع في يوم من الأيام؟! ...

* يؤسفني أن أقرر ذلك . إن الحرب الخامسة قدر لا مفر منه ، وهي واقعة لامحالة ، لا أقول كما يقول الشعراء ، كالموت ، وإنما كالقدر . المسألة ببساطة أن الحرب الرابعة هي الحرب التي لم تتم ، على غرار السمفونية التي لم تتم ، وكلنا نعرف أن المعركة لم تنته بعد ، والعدو يؤكد هذا ، ونحن نؤكده ، والتطورات في العام الماضي تؤكده ،مما لايدع مجالا للشك ، انه إن لم تستكمل الحرب الرابعة نفسها بحرب خامسة ، فيمكن أن نعود إلى الوضع الذي كان موجوداً وقائماً قبل أوكتوبر ، أي حالة اللاحرب واللاسلم ، وهذا هو ما يسعى إليه العدو أساساً ،فقط مع بعض الإختلافات في النمط الإقليمي . . فبعد أن كانت قناة السويس مثلا هي الفاصل ما بين القوتين ، يصبح بينهم فاصل ٣٠ كم كنطقة عازلة . . الخ .وبالمثل على الجبهة السورية .

الحرب الخامسة ضرورة لا مفرمنها من وجهة نظر العدو ومن وجهة نظرنا . إذا أردنا أن نسترد أراضينا ، وحقوق الشعب الفلسطيني ، فلا مفر من الحرب الخامسة ، وإلا فسيتم تجميد الموقف على الحل الجزئي الذي هو فك اشتباك القوات ، والفصل ما بينها ، وهذا تماماً كان مخطط العدو منذ البداية ، فالعدو حاول أن يكتسب فرصة ليلتقط أنفاسه ، ولكي يعيد ترتيب بيته من الداخل ، ونفسيته المنهارة ، ويجيش جيوشه . . وقد لاحظ بعض القادة العرب فعلا أن وقتاً ثميناً قد ضاع علينا حتى الآن ، والمناورة هي كلها مسألة كسب وقت ، وابطاء في عملية التسوية ، والتعجيل في عملية تسليح إسرائيل ، وهذا ما تسعى إليه أمريكا تماماً ، وهذا هو المخطط المشترك بينهم .

من ناحيتنا نحن أيضاً ، الحرب ضرورية وحتمية ، لاستعادة أراضينا وحقوق شعب فلسطين ، ومن وجهة نظر العدو لابقاء له إن لم يسترد هيبته .ومكانته القديمة سواء ما بين العرب ، وسواء في نظر العالم ، أو عند ربيبته أمريكا . وجوده كله مهدد إذا لم يسترد هذه الهيبة . وأصبحت أصغر صغيرة تتم على الصعيد السياسي ، تترجم في اسرائيل على أنها تصفية لإسرائيل على مراحل . أكثر الكلمات تكراراً واستعمالا اليوم في اسرائيل هي كلمة انتحار وتصفية ، وما يجري مجراها . . ومسادا وشمشون ، هذه الكلمات أصبحت هي الخبز اليومي للمجتمع الإسرائيلي . العدو يتكلم عن حربه الخامسة علناً ، ولم يعد يخفي شيئاً أبداً ، وليس هذا حرباً نفسية ، ولا حرباً دعائية ، وإنما المسألة أنه يريد أن يعود العقل العالمي على حقه في شن الحرب من جديد باسم « ضربة أجهاض » « حرب وقائية » . . . الخ . . ويريد أيضاً أن يقلد الخدعة العربية التي تمت في أوكتوبر من المناورات التي لا تنتهي ، بحيث

يتعود عليها العرب ، ويعتبرها مجرد مناورات تذهب مع الريح ، ثم يفاجئك بالهجوم المباغت ، ويحقق المباغتة والمفاجأة .

وأنا أقول ان العدو لا يعد للحرب الخامسة الآن ، وانما هو يعد بالتحديد والدقة لمفاجأة الحرب الخامسة ، أما الحرب نفسها فهذا شيء خارج المناقشة تماماً ، وهو واقع ، وأستطيع أن أراهن بكل قيمي العلمية والفكرية على هذه النقطة ، والمسألة هي مسألة وقت ، ولو كانت اسرائيل تشعر بأنها قادرة على أن تكسب الحرب اليوم لقامت بها فجأة غداً صباحاً أوحتى هذا المساء ، والأمر كله رهن باستعدادها ، وعلى العرب أن يرتبوا أمورهم على هذا الأساس ، وستكون المعركة القادمة معركة حياة أو موت ، ستقرر مصير حرب أكتوبر ، وستقرر مصير العرب لسنين ، ومصير اسرائيل طبعاً .

٭ ٭ ٭

صورة العرب في «الخروج» وروايات أخرى

الدكتور:
منير الصلاحي الأصبحي

يبدي پول تانكرد – بطل رواية « موسم الشك » لجون كليري – وهو السكرتير الأول للسفارة الأمريكية في بيروت بضع ملاحظات تستحق شيئاً من الانتباه . ففي أحد المواقف يقول في نفسه أن الأمريكيين « يميلون أكثر مما ينبغي لقبول الأجانب وفقاً لمظاهرهم » (ص ٢٢٠) . وفي مكان آخر يفكر أثناء حديثه مع مليونير لبناني بالعرب بشكل عـــام : « إن هؤلاء الناس معقدون جداً ، ولقد بدأت أشك في أنني سأتوصل أبداً إلى فهمهم »

(ص ١٣٩) . وهو أيضاً يرى الحقيقة في تعليق لشرطي عربي يقول له : « كما ترى ، نحن نعرف عن الأمريكيين أكثر مما تعرفونه عنا » (ص ٢٣٤) . (١)

إن أهمية هذه الملاحظات – بغض النظر عن مدى صحتها بالنسبة للأمريكيين بشكل عام – هي في أنها تصلح كتقييم جيد جداً لموقف كليري نفسه وموقف معظم – أو ربما جميع – مؤلفي الروايات التي هي قيد الدراسة هنا من العرب . فالصورة التي تعرضها هذه الأعمال عن العرب تفضح في أحسن الحالات جهل المؤلفين البالغ .

وحتى بعض المعلقين الصحفيين الأمريكيين الذين يتحدثون عن هذه الروايات يشعرون بجهل المؤلفين هذا ، وبشكل خاص بالنسبة ليوريس . فرواية « الخروج » توصف في مجلة المكتبات « (لا يبراري جورنال) بأنها « متحيزة حتى بالنسبة لصهيوني متعاطف » بينما يكتب معلق مجلة « تايم » أن

> حماسة المؤلف المعلنة بوضوح الصهيونية غالباً ماتقلل من إنجازات الاسرائيليين بدلا من التمجيد بها ، خاصة حين يقوم يوريس بتصوير العرب اما كحمقى عديمي الذكاء أو كـ « حثالة البشرية : لصوص وقتلة وقطاع طرق ومهربي حشيش ومتاجرين بالرقيق الأبيض » (٢) .

ويسمح كليري نفسه لأحد شخصياته باستعمال جملة عربية في حديثه هي : « أنا متكدر بس ملزوم » . ويفسر كليري هذه الجملة بأنها تعني « أنا آسف ، فأنا مضطر للذهاب » (Iamsorry . I have togo) (« موسم الشك » ص ١٧١) . وبالطبع لا نتوقع من كليري أن يجيد اللغة العربية ، ولكن لجوءه إلى استعمال عبارات « عربية » يعطي الانطباع لدى القارىء الغربي بأن كليري يعرف عن العرب أكثر بكثير مما يعرفه حقاً . وهذا هو مثال

---

(١) ومع ذلك فان تانكرد يقول قرب نهاية الرواية (ص ٢٧٩) ونهاية خدمته الدبلوماسية في لبنان : « ستكون مهمة صعبة وطويلة لنا أن نحاول حمل العرب على فهمنا . انني أتمنى فقط لو كنت أعرف الطريق الصحيح » . وهو رغم ملاحظاته السابقة لا يذكر شيئاً عن مهمة فهم الأمريكيين للعرب أنفسهم (وقد يكون هذا هو الطريق الصحيح) . ان هذا الإغفال يفضح قصر نظر الروائيين التي تدرس أعمالهم هنا وضيق تفكيرهم .

(٢) المجلد ٨٣ ، العدد ١٦ (١٥ إيلول ١٩٥٨) ، ص ٢٤٤٣ – ٢٤٤٤ ؛ ٨ كانون الأول ١٩٥٨ ، ص ١١٠ .

واحد من حشد من الأمثلة عن نقاط ليست ذات أهمية كبيرة ترد في الروايات ولكنها تفضح جهل المؤلفين وعدم محاولتهم كسب أية معرفة حقيقية بالنسبة للشعب العربي . ونجد مثالا آخر من هذه الأمثلة في رواية « لو خسرت إسرائيل الحرب » حيث يقوم الرئيس جمال عبد الناصر بمخاطبة المشير عبد الحكيم عامر باسم « عبدل » (Abdel) (ص ٥٥) (١) .

يقول ساري جميل ناصر ان جميع الدراسات التي تتناول صور النماذج القومية المختلفة في وسائل الإعلام الأمريكية « تتفق على أن الأجانب لا يمثلون بالقدر الكافي وأنهم يصورون صورة سلبية » في هذه الوسائل (٢) . إن بإمكان أي قارىء أن يكتشف أن صورة العرب في الروايات المدروسة هنا هي صورة سلبية . وكذلك يجب أن يكون من الواضح لكل قارىء أن هذه الروايات تتبع نفس الأسلوب الذي يصفه السيد ناصر على أنه متبع في الأفلام السينمائية وفي القصص التي تنشرها المجلات المخصصة الرجال والتي تتناول العرب وتتضمن موضوعاً حربياً . هذا الأسلوب هو « تصوير العربي بأنه الشرير الذي يحارب الأبطال — الفرنسيين في الجزائر والإسرائيليين في فلسطين » (٣) .

إن الأعمال الروائية التي هي موضوع هذه الدراسة تتضمن بين الحين والآخر بعض الملاحظات الإيجابية الخاصة بالعرب . فهي تذكر مثلا التعايش المنسجم بين العرب واليهود في ظل الحكم الإسلامي (« الينبوع » ، ص ٩٧٧ ؛ « موسم الشك » ، ص ١١٣) . وهي أيضاً تذكر « تاريخ الشعب العربي الرائع والمأساوي » (« الخروج » ، ص ٢٣٧) ، وتعطي كذلك حقيقة أن أوربا كانت خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين همجية إذا ما قورنت بالعالم العربي (« الينبوع » ، ص ٦٣٩ و ٧٠٩) . وكذلك يصف بوريس الملك فيصل بن الشريف حسين بأنه كان شخصية نادرة بين القواد العرب (« الخروج » ، ص ٢٥٥) وهذا الوصف هو مديح كبير إذا ما أخذنا الرواية ككل (ولكن بعد ثماني صفحات فقط يوصف فيصل بأنه دمية بيد البريطانيين) . وكذلك نجد أن متشنر يعطي شخصيات تغلب عليها الصفات

---

(١) يقدم هيستون مثالا مماثلا جداً ، ص ١٩ .

(٢) « صورة العرب في الآداب والفنون الشعبية الأمريكية » The Image of The arabs in American PoPular Culture ، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة (جامعة إيلينوي ، ١٩٦٣) ، ص ٥ و ٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٢ .

الإيجابية لجميل طبري وهو الشخصية العربية المعاصرة الوحيدة في « الينبوع » ولعبد عمر وهو قائد عسكري إسلامي من القرن السابع (ص ١٣ و ٦٠٦) .

بالإضافة إلى ذلك فان كليري يقدم بطله تاتكرد على أنه مؤيد للعرب إلى حد ما وكذلك غرمسبي —أور وهو دبلوماسي بريطاني في الرواية . ولكن حين يقوم غرمسبي— أور وهو دبلوماسي بريطاني في الرواية . ولكن حين يقوم غرمسبي أو بالتأكيد بأنه يظن أن «العرب ليسوا هم الأشرار في هذا الموقف » فانه يسارع هو وبريطاني آخر للتأكيد بأن الإسرائيليين أيضاً ليسوا الأشرار (« موسم الشك » ، ص ٢٦٨) . وبشكل مماثل نجد أنه بالرغم من أن تاتكرد يقول : « لم أكن ضد الإسرائيليين كما لم هؤلاء ، الرجال الجالسون حول الطاولة ؛ ولكنني لم أكن أعتقد أن كل الحقوق القانونية والأخلاقية هي لدى الجانب الإسرائيلي » ، فان هذا القول يأتي مباشرة بعد قوله :

لم يكن الأمر يبدي حين كانت وجهة نظري تتعرض للتشويش في غالب الأحيان ، إذ لم يكن من السهل أن يكون المرء صافي الرؤية بالنسبة لشعب (الشعب العربي) كان احتمال أن يكون كل عمل يقوم به وقول ينطق به مناقضاً لما سبقه فوراً مساوياً للاحتمال المعاكس . (ص ٧٤) .

وهكذا فان أية قيمة للمواقف المعلنة لهاتين الشخصيتين — إن كان لها قيمة — في التأثير على الصورة الإجمالية المعروضة في الرواية تتضاءل إلى حد كبير بتأثير التحفظات التي يبديانها . وهي تتضاءل أكثر — بل تنعدم عملياً — بفعل النشاطات والتعليقات الصادرة عن هاتين الشخصيتين طوال الرواية والتي لا يمكن وصفها بأنها مؤيدة للعرب .

وكذلك فإن قيمة التعليقات الإيجابية العرضية المذكورة أعلاه ضئيلة جداً بحيث لا تستطيع بتاتاً التأثير على الصورة العامة للعرب التي تتسم بالسلبية التامة . وكذلك ليس هناك من تأثير على الصورة الكلية في المحاولات القليلة لتحليل الوضع العربي الراهن . فالكتاب يذكرون أنه إذا كان العرب لا يثقون بالبريطانيين والأمريكيين فان عدم الثقة هذه ناجمة إلى حد كبير عن « الأخطاء والإهمالات والأكاذيب » التي قام بها هؤلاء (« موسم الشك » ، ص ٢٣٦) . وهم أيضاً يذكرون تأثير قرون الحكم العثماني والاستغلال الغربي الذي تلاه على النفسية العربية (« الخروج » ، ص ٢٢٨ و ٢٦٣) . ولكن هذه المحاولات للتحليل مختصرة أكثر بكثير مما ينبغي وشديدة التباعد ولا تحمل الكثير من القناعة وتستعمل لغة العموميات دون اللجوء إلى أية تفاصيل مما يجعلها غير قادرة على لفت انتباه القارىء الغربي العادي .

٭ ٭ ٭

ان ما يلفت انتباه القارىء هو الصورة القائمة التي تعرضها هذه الروايات ، وهي صورة يؤكدها التركيز والتفاصيل المحددة والأسهاب والاعادة المستمرة . وهي أيضاً صورة شاملة بمعنى أنها تتناول طريقة وظروف المعيشة لدى العرب وعقليتهم ومظهرهم الجسدي وعواملهم النفسية وعاداتهم الاجتماعية وطريقة تعاملهم وأخلاقهم ومثلهم العليا وطريقتهم في الحديث ونساءهم ومؤسساتهم ومعتقداتهم الدينية وأساليبهم ومؤسساتهم السياسية وتركيب مجتمعهم وقواتهم المسلحة وزيجاتهم وحياتهم العاطفية .

خلا فاً للصهاينة «المتقدمين» ، يقدم العرب على أنهم أمة متخلفة . وكما ذكرآنفاً ، فان الزوجين الأمريكيين المهتمين بأخذ صور تعطي طابع أيام التوراة والإنجيل في « الينبوع » يجدان في « تخلف » الأردن تعزية لهما على خيبة أملهما في إسرائيل « المتقدمة » وحين يسألان عما سيفعلانه حين تتطور الأردن وتصبح دولة عصرية يقولان أنه سيكون هناك دائماً منطقة عربية متخلفة تخدم أغراضهما (ص ١٠٣٤) . وفي نفس الرواية تجري مقارنة بين بيت إسرائيلي حديث مجهز بالكهرباء والبراد والموقد الحديث وتكييف الهواء وبيت قروي عربي لا كتب فيه ولا موقد ولا كهرباء وإنما فيه أوان فخارية وطراز من اللباس عمره عدة قرون وطاحونة كان يمكن أن توجد قبل عشر آلاف سنة (ص ٢٩٩ — ٣٠٠) .

ويصور « التخلف » العربي على أنه واضح في المدن الكبيرة والصغيرة . والأمثلة على ذلك عديدة : فالاسكندرية مدينة « سقيمة » ، ودمشق « مهلهلة » و « معذبة » ، وتتسم يافا « بالأزقة الضيقة والقذارة والتفسخ » ، وشوارع حلب « مليئة بالرفث » ، والناصرة « عفنة » (« برج بابل » ، ص ٢٠ و ٣٥ ؛ « الخروج » ، ص ٢٢٧ و ٢٢١ و ٣٤٧) . وفي « الينبوع » تقدم لكلنين قطع من الثلج شديدة القذارة ليضعها في كوب الماء التي يشرب منها وذلك في مقهى عربي في عكا (ص ٦٧٨ — ٦٧٩) ، وحسب ما يرد في « برج بابل » فان مطعم أبو نواس (١) يقدم طعاماً سيئاً جداً ولكنه مع ذلك أفضل مطعم في دمشق (ص ٢٥٨) . وفي سوق في مدينة يافا ، يجد المرء أن كمية البضاعة « التي يمكن أن تكدس في الدكاكين الصغيرة ومقدار القذارة التي يمكن لشارع واحد أن يجمعها » هما مصدر للدهشة (« الخروج » ، ص ٣٩١ — ٣٩٢) . وباختصار ، فان « القذارة وظروف المعامل البدائية » في المدن العربية « لتقلب أقوى معدة » (« الخروج » ، ص ٤٣٥) .

(١) نشرت رواية « برج بابل » عام ١٩٦٨ ، ولم يكن هناك على حد علمي مطعم في دمشق يحمل هذا الإسم في ذلك الحين .

وكذلك فان « التخلف » واضح – كما يصور – في القرى العربية – خذ مثلا قرية أبو اليشع – التي هي قرية أحسن من الوسط – حين يزورها الأخوان رابنسكي لأول مرة بعد أن أمضيا الليل فوق هضبة مجاورة :

. . . في الصباح التالي أخذا بالهبوط باتجاه القرية العربية . كانت المنازل البيضاء الطينية المتجمعة حول بعضها كما لو كانت سرجاً على الهضبة تبهر النظر تحت شمس الصباح . كانت الأراضي الزراعية وبساتين الزيتون تنحدر من القرية نحو مستنقع بحيرة الحولة . كان هناك في الحقول حمار يجر محراثاً خشبياً . وكانت حمير أخرى تحمل على ظهورها كميات ضئيلة من المحصول . وفي الكروم جهدت النساء العربيات في العمل بين دوالي العنب . كانت القرية ،مثلما كانت حتماً قبل ألف سنة .

تلاشى جمال القرية الذي لاح عن بعد مع كل خطوة أخذاها وهما يدنوان منها وسرعان ما حلت محله نتانة طاغية . وأخذت أعين تملؤها الريبة تراقب الأخوين من حقول ومنازل القرية حين دخلا الشارع الترابي . كانت الحياة تسير بحركة بطيئة تحت الشمس اللاذعة . وكان الطريق مليئاً بغائط الجمال والحمير . أحاطت أسراب من الذباب العملاق بالأخوين . كان كلب كسول يستلقي بلا حراك في ماء المجاري المكشوفة ليبرد نفسه . انطلقت نسوة محجبات ليختبئن في بيوت قذرة كل منها مؤلف من غرفة واحدة ومبني من الطين ؛ كانت نصف الأكواخ في حالة تداع وشيك وكانت تضم دستة أو أكثر من السكان ، بالإضافة إلى الخنازير والدجاج والبغال والماعز .

* * *

فيما بعد وصلوا إلى كوخ خرب كان يستخدم كمقهى . كان رجال كسالى يجلسون أو يضطجعون حوله على الأرض فيما كانت زوجاتهم يحرثن الحقول . كان بعضهم يلعب طاولة الزهر . وكان الهواء عفناً من العبير المختلط للقهوة القوية والتبغ ودخان الحشيش ، والروائح الفاسدة لبقية القرية (١) . (« الخروج » ، ص ٢٢٢) .

(١) للمقارنة ارجع إلى رواية لونستاين ، ص ٣١ ، ورواية هيستون ، ص ٢ . لاحظ كيف تشمل ماشية القرية الخنازير رغم أن يوريس يشير بوضوح لايقبل الشك إلى أن هذه القرية هي قرية مسلمة . .

ويعيش الناس في هذه المدن والقرى – حسبما يخبر القارىء – حياة صعبة قاسية . في بيروت مثلا ، يوجد الفقر « خلف واجهة المدينة الباهظة » (« موسم الشك » ، ص ٣٦) . ويتضح مدى هذا الفقر من تعليق يبديه تانكرد حول خادمه أحمد : « لقد رفعته بقايا مائدتي إلى إنسان ذي هوية أخرى » (ص ١٤٣) . وبالإضافة إلى الفقر فان عدم وجود التربية الصحيحة والخدمات الطبية المطلوبة هو دليل على تعاسة الحياة العربية كما تصورها هذه الروايات. يقول الدكتور بيطار في رواية « موسم الشك » إنه إنسان ساخط « لأن أطفالا كثيرين يموتون ولأن هناك قدراً كبيراً من البؤس القذر » في سوريا (ص ١٦٢) وجراح الشرطة هو مثال على عدم الكفاءة الطبية في البلاد ، إذ يذكر الدكتور بيطار أنه قام « بترقيع بعض المهمات السيئة التي قام هو (الجراح) بها » (ص ٢٥٦) . ويتبدى انعدام الوعي الصحي في إهمال عمر سفر الدين (كذا !) – وهو الرجل المسيطر على سوريا – في تأمين العلاج لطفله المريض إلى أن يصبح الطفل في حالة ميؤوس منها تقريباً (ص ٨٨) . وحتى حين يحاول القادة العرب مثل كال في « الخروج » – وهؤلاء من الندرة بمكان حسب تصوير الروايات المدروسة – أن يؤمنوا مدارس ووسائل تربوية أفضل لشعبهم ، فان السلطات الأعلى لا تتيح لهم أية فرصة لتحقيق ذلك (ص ٢٣٦) (١) .

ويبدو « التخلف » في أسلوب العرب الحياتي واضحاً في وصف يوريس لقرية أبو اليشع كما أورد أعلاه . ويعطي يوريس أمثلة توضيحية أخرى . فهو يقول أن هناك « القليل من الغناء والضحك والبهجة في الحياة العربية » . فهي تتصف « بالدهاء والخيانة والجريمة والثارات والغيرة » و « بكفاح مستمر للبقاء » . « يعيش الفلاحون في قذارة مطبقة » أما البدو فبالنسبة لهم « البقاء هو معجزة تحدث يوماً بعد يوم » . هؤلاء « الفلاحون والبدو « مثبطي العزيمة إلى حد كبير بحيث أنهم لا يستطيعون حتى فهم الحرية وظروف المعيشة الأفضل » (« الخروج » ، ص ٢٣٨) .

° ° °

روغم أن الشخصية العربية ، حسبما يذكر في « الخروج » ، هي « سر هائل بالنسبة

---

(١) للعثور على أمثلة على « سوء » الوسائل التربوية العربية ارجع إلى « الينبوع » ، ص ٤١٢ ، و « موسم الشك » ، ص ٣٥ . وكذلك ارجع إلى « لوخسرت اسرائيل الحرب » ، ص ٢٤٣ ، للعثور على مثال على « احتقار » العرب للعلم والتعليم .

للغريب » (ص ٢٣٩) (١) ، فان الروائيين الذين ندرس أعمالهم يقدمون وصفاً شديد الإسهاب لهذه الشخصية . وحسب وصفهم هذا فالعربي من الناحية الجسمية قصير و « هزيل المظهر » وقذر (٢) . ولكن يجب أن يوجه الانتباه إلى وصف هذه الروايات لشخصية العربي الأخلاقية ولعقليته ولعاداته الاجتماعية .

فالعربي – حسبما يذكر القارىء – كريم مضياف ، ولكن ضيافته لا تبعث دوماً على السرور . خذ مثلا تجربة تانكرد في « موسم الشك » حين يكون في بيت المليونير اللبناني :

أحضر لي أحد الخدم كأس ليمون وبعض البلح . إنني لا أستذوق الأطعمة الحلوة ، ولكن كان من الواضح أن حاصباني يستذوقها . بدأ يمضغ بعض البلح وقت متبعاً قواعد الضيافة العربية بتناول واحدة . كان يمكن للأمر أن يكون أسوأ : لقد اضطررت مرة لأن آكل عين خروف . (ص ٢٠١)

خذ أيضاً حالة كيتي فرمونت في « الخروج » ، إذ ينصحها آري بن كنعان حين تدعى بصحبته إلى دخول خيمة شيخ بدوي : « علينا أن ندخل وإلا شعر بالإهانة . كوني فتاة مؤدبة وكلي أي شيء يقدمه لك . وبإمكانك أن تتقيأي فيما بعد » . وهكذا تضطر كيتي إلى دخول الخيمة « النتنة » وإلى أكل « رجل خروف مليئة بالشحم . . . بما فيها من نخاع العظام المخلوط مع الرز » وأيضاً إلى أكل فواكه غير مغسولة وإلى شرب « قهوة قوية وحلوة إلى حد يبعث الاشمئزاز في فناجين قذرة بحيث تشكلت عليها قشرة من الأوساخ » (ص ٣٦٧) .

ودائماً يتأخر العربي عن مواعيده . ولا تفلح الثقافة الغربية ولا التدريب العسكري في علاجه وشفائه من هذه العادة ، كما يظهر في حالة أحمد توفيق ، وهو نقيب في الجيش الأردني في رواية « في وسط الأسود » (ص ٣٤) .

وللعرب عادة أخرى هي عادة « عدم توجيه سؤال مباشر أبداً » (« الخروج » ، ص ٢٢٣) والثقافة الغربية تفشل في علاج هذه العادة أيضاً . وفهد (في « موسم الشك ») هو مثال على هذا : « لقد أمضى سنة في أوكسفورد وأخرى في هارفارد ، ولكن لم تستطع أية من

---

(١) انظر أيضاً إلى « في وسط الأسود » ، ص ٣٤ .

(٢) للعثور على أمثلة ارجع إلى « لوخسرت اسرائيل الحرب » ، ص ٥٢ ، و « احضروا أبنائي من بعيد » ، ص ١٠٧ ، و « موسم الشك » ، ص ٣٩ ، و « الخروج » ، ص ٣٦١ و ٣٦٦ – ٣٦٧ و ٣٩٠ – ٣٩٢ .

الجامعتين شفاءه من الادمان العربي على اللف والدوران » (ص ١٠) . وتوضح حالة العميد سفر الدين (في « برج بابل ») أن الوصول إلى مراكز السلطة العليا لا يفيد أيضاً في علاج هذا الداء (ص ٣٩) .

واللف والدوران يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بصفة عربية أخرى ، وهي الإدمان على البلاغة . ويعلق مصطفى قوبان (أو كوبان) – وهو جندي شركسي في الجيش السوري – قائلا : « كلام ، كلام ، كلام ، هذا هو كل ما يجيده العرب » ، ويقول يوسف البريق (؟) – موظف مصري يشغل وظيفة هامة – أن للكلمات قيمة في حد ذاتها (« في وسط الأسود » ، ص ٨٩ و ٢١) (١) .

ويكشف العربي في معاملاته التجارية عن صفة أخرى من صفاته : المساومة . فحسب قول كليري في « موسم الشك » المساومة هي « متعة عربية أخرى » (ص ١١) . ولكن يجب على القارىء ألا يستنتج أن هذه المساومة دليل على الذكاء . في « الخروج » يبيع صاحب دكان عربي لكيتي فرمونت بعد مقايضة طويلة (وحسبما يذكر القارىء تضطر كيتي لأن تساوم البائع لكيلا تفسد تجارته) بعض القطع الأثرية بمبلغ اثني عشر جنيهاً استرلينياً بينما القيمة الحقيقية لهذه القطع تعادل ثلاثمائة أو أربعمائة دولار (ص ٣٩١) .

ويصور العربي بأنه لا يفكر (« لا يقرأ العرب الحقائق كحقائق ») (« موسم الشك » ، ص ١٥٤) (٢) ؛ وكذلك بأن عقله ملىء بالريبة « لا يثق العرب بأي غريب » (« الخروج » ، ص ٢٣٨) . ومن جهة أخرى فهو غير قادر على تحمل المسؤولية ، ففي « الينبوع » يهرب عربي لديه مفتاح مستودعات الذخيرة في عكا في عام ١٩٤٨ إلى بيروت ، ويأخذ المفتاح معه تاركاً الجنود العرب في المدينة دون أية ذخيرة (ص ٩٩٨) . وبالإضافة إلى ذلك فان العربي لا يعطي قيمة للنواحي العمليةحسبما يتفق تانكرد وبريغز وغرمسبي – أور في « موسم الشك » (ص ١٥٤) (٣) . وكذلك يفتقد العربي كما تصوره هذه الروايات إلى الاعتزاز بنفسه وبشعبه ؛ فطه في « الخروج » يشعر أنه دون اليهود ويعزو هذا الشعور ،

---

(١) انظر أيضاً إلى « موسم الشك » ، ص ٢٣٠ .

(٢) انظر أيضاً ص ٢٩٨ .

(٣) انظر أيضاً ص ١٣ .

« رغم أن الفارق كان أقل بكثير من الفارق بين أفندي (١) ملاك للأراضي وبين الفلاحين العبيد » (ص ٣٥٩) . ويعلق تانكرد على هذا الا فتقار إلى العزة أنه « لا شخص يحتقر العرب الآخرين كالعرب أنفسهم » (« موسم الشك » ، ص ١٣) . ولكن أكثر الأمثلة على افتقاد العرب للا عتزاز لفتاً للنظر يرد في رواية « لو خسرت إسرائيل الحرب » ، حيث تحزم زوجة الرئيس عبد الناصر أمتعتها يوم ٤ حزيران « استعداداً » (ص ٥٤ — ٥٥) . والعربي — مثل الإيرلندي — « لا يستطيع أن يشعر أنه يحيا بشكل كامل بدون شكوى » (« في وسط الأسود » ، ص ٣٥) .

* * *

إحدى خصائص الشخصية العربية التي تدعيها هذه الروايات وتعطيها قدراً كبيراً من التركيز هي الكراهية وروح الانتقام . ففي « كأس الغضب » هناك بين مصطفى حسيني — أحد القواد العرب — ومستشاره الألماني « أمور كثيرة مشتركة ، ولكن الشيء الرئيسي هو كراهيتها » . فها يكرهان اليهود والأمريكان والروس والشعب البريطاني والدين والشيوعية والديمقراطية الغربية (ص ٢٠٠ — ٢٠١) (٢) ، ويعطينا بريفز — مهرب السلاح البريطاني في « موسم الشك » مثالا آخر ، إذ يقول :

« كما ذكرت كنت متحازاً إلى الجانب العربي في بداية الأمر . . . ولكن كلما ازداد تعاملي معهم ، كلما ازداد ضيقي بهم . إنهم جميعاً يرتابون في بعضهم ، وحتى أن البعض منهم يكره بعضه الآخر أكثر مما يكره اليهود . لقد كان هناك مهرج من دمشق يفضل أن يطلق الرصاص على الملك حسين من أن يصوب اصابة محكمة على ايشكول في تل أبيب » . (ص ٢٦٨ — ٢٦٩)

وفي « لو خسرت اسرائيل الحرب » يصبح العرب ، « الموت لليهود » ، ويسرع اللاجئون المقيمون في غزة إلى أقرب مستوطنة اسرائيلية لقتل سكانها (ص ٤٨ و ٥٢) . (٣) وفي نفس الرواية أول ما يقوم به الجنود الأردنيون لدى دخولهم المنتصر إلى إسرائيل هو

---

(١) يستعمل بوريس هذه الكلمة بالذات ، وكذلك يستعمل كلمة « فلاحين » العربية : (Effendi . Fellaheen)

(٢) نجد مثالا مماثلا في « كوكب الهوا » (ص ١٨٩) .

(٣) كذلك انظر ص ٤٠ .

أن يقوموا بذبح جميع سكان بلدة أبو غوش العربية المجردين من السلاح ، لأن تلك البلدة حسبما يرد في الرواية انحازت إلى جانب الصهاينة عام ١٩٤٨ . ويقوم الأردنيون بمذبحة مماثلة في مستوطنة موتزا الإسرائيلية (ص ١٤٤ – ١٤٥) .

ونجد في « الخروج » أن الإبن الأكبر لصاحب دكان عربي هو « صورة عن الغباء » (ص ٣٩٠) ، ولكن الغباء ليس الخاصية الوحيدة التي تميز العقلية العربية ، حسبما تصورها الروايات المدرسية هنا . فالتحامل الناجم عن ضيق التفكير مثلا واضح في الرفض المتوقع من طبيب لبناني لأن يأتي إلى منزل تانكرد لمعالجة بريغز ، الذي جرحه «السفاحون»الفلسطينيون ، لأن قبول الطبيب يسبب فقدانه لكل مرضاه العرب وهم تسع وتسعون في المئة من مجموع زبائنه (« موسم الشك » ، ص ٣٨ – ٣٩) .ونجد دليلا آخر في رفض سائقي سيارات الاجرة في مطار بيروت ايصال تانكرد إلى المدينة لمجرد كونه أمريكياً (« موسم الشك» ، ص ٢٨٤) .

والعرب أيضاً يؤمنون بالقضاء والقدر إيماناً أعمى (« موسم الشك ، ص ١٣٤) ويتركون كل شيء في يد الله . (١) ويشير ميشون – وهو مصري أمريكي يعمل في بيروت في « برج بابل » – إلى أن « العرب يحملون الفكرة الصحيحة : اجلس القرفصاء بينما يدوي الرعد فوق رأسك ودع الله يتولى أمر الغد » (ص ١٢٨) .ولكن ليس من المرجح أن يوافق القارىء مع ميشون على أن هذه الفكرة صحيحة حين يعلم أن السائقين العرب مثلا يتركون معظم السواقة لله (« موسم الشك » ، ص ١٤) (٢) .

* * *

وتستعمل كلمة « عربي » في معظم الروايات التي يتناولها هذا البحث كرادف لكلمة

---

(١) يصر الروائيون على استعمال كلمة « Allah » حين التحدث عن الدين الإسلامي لإعطاء القارىء انطباعاً بأن الرب الذي يؤمن به المسلمون هو غير الرب الذي يؤمن به المسيحيون واليهود . ولا يبدو أن أياً من المؤلفين الذين تدرس أعمالهم في هذا البحث يدرك أن المسيحيين واليهود العرب يعبدون « الله » أيضاً ، وأن « الله » هي الكلمة العربية المماثلة في المعنى لكلمة« God » الانكليزية ، فهم يفضلون التفكير بأن « الله » هو إله غامض يصعب فهمه .

(٢) راجع ص ٢٤٧ أيضاً .

« مسلم » . (١) ويصور دين « العرب » على أنه – والعبارة هنا لموريس وست – « عقيدة بدائية فجة » (« برج بابل » ، ص ٨٩) . وهي أيضاً عقيدة غير عملية ؛ فاللبنانيون – حسبما يرد في « موسم الشك » – .

هم – ربما لأن نصفهم من المسيحيين – أكثر العرب عملية . فالمسيحية – من بين أشياء أخرى – قد علمت الناس أن يدركوا على أي طرف من خبزهم توضع الزبدة .(ص ١٣)

والأخلاق العربية « منعدمة الضمير » (« الخروج » ، ص ٢٣٨) . وباستعمال « منطق غريب » يخبر جوسي وابنسكي ، يستطيع العربي أن « يتغاضى عن أية جريمة لا تصل الى حد القتل » (ص ٢٣٨) . ويتجلى افتقار العرب إلى القيود الأخلاقية في السياسة العربية التي سيرد بحثها فيما بعد وفي ساحة المعركة . فدافع معظم الجنود العرب – ان لم يكن كلهم – إلى قتال الصهاينة هو الطمع في النهب واغتصاب النساء . وكمثل على ذلك نجد أن أكثر من نصف رجال مصطفى حسيني (الذين يبلغ عددهم ٢٣٠٠ رجلا)

كانوا مرتزقة ممن كانوا قبل تلبيتهم لدعوة السلاح ضد يهود فلسطين يمثلون مهناً متعددة : نشالون وذابحو رقاب ، محترفون وقوادون ومخبرون ومحتالون ومتشردون ولصوص وسجناء سابقون وجميع أنواع السفاحين الذين يتعذر تصنيفهم .وباغراء الرواتب الجيدة والطعام المجاني والاحتمالات الواعدة بالنهب والاغتصاب والقتل قام هؤلاء الأفاضل بالإنضمام بحماس إلى صفوف اخوانهم الذين هم إلى حد ما أكثر احتراماً للقانون ولكنهم متعطشون إلى الدماء بقدر مماثل . (٢) (« كأس الغضب » ، ص ٢٠١)

وما يقوم به العرب أثناء الحرب مماثل في طبيعته لدوافعهم للقتال . فهم يقومون بالسلب والإغتصاب حيثما أتيح لهم المجال لذلك . وفي مثال عملي في « لوخسرت اسرائيل الحرب » يقوم جنود عراقيون وقائدهم باغتصاب الإسرائيلية نوامي فردي (ص ١٤٩) ، ولكن هذه ليست على الإطلاق الحادثة الوحيدة ؛ فالنصر العربي في الحرب يؤدي إلى « سلسلة كبيرة من حوادث الإغتصاب (ص ٢٣) . وهو أيضاً يؤدي إلى « عربدة » من النهب وسفك الدماء

---

(١) انظر « موسم الشك » ، ص ١٣٨ – ١٣٩ و ٢١٩ للحصول على مثال .

(٢) ارجع إلى « الخروج » ، ص ٤٨٦ ، لتجد وصفاً مماثلا لما تقسمه القوات العربية ، وص ٥٧٤ ، لتجد المزيد عن دافع النهب والإغتصاب .

(ص٢٣٦) . (١) وبالإضافة إلى ذلك تقوم المدفعية السورية بتهديم أماكن مقدسة وكذلك مشروع السقاية ومركز ثقافي (ص ١٣) . وفي ١٩٤٨ يقوم الجيش الأردني بخرق « كل مفاهيم الشرف » (« الخروج » ، ص ٥٣٨) ،بينما يقوم « الرعاع العرب » في القدس بالتدفق خلف الفيلق لتهديم عشرات من المعابد والأماكن المقدسة، «وقاموا بسلب ونهب كل بيت يهودي سقط » (ص ٥٦١ – ٥٦٢) . ولكن ليس من الضروري أن يكون العربي في حالة حرب لكي يقوم بالنهب والإغتصاب. فحين يعرف العرب بقرار تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة مثلا ، يقوم الرعاع في « حلب وعدن وعبر العالم العربي بأكله » بالهجوم بتوجيه من قادتهم « على أحياء الغيتو اليهودية والقتل والإغتصاب والنهب في نيتهم » (« الخروج » ، ص ٤٨٥) .

وخلال الإنتداب البريطاني تصل « شرذمة من الفلاحين » ، بتشجيع من مفتي القدس إلى حالة من الهيستيريا وتقوم بمذبحة منظمة ، تذهب ضمن ضحاياها وزوجةعمآري بن كنعان وابنتها (ص ٢٦٥) .وكذلك يقتل العرب دافنا – فتاة آري – ويشوهونها بعد أن « تغتصب أكثر من مائة مرة» (ص ٢٩٣).وبالاضافة إلى الاغتصاب والنهب وتدمير الأماكن المقدسة ، فان أخلاقية العرب تتبدى أيضاً في استعمالهم لقنابل الغاز والنابالم في حروبهم حتى تكون هذه الحروب بين بعضهم البعض مثل حرب اليمن . (٢)

حين يعلم نوري شكري ، وهو صاحب مصرف في « برج بابل » ، أن منظمة التحرير قد أودعت في مصرف آخر مبلغ ألف جنيه استرليني لحساب ادريس جراح – احد المسؤولين في المنظمة – فانه يستنتج أن « شيئاً كبيراً سوف يحدث في القريب العاجل » « بمائتي ألف جنيه » ، يقول شكري عن ادريس جراح ، « يستطيع أن يشتري كل لاجىء فلسطيني عربي نهر الأردن – وجزءاً من جيش حسين كذلك » (ص ٣٢) . ان جانباً آخر من جانب

---

(١) للعثور على تفاصيل عن السلب والقتل ارجع إلى ص ٢٣٧ وما يليها .

(٢) ارجع إلى « موسم الشك» ، ص ٣١ و ١٩٣ ؛ « لوخسرت اسرائيل الحرب » ، ص ٤٩ و ١٢٠ و ١٢٩ و ١٣٠ . وللمزيد عن « الوحشية » العربية ، ارجع إلى « الخروج » ، ص ٣٨١ و ٥١٣ و ٥٢١ و ٦٢٢ . وربما كان من الجدير بالذكر أنه في معظم أمثلة « الوحشية » هذه ، يعمد الروائيون إلى التفصيل في وصف أحزان عائلات « الضحايا » اليهود، بينما يغفلون عن تصوير الحزن في حالة الضحاياالعرب.وفي الواقع قلما ذكر الضحايا العرب كأفراد .

الشخصية الأخلاقية العربية – كما تصفها الروايات التي نبحثها هنا – هي أن العربي يمكن شراؤه بسهولة ، وفي « الخروج » تستطيع الهاغانا أن « تشتري جواسيس عرباً بأبخس الأثمان » (ص ٢٧٨) . (بينما تبوء الجهود البريطانية « الحصول على مخبرين يهود » بالفشل المطبق) (١)

ويتجلى افتقار العرب إلى المقاييس الأخلاقية أيضاً في استعمال الأصوات العربية في الأمم المتحدة « كرشاوي» لتأمين الحصول على المندوبين الآخرين في قضية فلسطين («الخروج»، ص ٤٧٤ و ٤٨٠) وكذلك في « استغلال » اللاجئين الفلسطينيين لوكالة الغوث (« في وسط الأسود » ، ص ١٣١) .

* * *

في رواية « لو خسرت اسرائيل الحرب » ، يعلق الرئيس السوفياتي نيقولاي بودغورني لدى استلام تقارير عربية عن تطورات الحرب في الشرق الأوسط أن العرب يبالغون عادة . فالتقارير السورية مثلا « غير صحيحة » .ولكن ضحايا المبالغة هم عادة أفراد الشعب العربي (ص ٩٣ و ٤٣) . مثلا يجد الرقيب المصري سليمان داود مثلا اطلاق سراحه من الأسر الإسرائيلي بعد حرب السويس في ١٩٥٦ « شيئاً من الصعوبة في تصديقأن « ماحدث في سيناء كان حقاً نصراً عربياً كبيراً » كما يدعي الضباط المصريون المكلفون «باعادة التلقين الفكري » (« في وسط الأسود » ، ص ٧٩) (٢) .هذه المبالغة وما تهدف اليه من « خداع » الجماهير العربية هي جانب من جوانب الوضع السياسي العربي كما تصوره الروايات التي تبحثها هذه الدراسة .

ولكن جانب السياسة العربية الذي يلقى أكبر قدر من التركيز هو انعدام الوحدة والتنظيم ، ويتراوح هذا الانعدام من الإنقسامات والإختلافات بين الزعماء الكبار (الملوك والرؤساء) إلى الغيرة والمنافسة بين أعضاء أية فئة سياسية . « إذا كان العربي أي شيء » ، يفكر الأب هرزوغ – وهو احد الناطقين بلسان همبستون – « فهو آخر الفرديين في العالم

(١) « الخروج » ، ص ٣٧٤ . لاحظ الإختلاف في التعبير بين « شراء الجواسيس » و« الحصول على مخبرين » .

(٢) انظر أيضاً إلى « الخروج » ، ص ٥٤١ .

وأكثرهم صلابة (في فرديته) » (« في وسط الأسود » ، ص ٣٥) . (١) ولكن لكيلا يأخذ القارىء هذا التعليق على أنه مديح للعرب ، فان الروايات التي تتناولها هذه الدراسة تسارع إلى التوضيح بأن العربي فردي أكثر مما ينبغي ، مما يجعل التنظيم والوحدة في أية فئة عربية مستحيلة عملياً . يقول الطبري – الذي قاد القوة العربية في عكا في ١٩٤٨ – « انني اللواء الوحيد في التاريخ الذي قاد اربعة آلاف جيش كل منها مؤلف من رجل واحد» (« الينبوع » ، ص ٩٩٨) .

وتذكر هذه الأعمال الروائية باختصار أو بتفصيل خلافات ومشادات وأمثلة عن الغيرة وانعدام الثقة بين المصريين والسوريين ، وبين عبد الناصر وحسين ، وبين الأردنيين والسوريين ، وبين حزب البعث وعبد الناصر ، وبين الفلسطينيين والأردنيين ، وبين السوريين واللبنانيين ، وبين الفلسطينيين والمصريين . (٢) وحتى أن الخلاف وقع بين فلسطينيي حيفا والقدس خلال حرب ١٩٤٨ (« الينبوع » ، ص ٩٩٨) . وفي تلك الحرب – حسب ادعاء رواية « الخروج » – :

كشف العرب عن أن لديهم « خطة كبرى» للقذف باليهود في البحر . اذا كانت هناك خطة كبرى ، فانه لم يكن هناك قائد كبير ، لأن كل بلد عربي كانت لديها فكرتها الخاصة حول من يجب أن يدير الجيوش وكل بلد عربي كانت لديها فكرتها الخاصة حول من يجب أن يحكم فلسطين فيما بعد . اذ ادعت كل من بغداد والقاهرة زعامة العالم العربي وزعامة « الدولة العربية الكبرى » ؛ وادعت العربية السعودية الزعامة باعتبارها الدولة التي تضم مدينتي مكة والمدينة المقدستين ؛ وطمحت الأردن الحصول على فلسطين كجزء من الأرض المتعددة ؛ ولم تكن سوريا قد أسقطت أبداً ادعاءها بأن فلسطين كانت الجزء الجنوبي من مقاطعة عثمانية ؛ وهكذا قام العرب « المتحدون » بالهجوم . (٣) (ص ٥٤١)

ان أي اتفاق يوجد بين العرب هو – كما يدعي هؤلاء الروائيون – ناجم عن وجود اسرائيل في وسطهم . يشير الآب هرزوغ أنه « إذا توقفت اسرائيل فجأة عن الوجود ، فان

---

(١) لكن الأب هرزوغ نفسه ينتقد مبادرة الملك حسين للتضامن مع مصر وسوريا عام ١٩٦٧ (انظر ص ٤١ – ٤٣) .

(٢) ارجع مثلا إلى « في وسط الأسود » ، ص ٢٢ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٨ ، و « برج بابل » ، ص ٣٤ – ٣٦ .

(٣) كذلك انظر ص ٥٣٧ ، و « موسم الشك » ، ص ١٣ .

أي اتفاق عربي موجود سيذوب بين ليلة وضحاها » (« في وسط الأسود » ، ص ٣٥) .
ويكتب وست عن نفس هذه النقطة :

بالنسبة للعالم العربي كانت دولة اسرائيل مثل الله . اذا لم تكن موجودة لديك ، فان عليك اختراعها كنقطة تركيز السخط ونقطة تجميع للعالم الإسلامي المقسم بشكل مؤلم . بدون اليهودي ، أي كبش فداء آخر يمكنك أن تجد لسكان الأحياء الفقيرة في الاسكندرية والشحاذين الذين يحكون قروحهم في فناء الحرم الشريف وللرجال العاطلين عن العمل في دمشق والعشرة آلاف شخص الضائعين بين الصحراء والبحر قرب مدينة شمشون ؟ . . . لقد استطاع الوفاق العربي أن يعبر عن نفسه سلبياً فقط : دمروا اليهود ! ولكن بدون اليهود لا يكاد يستطيع أن يعبر عن نفسه مطلقاً ! (١) («برج بابل»،ص٣٤

مع هذه الصورة التي يرسمها هؤلاء الروائيون عن انعدام الأخلاق بين العرب وعن انتشار التنافس والغيرة بينهم ، ليس من الغريب أن يستنتج هؤلاء الكتاب أن السياسة في العالم العربي هي « لعبة » قوامها « التآمر والقتل » (« الخروج » ، ص ٥٧٢ ، ٦٠٧) . ففي « لو خسرت اسرائيل الحرب » (٢) الملك حسين واللواء اميل البستاني ، رئيس أركان الجيش اللبناني (ص ٢١٤ — ٢١٥) . ومن جهة أخرى ، فان قسماً كبيراً من رواية « برج بابل » يدور حول « مؤامرة » سورية ضد الملك حسين ، وتدور رواية « موسم الشك » حول محاولات متكررة لإغتيال السيد زيد ، وهو أكبر جواسيس اسرائيل في لبنـــان . (٣)

وبالرغم من أن العربي هو فردي لايتخلى عن فرديته ، فان باستطاعة القادة العرب أن يثيروا الرعاع بسهولة وأن يدفعوهم إلى القيام بنشاطات سياسية عنيفة . فالفلاحون

---

(١) ارجع أيضاً إلى « لوخسرت اسرائيل الحرب » ، ص ٢٢٧ .

(٢) هذه الرواية هي تصور لما كان من الممكن أن يحدث لو انتصر العرب في حرب حزيران ١٩٦٧ .

(٣) للعثور على أمثلة محددة ارجع إلى « برج بابل » ، ص ٢٦ — ٢٧ ، ٥٥ —٥٦ ، وإلى « موسم الشك » ، ص ٣٦ — ٣٧ و ٥٨ و ١٨٨ و ٢٤٧ .

فلسطين مثلا ليس لديهم « أية رغبة على الإطلاق » في القتال ضد الصهاينة ، حسب ادعاء « الخروج » ، ولكن الأفنديين (ملاك الأراضي) والزعماء السياسيين يدفعون بهم إلى العنف الهيستيري (ص ٢٦٥ و ٢٧٣ و ٢٨٦).وفي بيروت أثناء حرب ١٩٦٧ ، يقوم الرعاع العرب بملؤهم « الغضب والكراهية » ويقودهم زعماء محترفون بالتظاهر أمام السفارة الأمريكية ورمي الحجارة على بناء السفارة وتمزيق سقف سيارة تانكرد (« موسم الشك » ، ص ١٢٥ و ١٣٧ و ١٥٨ و ٢١٧ – ٢١٨) . ومع ذلك فان هؤلاء الرعاع « ليسوا من المتظاهرين المتدربين ، ليسوا كأمثالهم في القاهرة ودمشق وبغداد » (ص٢٩) .

ويمكن للمرء أن يتصور بسهولة كيف تصور هذه الروايات القادة والرسميين العرب الحقيقيين منهم والخياليين . وتحفل هذه الأعمال بالصور السلبية للحاج أمين الحسيني وللرئيس جمال عبد الناصر والسيد أحمد الشقيري ولقادة حزب البعث في سوريا (١) ويمكن أن نأخذ وصف غداء عبد الناصر في « لوخسرت اسرائيل الحرب » كمثال . فوجبة الغداء تتألف من الفول الذي يقدم الرئيس على « صينية فضية » (ص ٥٦) . وربما كان مثال فرج طبري – وهو أحد المسؤولين العرب في فلسطين أثناء الحكم العثماني – أكثر وضوحاً . فطبيعة طبري هذا الفاسدة تتجلى في قبوله لأن يستعمل جنسياً من قبل رئيسه التركي (الذي يزوجه ابنته فيما بعد) وذلك كي يصل إلى مركزه العالي (« الينبوع » ، ص ٣٧٥) . (٢)

---

(١) للاطلاع على صورة عبد الناصر ارجع إلى « الخروج » ، ص ٦٠٧ ؛ و« موسم الشك » ، ص ٤٤ و ١١٤ و ١١٩ و ١٦٣ و ١٧٨ ؛ و « برج بابل ، » ص ٢٥ و ٣٦ ؛ و « في وسط الأسود » ، ص ٨٥ ؛ و لوخسرت اسرائيل الحرب » ، ص ٥٥ و ٥٩ و ٦٠و٦١– و١٢٢ و ١٢٩ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٩٨ و ٢٢٨.ومن أجل الإطلاع على صورة الحاج أمين الحسيني ارجع إلى « الخروج » ، ص ٢٦٤ و ٢٦٥ و ٢٦٨ و ٢٧٣ و ٢٧٨ و ٢٨٦ – ٢٨٨ و ٣٠٩ . وللاطلاع على صورة فوزي القاوقجي ارجع إلى « الخروج » ، ص ٢٨٦ و ٥١٠ – ٥١١ . أما بالنسبة لقيادة حزب البعث في سوريا فارجع إلى صورة العميد سفر الدين في « برج بابل » . وبالنسبة الفدائيين ، ارجع الى « برج بابل » ، ص ٣٧ ، و « الخروج » ، ص ٦٠٧ – ٦٠٨ .

(٢) للمزيد عن فساد الطبري ، انظر ص ٣٧٦ و ٣٧٩ ، ويوضح هذا المثال أن الروائيين الذين يتناول هذا البحث أعمالهم لا يتورعون عن أي شيء في محاولة تشويه صورة العرب .

ومن جهة أخرى فان مؤهلات ادريس جراح في «برج بابل» التي تمكنه من الوصول إلى مركز مدير عمليات الساحة في منظمة التحرير الفلسطينية هي عمله السابق «كمخبر» وثم «كبوليس سري مساعد في قوى الشرطة الفلسطينية القديمة» — أو بعبارة أخرى ما يؤهله هو معرفته لـ «خدع الجاسوسية والتعامل بالإرهاب» (ص ٣٤). ويخون جراح منظمته من أجل مائة ألف دولار (ص ٥٣ وما يليها).

ويوجه الروائيون انتباهاً خاصاً للقومية العربية. ويتوقع كلينين — بطل متشو — أن القومية (وهو يستعمل كلمة «Pan - Arabism») وليس الدين، ستوحد في المستقبل دولا مثل العراق وسوريا والعربية السعودية. ولكن هذا سوف يحدث في المستقبل البعيد («الينبوع»، ص ٨٨٨). ويرى يوريس أن القومية العربية كانت «حركة تقدمية جاهدة لإقامة اصلاحات كانت مطلوبة منذ زمن طويل» وذلك عند ولادتها، ولكن

> تمسك بالحركة ذات القصد الحسن القادة القبليون والشيوخ والقادة الدينيون والأفنديون ملاك الأراضي، وتحت تأثير هؤلاء تدهورت المثل الأصلية إلى عصبية تملؤها الكراهية فيما كان كل واحد منهم يناور ليصل إلى السلطة على الامبراطورية العثمانية التي كانت في حالة النزع. («الخروج»، ص ٢٣٣)

ويلاحظ الأب هرزوغ في رواية هميستون أنه

> من الهراء التكلم عن العقل العربي أو عن حضارة عربية أو كما كان عبد الناصر يفعل عن أمة عربية. فالأمة العربية ليست أكثر من حلم عاطفي، هدف مثالي يمكن له أن يتحقق فقط لفترة وجيزة في لحظات التأزم الشديد، كرد فعل على تهديد خارجي حاد، فقط ليتخبط في الأوقات الأكثر هدوءاً على صخور التآمر والطموح. («في وسط الأسود»، ص٣٥)

ولا يجد هرزوغ أي شيء يربط العرب معاً سوى «عقيدتهم الدينية العظيمة ولغة كتابية مشتركة يجهلها الملايين الأميون» (ص ٣٥). وهو يزعم أن المصريين ليسوا عرباً، ويشاركه في هذا الزعم كلينين في «الينبوع» (ص ٨٨٨) وتانكرد في «موسم الشك» (ص ٧٠).

كذلك تعطى العلاقات العربية — الروسية اهتماماً خاصاً في هذه الروايات. ويتحدث تانكرد عن اتفاق روسي — أمريكي عام ١٩٦٧ لحجب الأسلحة عن الطرفين المتحاربين («موسم الشك»، ص ٢٠٢ — ٢٠٣) ولكن التركيز بشكل عام هو على مقدار المساعدة

الروسية المعطاة للعرب . فالأسلحة التي تستعمل في الحرب مثلا توصف بأنها أسلحة روسية تجابه أسلحة إسرائيلية (١) . ويقوم الخبراء الروس بادارة هجوم الجيش السوري (« لو خسرت إسرائيل الحرب » ، ص ٢٣٢) وقد أمضى هؤلاء الخبراء فترة تبدأ في ١٩٥٦ في تلقين التعليمات الاستراتيجية للمصريين (« في وسط الأسود » ، ص ١٥٣) . وبالإضافة إلى ذلك فان عبد الناصر حسب قول تانكرد ، صدق « الكذبة الروسية » في عام ١٩٦٧ عن المخطط الاسرائيلي لغزو سوريا (« موسم الشك » ، ص ١٦٣) . وباختصار العرب ليسوا سوى « وكلاء » الروس ، وأي نصر لهم يعني ربحاً كبيراً لروسيا ودعماً للصقور السوفيات وهزيمة الولايات المتحدة وتدهور لسلطتها (« لو خسرت إسرائيل الحرب » ص ٢٠٢–٢٠٩)

ومن جهة أخرى يصور العرب على أنهم يتخذون موقفاً عدائياً من الولايات المتحدة . والمظاهرات المذكورة آنفاً أمام السفارة الأمريكية في بيروت في « موسم الشك » هي دليل كاف . ويشعر تانكرد أيضاً بهذا العداء (أو الكراهية) من قبل أفراد مختلفين بينهم ضابط سوري وعضو من أعضاء البعثة الدبلوماسية المصرية . ويفسر هذا العداء بأنه نتيجة للحكم الخاطئ على أمريكا الصادر عن الراديكاليين بين العرب (« موسم الشك » ، ص ٤٢ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ، ١٦١ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٨٠) .

٭ ٭ ٭

وفي تصوير حياة العربي العاطفية والجنسية تذهب الروايات المدروسة في هذا البحث أبعد من الصورة التقليدية للعربي « الشبق » . ولكن وفرة حوادث الاغتصاب الجنسي تبين بوضوح أن الروائيين لم يستغنوا كلياً عن الصور التقليدية . ونلاحظ صورة العربي « الشبق » أيضاً في منطق والد كال في « الخروج » في « أن بإمكان ابنه الحصول على أربع زوجات وعدد لا حصر له من الخليلات » . وبالفعل يقوم كال بالزواج من ثلاث زوجات (ص ٢٣٦ – ٢٣٧) (٢) .

لا توجد في جميع هذه الروايات سوى علاقة حب طبيعية واحدة بين شخصين عربيين

(١) ارجع مثلا إلى « لو خسرت اسرائيل الحرب » ، ص ٢٦ و ٢٧ و ٣٩ .

(٢) لا حظ أن طه لا يتكلم عن « الحب » ، بل عن « أخذ جوردانا إلى سريره » .

وهي العلاقة بين أحمد توفيق وزجته الفلسطينية ليلى في رواية « في وسط الأسود » (١) . (ولكن يجب ملاحظة أن القتال يفرق بين الزوجين وأنه بعد رجوع أحمد من المعركة بفترة وجيزة جداً يقتله الإسرائيليون . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن حبها لا يمكن أن يقارن بأي شكل بغرام مايك شاتون وراشيل ليف الملتهب في نفس الرواية) (٢) .

ونجد أن بعض الشخصيات العربية الأخرى متزوجة ، ولكن اهتمام يوسف البريق بوصول أحدث راقصة لبنانية إلى القاهرة (« في وسط الأسود » ، ص ٢٣) هو تعليق كاف على طبيعة هذه الزيجات . ان الاتجاه السائد في هذه الروايات هو تصوير حياة العرب الجنسية بأنها – أكانت ضمن الزواج أو خارجه – لا حب فيها ؛ فالجنس بالنسبة للإنسان العربي ذو طبيعة تجارية أو شاذة أو كلتيهما معاً .

في « الخروج » يقع كل من كمال وابنه طه في الحب . ولكن لا يستطيع أي منهما أن يحقق حبه ؛ وفي الحالتين ، النتيجة مأساوية . ولكن رغم أن حب كل منهما ينتهي بالفشل فان مجرد شعورهما بعاطفة الحب أمر له أهميته . ولكن من جهة أخرى ، كون أن كمال يقدم للقارىء على أنه عربي نادر المثال إلى حد كبير وأن طه يرافق آري بن كنعان منذ نشأته (أي أنه بعبارة أخرى يتعرض لتأثير يهودي كبير) يوضح أن حالتيهما هما حالتان استثنائيتان لا يمكن تعميمها .

ومن جهة أخرى فإن امرأتين عربيتين هما لوسيل في « موسم الشك » وإميلي في « برج بابل » تقعان أيضاً في الحب . ولكن هاتين الحالتين هما حالتان استثنائيتان كما يدل اسما الفتاتين ؛ فهما نصف عربيتين فقط ، والنصف الآخر هو فرنسي في الحالتين . (ويجب أيضاً أن نأخذ كونهما مسيحيتين بعين الاعتبار ، ففي قاموس هذه الأعمال الروائية ، المسيحي ليس عربياً تماماً – أو على الأقل هو غير صالح كممثل للعرب) . ونقطة أخرى ذات أهمية أن لوسيل تعاني من أزمة هوية ؛ فهي قادرة على أن تنظر لنفسها على أنها عربية ، باعتبار أن

---

(١) لاحظ أن طبري – وهو عربي – هو الشخصية التي يختارها متشر للتعبير عن وجهة النظر هذه . بينما يصور الياف على أنه أكثر احتشاماً بكثير ، ويجد كلينين الحديث « مشيناً » . هذه المواقف للشخصيات المختلفة هي أحدى المحاولات لاعطاء طابع « الموضوعية » في هذه الروايات .

(٢) كذلك ارجع إلى ص ٣٥٤ .

أمها هي امرأة فرنسية يهودية (« موسم الشك » ، ص ٦٠ و ١٢٢ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٥٦) ومن جانب آخر فان حب اميلي – رغم أنه يتحقق – ينتهي نهاية مأساوية . وبالإضافة لذلك فانه بالرغم من أن الشخص الذي تحبه هو عراقي عربي فانه في الوقت ذاته يهودي يعتنق الصهيونية .

أما العربي الذي يصلح كممثل للعرب بشكل عام مثل العقيد ماريك (كذا !) في « موسم الشك » فانه يجد أنه « من الأسهل بكثير أن يبغض من أن يحب » (ص ٢٠٢) .

ويتبدى كلا الطابعين الشاذ والتجاري للحياة الجنسية العربية هو مثال فرج طبري في رواية « الينبوع » الذي ذكر آنفاً . ففرج يستسلم جنسياً لرئيسه وذلك لكي يكسب مركزاً حكومياً . ونجد في « الخروج » أمثلة توضيحية عدة عن الطابع التجاري . فأحد شيوخ البدو يعرض أن يشتري كيتي فرمونت لقاء ستة جمال (ص ٣٩٧) . ويعرض صبي عربي صوراً بذيئة للبيع على آري بن كنعان في مدينة الناصرة (وتكون كيتي في صحبة آري آنذاك) . وحين يرفض آري فان الصبي يقول : « وربما تعجبك أختي ؟ إنها عذراء » (ص ٣٤٧) . ولكن أفضل مثال هو مثال طه . حين يحاول آري أن يخفف من حدة التوتر السائد بينهما وأن يعيد إحياء الصداقة القديمة ، يقول طه : « إذا كنت أنا أخاك ، أعطني إذن جوردانا (أخت آري) . نعم ، هذا صحيح . . . أعطها لي ودعني آخذها إلى سريري . دعها تحمل أطفالي » (ص ٥٠٦) (١) . وهكذا ، فبالرغم أن طه يحب شقيقة آري ، فانه يستخدمها كبند في صفقة . وادريس جراح في « برج بابل » هو مثال آخر ، رغم أنه مثال مختلف . فكل ليلة ينام ادريس « بسعادة مع أية امرأة في متناوله » (ص ٣٤ – ٣٥) .

في « موسم الشك » ، يلاحظ تانكرد أنه إذا أمسك عربي بيد عربي آخر فيما هما يتمشيان ، فذلك لا يعني بالضرورة أن هناك علاقة جنسية بينهما . ولكن مع ذلك فهو يعتقد أن هناك « قدراً لا بأس به من الشذوذ الجنسي بين عرب المدن » (ص ١٨٣) . والشذوذ الجنسي حسب زعم ايلان الياف وجميل طبري في « الينبوع » هو الذي جمع بين **العرب** والانكليز ضد الصهاينة . ويقول طبري حول هذه النقطة :

كان الكثير من الانكليز الذين أتوا هنا (إلى فلسطين) قد تمتعوا بتجارب من الشذوذ الجنسي . في المدرسة . في الجيش . وكان لديهم ميل مسبق لأن

---

(١) انظر « الخروج » ، ص ٦٠٧ .

ينظروا إلى عربي الصحراء – الذي كانت لديه دائماً ميول مماثلة – بافتتان إن لم يكن بشهوة حقيقية . إذا كان المرء شاذاً يمارس شذوذه ، فإنني أسألك ما الذي يكون أكثر اغواء من علاقة مع عربي يرتدي ملاءة سرير ؟ أنت وهو على جملين تركبان إلى الواحة . وتثور عاصفة ترابية في الصحراء وهناك فقط شجرتا بلح تحميانكما . واحدة لك وواحدة له . رابطة دم وما إلى ذلك . اني أؤكد لك أنه قد حدثت بعض الأشياء المسلية جداً في هذا الجزء من العالم في تلك السنوات . (١) (ص ٩٧٥ – ٩٧٦)

ونجد مثالاً آخر على الجانب الشاذ في ممارسات العرب الجنسية في العلاقة بين رجل سوريا الأول العميد سفر الدين والنقيب شيبيبي في « برج بابل » (ص ٢٨٤ – ٢٨٥) .

٥ ٥ ٥

هناك جوانب عديدة من الحياة العربية والشخصية العربية تتضمنها الصورة التي يرسمها المؤلفون الذين هم قيد البحث . أحد هذه الجوانب هو شخصية ومركز المرأة العربية .

فحسب قول كليري تتصف المرأة العربية بصوت أجش وحين تكون حزينة فان نحيبها هو « أقسى أصوات الحزن . » ويمتاز قوامها بصدر كبير وبوفين عريضين . والنساء العرب اللواتي ينتمين إلى الطبقة الثرية « نظرة هادئة خانعة » في وجوههن (« موسم الشك » ، ص ٤٠ و ٢٧٨ و ١٧٨ و ١٢٨) . والمرأة البدوية قذرة ونتنة الرائحة حسب قول يوريس . وفي أثناء زيارة لمخيم بدوي تلاحظ كيتي بينما هي تنظر فيما حولها أن « النساء تغطيهن حبال وسوداء – وطبقات من الوسخ . لم تصل إلى أنفها رائحة الماعز ولكنها استطاعت أن تشم رائحة النساء » « (الخروج » ، ص ٣٦٦) .

ويفكر جوني رابنسكي في « الخروج » أن وضع النساء العربيات لايحتمل ؛ فهن « يرزحن تحت وطأة العبودية المطلقة ، لا يرين أبداً ، لايسمعن أبداً ، لا يستشرن أبداً » (ص ٢٣٨ – ٢٣٩) . ويؤكد جميل طبري في « الينبوع » هذه الصورة . فبالنسبة للنساء « قال الطبري أن موقف العرب هو أفضل موقف : ولقد قال والدي مرة أنه لم يلبس قط أي حذاء جديد قبل أن يطريه ثلاث مرات على رأس زوجته الرابعة ، » (ص ٣٥٣) .(٤٣)

---

(١) للحصول على مثال ارجع إلى ص ١٢٢ .

ومن الواضح من الصورة التي ذكرت أعلاه عن الحياة الجنسية العربية أن العرب يعتبرون نساءهم مجرد أدوات جنسية . وكنتيجة لهذه النظرة حسبما يقول يوريس ، غالباً ما تسعى النساء إلى « الانتقام السريع والشرير بواسطة الخنجر أو السم » (« الخروج » ، ص ٢٣٩) .

ويختلف هيستون – كما هو الحال غالباً – عن بقية الروائيين في تصويره لمركز المرأة العربية . اذ يعتقد الأب هرزوغ – الناطق بلسانه – أن « المرأة العربية قد تبدو معزولة ومحرومة للعين الغربية العادية ، ولكن فتاة ذكية حيوية مثل ليل تستطيع أن تستخدم نفوذاً كبيراً وراء الكواليس » (« في وسط الأسود » ، ص ٣٨) .

وهناك أيضاً اهتمام خاص بالأقليات المختلفة الموجودة في العالم العربي . وعادة تكون صورة الأقليات أفضل من صورة العرب ، ويبدي المؤلفون (أو شخصياتهم) قدراً أكبر من التعاطف والتفهم نحوهم مما يبدونه نحو العرب ، وكذلك تصور الأقليات بأنها معذبة وتعاني من الشعور بالغربة .

ويذكر هيستون أن الجيش المصري كان يستعين بمستشارين ألمان في حرب السويس (« في وسط الأسود » ، ص ٢٢ و ١٥٣) ، ولكنه لايقوم بادعاء صريح بوجود رابطة بين العرب والنازيين . ولكن المؤلفين الآخرين لا يتورعون عن القيام بمحاولات واضحة للربط أو المقارنة بين العرب والنازيين .

ففي « موسم الشك » يقوم المتظاهرون العرب بمصافحة السواح الألمان المحرجين(ص١٥). ومن الواضح أن المتظاهرين يفكرون بهؤلاء الألمان كنازيين .

وفي « الخروج » يتم « تحالف سعيد » بين مفتي القدس والنازيين الألمان . ويصبح العالم العربي مسرحاً للدعاية الألمانية المعادية لليهود والبريطانيين (ص ٢٧٨) . ويدبر المفتي انقلاباً في العراق تحت رعاية الألمان . وحين يفشل الانقلاب ، فانه يهرب من البلاد .

وقد ذهب هذه المرة إلى ألمانيا حيث حياه أدولف هتلر شخصياً كأخ . وكان بامكان المجنونان أن يستخدم كل منهما الآخر من أجل المنفعة الشخصية المشتركة ، فلقد رأى المفتي في خطط ألمانيا العسكرية فرصة جديدة للحصول على السيطرة على العالم العربي بأكمله . وكان هتلر يحتاج المفتي ليظهر مدى الصداقة الرقيقة الدافئة الموجودة بين العرب والألمان (ص٣٠٩)

وفي « كأس الغضب » نجد أن مستشار مصطفى حسيني الأول هو الهر الرائد هانس فون كروتزر ، الذي كان قد قام بادارة « العمال الذين أداروا أفران القتل » في واحد من معسكرات

الإبادة في بولندا . ويشترك الحسيني وفون كروتزر في أمور كثيرة ، ولكن أهمها هو حقدهما . » ويتذكر القائد العربي بحنين أيام الفوهرر (ص ٢٠٠) .

وكذلك تقام رابطة بين الرئيس عبد الناصر وهتلر . (٤٧) فحين يتم النصر العربي المفترض في « لوخسرت اسرائيل الحرب » فان عبد الناصر يقوم باتمام « عمل هتلر » (٤٨) وتستخدم الحكومة المصرية بعد الحرب بضع مئات من الضباط النازيين ، الذين يلبسون لباس الجيش المصري ويعاملون معاملة « ملوكية » ، ويعهد اليهم بتحقيق هدفين : « أولا ، انقاذ كل ما يمكن انقاذه من ثروة اسرائيل المادية وثانياً اضعاف الوجود اليهودي في فلسطين بأكل وجه ممكن » (« لوخسرت اسرائيل الحرب » ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣) .

ويقوم العرب — كما تصورهم هذه الروايات — فعلا باتمام عمل النازيين . ففي « كوكب الهوا » نجد أن أنا — التي قام النازيون بقتل زوجها — تفقد ابنتها ثم تقتل هي أيضاً ؛ والعرب هم القتلة في الحالتين . وفي « الخروج » يفقد دوف — الذي أفنى النازيون عائلته بأسرى — فتاته كارن حين يقتلها الفدائيون العرب . وكذلك يقتل العرب ايلانا الياف في « الينبوع » .

وأخيراً يجب الاشارة إلى جانب آخر من صورة العرب وهو الطريقة التي يجب اتباعها في معاملة العرب . ويعطي الجواب — نفس الجواب — كل من أكيفا في « الخروج » (ص٢٣٤) وشولامت في « أحضروا أبنائي من بعيد » (ص ٣٣ و ٤١ — ٤٢) ويهودا ويائيل في « في وسط الأسود » (ص ١٢ — ١٣) : العنف هو اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب . أو حسب تعبير يهودي أمريكي في « لوخسرت اسرائيل الحرب » : « علينا أن نقصف العرب إلى أن يتخوطوا . زوج من القنابل الذرية ، هذا كل ما نحتاجه » (ص ١٨١) .

° ° °

ان صورة العرب المعروضة هنا هي تركيب لما نجده في مختلف الروايات التي يتناولها هذا البحث ، وقد يعني هذا أن هذه الصورة هي أكثر شمولا مما يرد في بعض هذه الروايات . ولكن من جهة أخرى الأمثلة المذكورة في هذا المقال هي أمثلة منتقاة وتشكل فقط جزءاً مما تحفل به هذه الأعمال الروائية . ولقد كان بالإمكان اختصار هذه الصورة إلى ثلث حجمها الحالي أو أقل ، ولكن لابد أن هناك قيمة في التفصيل وما يعطيه من انطباع صحيح عن سهولة العثور على الأمثلة المناسبة في الروايات وسهولة تصنيف هذه الأمثلة بحيث تشمل النواحي المختلفة للشخصية العربية والمجتمع العربي ، وهذه القيمة هي في الصورة الصحيحة التي تتشكل

لدى القارىء عن عدم تورع كتاب هذه الروايات عن ذكر أي شيء يسيء إلى سمعة العرب وصورتهم لدى القارىء الغربي .

وصورة العرب هذه تتمم حجة التفوق . فبسبب « مستواه الأدنى » و « تخلفه » يخسر العربي حقه في فلسطين حسب ادعاء هذه الحجة ، وبالإضافة إلى ذلك فان الصهاينة – بسبب « تقدمهم وانجازاتهم غير العادية » – لا يبنون فقط « حقهم » في الأرض وانما يشكلون أيضاً الوسيلة الوحيدة « لتحسين » وضع العرب .

السؤال بالطبع هو : ما هو مدى سلامة الأسس التي ترتكز عليها هذه الحجة ؟ والإجابة عن هذا السؤال هي موضوع المقال الثالث في هذه السلسلة .

قرنفلة للمطر القادم خلسة

شعر: فايز خضور

إنها تُمطر الآنَ ، ألمحُ جثّةَ أرضٍ ،

تُفكفكُ أزرارَ قمصانها :

عروةً ، عروةً

تتعرّى ،

وتمنح للبَرْدِ قُنْبُلَتَيْ صدرها .

من تُرى داهم الكونَ . ؟ ! .

من فجّر الكونَ . ؟ !

مـــنْ . . . .

إنها تمطر الآن .
حاولت أركضُ .
« بيتُ نزوحي بعيدٌ »
تباطأتُ ،
قلت أهرولُ . ؟ !
« حرَّ دمي هاجسٌ
بكَنْبلَ الحُلْمَ . »
قُبُحُ الأزمة أفقدني البت
« حرَّ دمي هاجسٌ
هاجسٌ لَنحَ . لحَّ . ألحَّ . . »
استفقت
تبللت ،
كِدتُ أضيعُ مع الدمعِ ،
أشرُدُ .
كدتُ أهلِّل للغيثِ
« حرَّ دمي هاجس .
هدَّدَ الجسدَ المستجيرَ من الفيض بالفيضِ » .
ساومَ ،
قايضتُ ،
عربدَ ،
ألحتُ .
أزبدَ ، أرغي .

تجالفتُ .
صرَّ
تماديتُ ، أصررتُ .
قهقهَ ،
قهقهتُ .
صالحَ ،
كابرتُ .
راوغَ ،
أفصحتُ . .
أقبلَ خصمٌ يوشوشني :
ـ إنه الموتُ . .
كيفَ . ؟ !
ـ هو الموتُ . .
لابدَّ . ؟ !
ـ لابدَّ . ؟ !
ها . . إنها تمطر الآنَ .
والموتُ يحبو
بطيئاً ،
بطيئاً إلى قلب محبوبتي .
يستبي عشقها .
يختلي باللبونة .
كالكحل ، لونُ دمي صار :
حزناً على الوردِ ،

كيف يموت مع الصبحِ
في أول العُمْرِ .
« هل ينفع العرسُ . ؟ ! »
والدمعُ يهطل حبراً
وعِقداً ،
وخاتَم َ نَسْلٍ .
أيصبح عتماً على الوجه . ؟ !
« حمحمةُ الخيل تزدادُ . »
ألمحُ كلَّ المناديل ، لوَّاحةً .
لمن العرس . ؟ !
« حمحمةُ الخيل تزدادُ
تمتدُّ ، تمتدُّ »
مِن أي جرح أتى الزحفُ . ؟ !
زيُّ المحبينَ أصبحَ ليلاً .
وأصبحتُ . . . أصبحتُ . . . .
ما عدتُ أدري . .
« هي الريحُ تسألُ عن صوتها »
إنها تمطر الآن . . صمتاً .
« هي الريح تسأل عن أختها . »
« هل أبوح بسرِّ الفضيحة للريح .؟! »
يصعبُ أن أستبيحَ المودَّةَ .
— جفَّ دمي —

« كان يغلي ،
زماناً على العشقِ ،
يغلي دمي . »
إنها تمطر الآنَ .
والخيلُ تسري ،
مع الموت ، في رحلة بارده . . ! !
إنها تمطر الآنَ ، يازغردات المآتمِ ،
شيئاً من الصمتِ . . .
« أسرفتَ . .
لا . . لا . . .
قليلاً ، قليلاً »
هو الموت في موكبِ الخصبِ ،
أقبلَ يسألُ ، عن أولياءِ المساكينِ .
يَلْبَسُ مَجدُ جلالتهِ :
مُشرقَ الوجهِ
جاءَ يتيهُ بمئزرِ هيبتهِ
يتبخترُ .
لاتُقلقوا رَهْزَ مهمازهِ الحلوِ :
تأتيه كلُّ البكارات ، طَمّاحةً بالفحولةِ . .
يا زغرداتِ الولائمِ ،
شيئاً من الصمتِ . .
« بالغت ، لا . . لا . .

قليلاً ، قليلاً . »
دنا قَصْدُ محبوبتي
جاء هودجُ محبوبتي :
« إنها تدخل الآنَ طَقْسَ ولادتها
إنها .. إنَّ . . . .
أعرفُ جَرْسَ خلاخيلها
إنها تخلع الآن عهْدَ خطيئتها ،
إنها تشرب الوهْجَ ،
ها . . . إنها . . . إنها . . .»
إنها تمطر الآنَ .
يا حداسُ حدِّق مع القافلهْ .

إنها تمطر الآنَ ، أسمعُ صوتَ المؤذنِ

بالناس ، للنومِ
لاتقْرَبوا الصحوَ ،
هذا أوانُ الولادةِ بالوهمِ
هذا أوا . . . . . .
إنها . . . .
إنها لم تعد تُمطر الآنَ . ! !
يا عُشْبُ . نَمْ كاسِفَ البالِ ،
حانَ قِطافُ الرمادْ . . .

إنّها لم تعد تُمطرُ الآن

يا جوعُ أطْنِبْ خيامَكَ ،

يا موتُ ،
أدعو لجمرِكَ عُمْرَ البقاءْ .

لم تعد تُمطر الآنَ ،

يا بَهْجَةَ العُرْسِ
محبوبتي .
إنها . .
إن محبوبتي لم تعدْ .
إنها . . . إنها . . . إنها . . .

كانون الثاني ١٩٧٥

* * *

قصص شعرية قصيرة جداً

هذه محاولة لا تشبه ما نسميه عادة بالانطباع الشعري الخاطف الذي نركزه في مقطع. هذه مقاطع من نوع آخر، يشكل كل منها نواة قصة قصيرة ذات أحداث وعقدة وخاتمة. ولماذا لا أقول قصة قصيرة كاملة إذاً ولكنها قصيرة جداً! . لا أدري على وجه الدقة متى بدأت أفكر بهذا النوع من الشعر، فأنا أكتب القصة والشعر معاً منذ بدأت الكتابة. وكنت أفصل بين ما هو صالح للقصة وبين ما هو صالح للشعر وإن كانت تتداخل الاشياء في بعض الاحيان. ولقد بدأت الاحظ منذ زمن طويل أن ثمة أحداثاً يشاهدها الأنسان أو يعيشها لا تكفي لصنع قصة بالمعنى الدقيق للكلمة. إنها مجرد أحداث عابرة نمر بها مسرعين ولكنها تلفت نظرنا مع ذلك وتؤثر فينا تأثيراً بالغاً، فإذا لم تكن قصة كاملة فإنها تبدو بداية قصة أو مشروعاً مثيراً لها. وكأن كتابتها دعوة للناس أن ينتبهوا أكثر لما يصادفهم في الطريق وأن يروا أبعد مما يروه عادة في المناظر المألوفة التي يمرون بها.

كنت أسجل هذه المشاهدات بشكل خواطر وغالباً ما كنت أكتفي بالاحتفاظ بها في أعماق الذاكرة، وما أكثر ما نسيت منها وما ضاع!.. ومنذ أمد غير بعيد عدت اليها

شوقي بغدادي

بتشكيل جديد . لماذا أبقي هذه الأشياء تائهة لا هوية لها . لماذا لا أعيد كتابتها بشكل أفضل ، ولماذا لا يتم ذلك شعراً ؟.. وهكذا بدأت . .

لم أكن أعبأ بالغوص في التصوير أو التحليل وانتقاء اللغة التي يسمونها عادة شاعرية . كنت أكتب وأنا أعتقد أن تسجيل الموقف بدقة وتركيز عمل أكثر صعوبة من الجموح في الخيال واختيار العبارات المجنحة . فأن تروي في كلمات محدودة قصة موقف إنساني مؤثر مركزاً على بؤرة النور الأساسية طارحاً جانباً كل ما هو ثانوي عمل في غاية الصعوبة . إن الاغراء بالانقياد للوصف والتفصيلات الكثيرة والصور المتعددة جانب قوي ، ولكن الاستسلام لهذا الاغراء كان سيخرج بي عن أداء النوع المقصود في الملحمة الشعرية القصصية إلى قصة مفصلة وعندها يبدو لي أن الدور الحقيقي يكون للنثر لا للشعر .

وبعد فأنا لا أدري تماماً ماذا أسمي هذا النوع من الكتابة . هل كان من الأفضل أن أروي هذه الأحداث في نثر عادي سهل أم في هذا الشكل الشعري البسيط . أيهما كان الأفضل ؟ . لا أستطيع أن أجزم الآن : إنها محاولة كما قلت ، وما دام الأمر كذلك فلا بد من الانتظار قليلا حتى أجد الإجابة الصحيحة على سؤالي المطروح .

العابر الذي لا يرفع رأسه

تسألني الحديقةُ القريبة :
جميعُ من يمرّ بي
يرنو لأشجاري
يشمّ أزهاري
إلاّ غريباً عابراً
يمرّ في الذهاب مطرقاً
وفي الإيابِ مرهقاً
بخاطرٍ كسيرْ
ترى ألا يرى جمالي النضيرْ
أجبتُها مطمئناً :
بلى يرى ، لكنّهُ فقير

• • •

المجنون

كانوا جميعاً يركضونْ
إلاّ أنا
كنتُ أسير في سكونْ
أراقب الناس وهم يسعون
في جنونْ
تمهّلت صغيرةٌ قربي

فجرّتها التي إلى جوارها
وهي تقول : إنّه مجنون ! .

• • •

الاغتصاب

مدّ إليها يدهُ
ومسّ شعرها
فهجموا عليه يضربونه
حتى هوى كالميْتْ
فصرختْ
فالتفتوا
يغتصبون الصوتْ

• • •

عصيان الوالدين

كانت الأسرة في النزهةِ
والطقس ربيعْ
فجأةً حطّتْ على قربٍ فراشَهْ
وقف الطفل أمام المنظر الحلوِ
وفي القلب ارتعاشَهْ
صرخَ الأب : إقتنِصْها
غير أن الطفل لم يفعلْ

فطارت من جديدْ
هتفت أمُّ الفتى :
يا للبليد ! .

* * *

الأطفال والحرب

صاح الأطفالُ : هوَتْ
ورأيت جموعَ الناسِ المنطلقةْ
كانت طائرةً محترقةْ
قذفتْ وأصيبتْ
فانتظروا الجاني
واحتشدوا واحتدموا
لكنّ مظلّته سطعت في الشمسِ
فصاحوا . .وابتسموا

* * *

فجر يقطر دماً

كان المكانُ قصياً
وكان صبحاً نقياً
وكانت الأرضُ نشوى
والصمتُ حلواً ، طرياً
وفجأةً ندّ صوتٌ

في الأفقِ كان خفياً
حتى إذا جدَّ أضحى
ناراً ، وصار دوياً
وفرَّ طيرٌ لينجو
لكنَّ طلقاً قوياً
أرداهُ فارتدَّ يشكو
صباحَهُ الدمويا

• • •

ترويض الوحوش

كان الفتى الشريرُ غاضباً
يريدُ أن يخاصمَ الدنيـــا
وكانت الحافلةُ الملأى
تحت الهجير تُحرق الأعصابْ
كان الفتى الشريرُ حائراً
يبحث عن خصمٍ بلا جدوى
ولم تكن تهمّه الأسبابْ
وعندما أحسَّ أنَّ قبضةً
تدفعهُ من خلفْ
أدار كلَّ جسمهِ
يريدُ أن يردَّها بعنفْ
لكنّه رأى أمامه

طفلاً يلاعبُهُ
فمدّ كفّه إلى وجنةِ خصمِهِ
يداعبُهُ . .

• • •

المرآة التي لا تنسى

تململت تنهضُ من سريرها
وفتحت شباكها للشمسِ
ثمّ اغتسلتْ بنورها
كانت وحيدةً
ولم تكن صبيةً صغيرةً
لكنّها في ذلك الصباحِ
لم تذكر سوى سرورها
بالشمسِ
بالسماء
بالدنيا وراء سورِها
وعندما واجهت المرآةَ
أظلمتْ أمامها الدنيا
فقامت تُغلقُ الشبّاكَ
ثم رجعت لترتمي على سريرِها

• • •

الإنتصار

قصة : عادل أبو شنب

مد يده إلى علبة الكبريت الملقاة على المنضدة ، وتناول عوداً من عيدانها ، وأشعله ، فتوهج الرأس المدبب بسرعة مذهلة ، وانطفأ قبل أن يتمكن من إشعال سيجارته التي ضمتها شفتاه منذ أربعين ثانية على الأقل . وشعر بوخزة ضيق صغيرة ، لكنه ، بمكابرة مدروسة ، عاد فتناول عوداً آخر ، ومرّ به على حافة العلبة المطلية بالمادة التي تساعد الكبريت على الاحتراق . . فلم يتوهج بالشعلة الصغيرة المألوفة ، واكتشف أن العود الخشبي الدقيق . . عارٍ تماماً ، لم يتسن لرأسه أن يحمل قبعة الكبريت الحمراء التي كتب عليها ، عادة ، أن تتلاشى إذا ما مست

الحافة المكبرتة الخشنة . وردد بينه وبين نفسه كلمات شبيهة بالهمهمة ، سبّ فيها حظه التعيس . . فها هو ذا عود بعد عود من عيدان الكبريت الضئيلة الشأن . . يتمرد عليه ولا يلبي حاجة من حاجات لحظته هذه .

وداهمه شعور بالكآبة ، أغرقه في بحيرة يأس ، مساحتها ثلاث ثوان لا أكثر ، وسرعان ما استمد من يأسه جرأة جديدة . إن هذا الفشل ليمده بشجاعة الإقدام على مغامرة أخرى مع عود آخر . تحدٍ . . انفجر من قلب الخيبة الممضة ، ليمزق اليأس الصغير ، ويزرع لبنة أمل جديد بالفوز .

وبتأن مشحون بالترقب أخرج عوداً ثالثاً من علبة الكبريت اللا مبالية ، ونظر اليه نظرة متفحصة . ها هو ذا عود شاب ، مكتمل النضج خشبة معافى ، ورأسه أحمر منتفخ ، تتوضع عليه كتلة من الكبريت شبيهة بحبة قمح صغيرة ، وما عليه إلا أن تمسكه جيداً بابهامه وسبابته ، ويحسن المرور به على الحافة المبرغلة . . عندئذ سيكتب للسيجارة المنتظرة أن تحرق تبغها شيئاً فشيئاً ، وترسل دخانها الرمادي المعتاد ، الطيب الرائحة .

. . جزء من ثانية ، وصوت احتكاك الرأس الكبريتي على الحافة الخشنة يحدث في أذنيه ومضة سعادة ، شبيهة بسعادة متسلق الجبل الذي وصل إلى آخر متر قبل القمة . توهج جميل ، والشعلة الحمراء تهوي بغتة ، لكنها تسقط على الأرض ، ويبقى في يده جزء من العود المكسور .

وأيقن ، بفشل محاولته الثالثة ، إنه تعيس للغاية ، وان لحظته المقيتة هذه التي كبرت وأصبح عمرها في نفسه دقيقة سوداء ، لا تمت بصلة إلى عمره كما يجب أن يكون . إنها لحظة مشلولة ، تلاحقت فيها الخيبات الصغيرة ، واحدة بعد أخرى ، وانطفأ أكثر من توقع ، وتهدم أكثر من بناء .

وابتسم ابتسامة كئيبة ، صفرت معها عيناه ، وتلاقى حاجباه الكثان ، وارتسمت على صفحة وجهه خطوط ومغاور وأخاديد ، وخيل اليه أن لحظة الإخفاق تلك قد أضافت إلى همومه هماً آخر ، تافهاً ، غير مرئي ، وإحساساً بالكبر ما كان ليحس به على هذا النحو ، لو أن المحاولة نجحت والسيجارة توهجت .

ليس لبئر القنوط قرار . الماء ذرات من الشماتة المثيرة للأعصاب ، وهو الغارق الذي لا يحسن العوم إلا قليلا ، يعرف أن المحاولة الأخيرة للنجاة ، إن لم يكتب لها النجاح ، ستقوده إلى ميتة باردة مهينة ونهائية ، ولقد تردد كثيراً ، عشرات الثواني ، قبل أن يتخذ القرار الحاسم . لن يجعل كل محاولة . . أخيرة ، ومن قلب كل محاولة سيحاول من جديد ، وسيمد يده ليلتقط عوداً بعد عود . إنه إن لم يحاول ويحاول . . يكون قد حكم على نفسه ، كانسان ، بالاعدام قبل أن يموت .

وتناول العود الرابع ، كان كسابقيه . وثبته بين سبابته وابهامه ، ومر به على حافة العلبة بتأنٍ ، ولكن بتصميم ، وتوهج الرأس المتدور بشعلة تبدل لونها عشرات المرات خلال ثانيتين ، ثم هدأت لتصبح ناراً شهية تأكل العود شيئاً فشيئاً .

ونظر إلى النار التي كانت تأتي على الجسد الخشبي النحيل من أعلى قمم انتصاره ، وابتسم ابتسامة خبيثة كبيرة ، وشعر كأن له ذيل طاووس . . وأشعل السيجارة التي ملت هي الأخرى من انتظار لا جدوى منه ، ودخلت إلى أنفه رائحة التبغ المحروق ، فشعر بارتياح مضيء . كان كمن يخرج من بئر بعد صراع مميت مع المياه الباردة الشامتة !

* * *

الحرب في بر مصر

قصة : يوسف القعيد

– ياسادة ياكرام ، ما يحلى الكلام ، الا بذكر النبي ، عليه الصلاة والسلام .

– صلى الله عليه وسلم .

قال الراوي :

، قلنا في الحماسة :

– الشجاعة هي مضاء العزيمة ، والجبن هو

التخاذل ، وان من يرتد وهو على الحدود جبان حقا ، وعندما يكون الانسان ماضي العزيمة في وجه الأسود ، فإنه يأخذ في الهجوم ، أما اذا تخاذل ، فإنه يولي مدبراً .وقلنا في الفخر :

ــ لقد جعلنا تخوم بلادنا ، ابعد مما وصل إليه الأجداد ، لقد زدنا في مساحة ما ورثناه ، نهاجم من يهاجمنا حسب ما تقتضيه الأحوال .

والرجل الذي يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه عليه ، يقوي قلب العدو .

نحن طموحون لإحراز النصر ، وفي البلاد التي غزوناها ، أسرنا نساءهم ، وشنقنا رعاياهم ، وذبحنا ثيرانهم ، وحصدنا زرعهم .

وقلنا من الحكم والأمثال :

ــ الأسد ، أسد وإن كلت مخالبه .

° ° °

الوصلة الأولى :

قال الراوي :

ــ ما أصعب أن تحكي قصة عن واقعة ما نزال نعيشها ، الحدث طازج ، والحكاية معلقة في مآقي العيون ، مكتوبة على الجباه ، والجرح قائم سواء تكلمنا ، أم رشفنا من كوب الصمت المكسور. ما حدث قد حدث،مرت عليه أيام وأسابيع وشهور . وأصبح قبوله جزءاً ثابتاً من طبيعة كل رجل منا.الأمر كله صعب، من صعوبة الموت نفسه . حاولنا أن نتكلم ، سبحنا في

بحار الكلمات . وعامت الألفاظ في مياه اللغة ، أدرنا البصر في كل الاتجاهات ، سجلنا اكتشافاتنا المدهشة ، حدقنا في وجوه بعضنا البعض ، بدا لنا الأمر مخيفاً لدرجة الرعب وعدم التصديق . ما حدث كلنا نعرفه، عشناه ، تنفسناه مع نسمات الهواء المعفرة بالهوان ، وأثناء في انطفاءة شمس الصباح الخريفية ، قرأناه على وجوه طيور السمان التي تحط على شواطيء بحارنا الشمالية ، سمعناه في وشوشات النخيل ، ورشيش أوراق الشجر ، اكتشفنا أن أيامنا مثقلة بالجراح ، وأن دلتا نهر النيل ، امرأة تفتح فخذيها لكل عابر سبيل .

قال أحدهم :

– كان خذلا نا من الله .

وقال آخر :

– لقد نفذ القضاء والقدر .

وقفنا ، وكان الليل قد شاخت ملامحه ، وكان سواده قد استقر في النفوس . قلنا ، ما زالت الأيام تبدي لنا العجائب . قررنا أن هذه الأمور كلها غير صالحة . إن الأيام تمر ، وبمرورها تندمل الجراح ، وتجف قطرات الدمع على الخدود . العالم بحر ، كله بحر ، وجسر الخلاص نسفت جذوره ، أضحى حطاماً ، قطع خشب متناثرة . والموج لا يحمل سوى أخبار حزينة . وطار طائر الشوق . ومن الجو سمعنا مرثياته . ضاعت الأرض ، ومات الشباب ، وأصبح الهوان مباحاً ، والحال على أسوأ ما يكون . استقرت الكلمات تحت قشرة الوعي الرقيقة ، استدارت المعاني في الأذهان . وفي آخر الليل ، قال الراوي :

– كان ذلك ، مما جرت به الأقدار ، والحكم لله الواحد القهار .

قال الراوي :

– لا أطلب سوى الصدق فيما سأحكيه هذه الليلة . الحكاية ، ككل الحكايات ، لا بد وأن يكون لها بداية ووسط ونهاية ، ولحظة حاسمة تصل فيها الأحداث إلى الذروة ، ثم تأتي النهاية . والحكاية لها بطل ، يجسد الشوق والحنين والعقل ، وأشخاص تدور حول البطل . كما وأن الحكاية ، تحدث خلال زمان معين وعلى أرض محددة . غير أن حكايتنا ، حدثت بغتة ، مرة واحدة ، وفي أكثر من مكان . ومن الصعب تحديد زمان محدد حدثت خلاله .

مصري قر الدولة الضهراوي ، من الضهرية .

ترك وحدته هارباً ، وحضر إلى قريته .

هذه هي كل أحداث حكايتنا الليلة . إنها حدث وليست حكاية ، غير أنه حدث له أهميته التي تفوق كل ما حكيناه من قبل ، إنها ليست حكاية عشق من سالف العصر والأوان ، وليست درساً عن كيد النسوان في عصرنا الحاضر . إنها شيء آخر ، فيه الغربة والحنين والتوق والهمس والجنون . فيها ما حدث ، وما يحدث ، وما قد تلده لنا الأيام الحبلى بكل عجيب وغريب .

ذات مساء حضر مصري إلى الضهرية .

لم يكن في حضوره ما يوحي بشيء غريب . نزل من السيارة الأجرة على الجسر ، سلم ، رمى نفسه في الأحضان التي رحبت به « وحشتوني والله». قبَّل أهل بلده . مسح غربته في عيونهم ، وغسل الهم والانتظار والترقب في نظرات أهل بلدته . في المنزل قبل يد أبيه وأمه . سلم على أخوته الصغـــار . شم رائحة التراب في الحجرة الصغيرة . وعبق أنفه برائحة الخشب المسوس . سأل عن الصحة والحسال . قالوا له أسماء من ماتوا ، فطلب لهم الرحمة من رب العباد . ومن أقعدهم المرض الأخير عن بيوتهم ، فتمنى لهم الشفاء أو الموت . سألوه ، ألم يأن أوان تسريحه من العسكرية بعد . الغربة كاوية لاذعة . الغربة تذكر بأن السعادات الصغيرة ، يمكن أن تهدم في أي لحظة خاطفة ، والشوق زاد عن حده ، والأيام استطالت ، ولا من أمل . قال لهم ، ان الأوان لم يأن بعد . سألهم عن الأرض والزرع والماشية ، اشتكوا سوء الحال . قال في نفسه ، ان الداخل يساوي الخارج . سوء الحال موزع بالعدل . وهمس : فليكن لنا من العدل ، كل الأمل والعزاء . وبعد أن لف الكلام ودار . وبدأ الليل يخبر عن آخره ، وبدأ جو وسط الدار ، مثقلا برائحة اختمار أرض الزريبة ببول الماشية ، تنحنح أبوه :

– يا مرحب يا مصري ، والا جازة كام يوم إن شاء الله .

– لأ دي مش إجازة .

– أمال إيه ؟

ببساطة ، ودون اللجوء إلى ألفاظ نبيلة كبيرة الحجم ، وبإحساس طازج ، قال لهم ، إنه هرب من وحدته . ان الجميع يبدون الآن ، كأنهم صور مرسومة على حائط القاعة . عيون تدور في محاجر بلا رموش . أن الصمت يزحم المسافات ، وثمة تساؤلات في الفراغات الصغيرة ، وثمة كلمات جفت على الألسنة والشفاه وبقيت تعاني في النفوس . قال أبوه:

– إنما ليه كدا يا مصري .

وقف مصري ، بدا طويلاً لحد السقف الأسود . أدار عينيه في الجالسين ، وتقطعت خيوط النظرات بينهم ، فأحس كل منهم ، أنه ضعيف لحد الموت :

– الأمر لله ، من قبل ، ومن بعد .

الحكاية طويلة .

خرج مصري من الحجرة ، وكان والده يطحن الألفاظ تحت أسنانه ، قبل النطق بها .

– بكره الصباح رباح .

° ° °

مصري قمر الدولة : لم يكن هناك من حل سوى العودة

العمـــدة : لا بد من عودته ، طوعاً أو كراهية ، إلى وحدته ، ليكون عبرة لمن يعتبر .

قمر الدولة الضهراوي : كثير ما أعرفه عن ابني .

رجل من أهل البلد : قليل مانعرفه نحن أهل البلد، عن حكاية مصري .

امـام المسجد : هذا زمن العجائب السبع .

نشرة : مطلوب البحث عن :

الاســــم : مصري قمر الدولة الضهراوي

العنوان : الضهرية ، مركز إيتاي البارود – بحيرة .

تاريخ الهروب :

الصفات الجسمية : اللون : أسمر .

الطول : ١٢٠ سنتيمتر

لون العينين : عسلية .

لون الشعر : بني غامق .

حكاية :

سمعت أنه حدث في قرية نكلا العنب ، مركز ايتاي البارود ، منذ عشرين عاماً أو يزيد، أن سافر شاب صغير إلى وحدته ، كانت الأيام أيام حرب . ودعوه ذات مساء . لوحت الأيادي في الفضاء المعتم . وامتلأت الصدور بعواطف الحنين واللوعة والحزن . غير أنه ذهب ولم يعد . في اليوم المحدد لإجازته ، لم يعد . في اليوم الثاني ، تساءل أهله عن مصيره . في اليوم الثالث . ذهب شقيقه الأصغر ، إلى وكيل مكتب البريد . سأله عن خطاب باسم والده . سمع وكيل المكتب ، مقالة الطفل الحزين ، راجع الخطابات أمامه . وقال له : لأ يا ابني ما فيش . وفي اليوم الرابع . ذهب طفل صغير ، بن خطاب مكتوب على مظروفه الخارجي ، بقلم كوبيا وبخط رديء . بريد حربي ، الوحدة رقم ، حماله بريد رقم ، يصل ويسلم ليد ابننا العزيز ،حضرة العريف .

غير أنه لم يعد ، أبداً لم يعد . لم تنفرج لحظة الا نتظار القاسية . عن ملامح وجهه المجهدة . وعرف أهله بعد ذلك أنه استشهد في الحرب . مات كتلة واحدة . موتاً بطيئاً . لم يكن يشعر بخوف ولا بترقب . بل بحب استطلاع لما سيلقاه . ثم واجه الشحوب النهائي . كتلة من العذاب والغربة والآمال واللحم والدم . مات وفي ذهنه صورة باهته ، تعشش في خياله ، عن بلاد لم يذهب اليها ، وسفرات لم يقم بها ، وأشياء لم يفعلها . وأغمض عينيه ، على صدره لحم بشري ودماء حمراء. ورمال صحراء لا نهائية . تتدلى فوقها سماء زرقاء صافية . كانت لهذا الشاب زوجة وطفلان . وعرفت أن الزوجة ، رفضت أن تصدق أن رجلها قد مات . وكان يحدث في كل ليلة ، حين يمر قطار آخر الليل ، ان كان القطار يتوقف . ان صوت اصطدام عرباته ببعضها البعض . يملأ رحابه الليل . وفي كل ليلة ، كان الشاب ، الحاضر الغائب ، ينزل ، يهيم على وجهه ، يدور حول البلد بكل ما فيها . وفي نقطة معينة ، مكان لا تخطئه العين ولا القلب . كان ينزل . انه منزل زوجته واولاده . يجلس بينهم ، يتحدث معهم . يحمل لهم بين يديه النورانيتين كل ما يطلبونه . الزاد والحلم والأمل وطريق الخلا ص .

وعند حلول الفجر ، كان يرحل ، دائماً يرحل .

غير أنه منذ فترة ، انقطعت عادته . ولم يحضر لزيارة الزوجة والأبناء . قيل أنه غير راض" عما يحدث . وقيل انه غاضب ، وقيل انه مشغول في حرب أخرى . وقيل انه يبكي ،

الزاد قليل ، والجليب بعيد ، والطريق طويل ، بطول العمر ، فما العمل يا حبيبي . وقيل، وقيل. ثم ، حكايتنا حزينة الختام . فعذرة .

الوصلة الثانية :

قال الراوي :

حكاية مصري لم تنته بعد . مصري من الفهرين ، يذهب ، يروح ، يجيء ، ينام ، يصحو ، تتسرب أيامه ببطء ، ومصري في صمته ، ينسى أحياناً . ان موضوعه . كان ولا يزال أهم الموضوعات في البلد كلها . ان مصري يبدو للناس ، كما لو كان ينتظر حدوث حدث ما . الأيام تمر ، ومصري لم يعد إلى وحدته . تلك هي القصة كلها . أولها هو آخرها . واللحظة الحاسمة التي تصل فيها الأحداث إلى الذروة لم تحدث بعد . غير اننا نستطيع ان نختم حكاية مصري الآن .

سيدور مصري ويلف في البلد كلها. وذات مساء، ستحضر سيارة حكومية. فيها شرطي. ومخبر ومرشد من أهل الناحية . يبدهم طلباً بالقبض عليه . ويهرب مصري . وتلك هي اللحظة التي ينتظرها الجميع . ومن الحقول البعيدة ، والبيوت المهجورة والسواقي القديمة التي علاها الصدأ . سيقضي مصري فترة من الوقت . وقد تستمر المطاردة اياماً كثيرة . غير أن النهاية معروفة . لا أحد يستطيع الهرب من الحكومة . سيتم القبض على مصري ، ويوضع في السجن . هرب من الميدان في زمن الحرب . لذا وجب معاقبته بالبند كذا ، والبند كذا . سيحاكم مصري.

الحكاية مرة ، ثقيلة على اللسان والأذن والقلب .

ان جلساء الراوي يرفعون رؤوسهم ، فتبدو كسنابل عجفاء . في العيون تساؤل ، وعلى الشفاه كلمات يزحم بعضها البعض . والحيرة تملأ الهواء . اين الخطأ وأين الصواب . الأمر صعب عزيز على الفهم . ان مصري يقول عندما يثار الموضوع ، ان ما يعرفه الناس عن الأمر صحيح ، ومن يده في النار ، ليس كمن يده في الماء .

سكت الراوي . جالت عيناه في الرجال حوله . تمثل الرجال في صمتهم القصير معاني الحرب والدمار والموت ، أثقلت الجلسة على الجفون ، فانسكبت نظرات العيون على الصدور . الرجال يتكلمون ، والراوي ينظر لهم وهو صامت . إنه يتحسر على ليال مضت ، كان الحديث فيها يخرس الرجال . ابو زيد الهلالي ، والزناتي خليفة ، والشاطر حسن والصحاري.

السبع ، ليالي الأبطال المسحورين والانتظار والترقب ، انه يتذكر الآن ، لمعان عيون الرجال ، غير انه لا يجد ما يقوله . كل ما عنده قاله لهم . الليل يمضي ، والرجال يتكلمون ، فتتدفق الكلمات مسرعة ، وتتزاحم على الشفاه . والأذن لا تستطيع ان تلتقط حرفاً واحداً مما يقوله الرجال .

قمر الدولة الضهراوي :

استيقظ قمر الدولة ، من نومه مبكراً كعادته ، وقف في منتصف غرفة نومه . خلع الجلباب القديم ، الذي كان ينام به ، ارتدى ملابس كل يوم ، القميص الداخلي ، السروال ، الصديري ، الجلباب . علامات الصباح الأولى . صاح ديك في منزل مجاور ، ناشراً الفزع والاضطراب بين باقي ديكة البلد . صوت محبب تألفه الأذن ، يمر في الحواري ساعة الفجر « الصلاة خير من النوم » ، ان النسائم الباردة الرطبة ، التي تهب من الناحية البحرية ، تذكر قمر الدولة . بأن الشتاء أصبح قريباً منه . وما أن يتذكر أن الشتاء على الأبواب ، حتى يستشعر لذة الدفء في القاعات المغلقة ، وحلاوة منظر وهج النار في بطن الفرن . فيقرر لنفسه ، بطريقة بالغة البساطة ، أن الحياة ما زالت بها بعض المسرات التي لم يعشها بعد . انه يذهب الى الجامع ، يقضي حاجته ، يتوضأ ، يصلي الفجر والصبح ، انه يقف على عتبة الجامع ، البيت والحواري تبدو الآن واضحة . انه الصباح اذن . قمر الدولة يعود الى منزله ـ في المنزل يفطر ، لقيمات مكسورة في جفاف ايامه . يشرب شاية ، يرص كرمي معسل على الجوزة . قمر الدولة في طريق ذهابه الى الحقل . وعندما ترتمي نظراته على اتساع الحقول . فإن نفسه تجيش بمقطع من أغنية قديمة . انه يغنيها لنفسه . وقد ينسى ، فيرتفع صوته عالياً . وتتحول الكلمات الخافتة ، الى نغمة اشتياق تسعد نفسه . ان قمر الدولة يبدو ساهماً . الرجل يفكر ـ وعندما نحاول الاقتراب من تفكيره ، نكون قد دخلنا ركناً مظلماً . ولو سألناه ، في أي الأمور يفكر ، لرفض الإجابة ، واستنكر السؤال . قمر الدولة ، في هذا الصباح الرطب من شهر اكتوبر سنة ١٩٧١ . أثناء ذهابه إلى حقله ، كانت هناك جملة من الأمور متداخلة في ذهنه . كان موضوع مصري ، هو أهم هذه الموضوعات . لقد فكر قمر الدولة في هذا الموضوع كثيراً . وما يدهشه ، كلما فكر في ابنيه ، هو عقله . ان سراً ما ، لا يفهمه قد حدث بالنسبة لمصري . على هذا النحو فكر قمر الدولة ، غير أنه في نقطة معينة ، كان يتوقف . عندما يطرح على نفسه السؤال التالي : هل أخطأ مصري . ان قمر الدولة تبدو على ملامح وجهه الخارجية ، علامات مميزة .

تقلصات ، سهوم في نظره ، حركة مفاجئة من أصابع يده . لقد سمع منذ أكثر من يومين، من أحد الشبان، أثناء مروره من الشارع الرئيسي،أن مافعلهمصري كان شيئاًمخزياً . انه يتذكر الآن الكلمة . غير انهيعترف بينه وبين نفسه ، انه لم يفهم معناها . غير أن الصمت الذي أعقب الكلمة . افهمه النظرة ، ان الكلمة نوع من الشتيمة . وقر الدولة عندما يصل الى هذه النقطة ، يفضل أن ينصرف إلى موضوع آخر . في هذا الصباح ، قرر قر الدولة، أن يذهب إلى الحقل . يربط البهائم بجوار الساقية . يحضر لها الأكل . وبعد هذا سيخطف رجله ، يذهب إلى الوحدة المجمعة . وهناك يختلي بحضرة الناظر ، يسأله المشورة في الأمر . ان قر الدولة يبدو للناظر هكذا . في المقدمة ، تسير جاموسته . في المنتصف يسير قر الدولة على قدميه . خلفه بقرة . وخلف البقرة حمارة كبيرة . يركب فوقها أصغر أبنائه . وبين أقدام الجميع ماعز صغيره .لقد أحس قر الدولة بالارتياح عندما قرر ان يذهب إلى الناظر . انه يرفع رأسه ، يستنشق هواء الصباح الطري بملء رئتيه . ثم يفكر في أمور أخرى . عند مروره على العمارات التي يسكنها اغنى أهل البلد . تمنى أن تتساوى الأمرر ، وتتقارب المسافات . إنه يهمس لنفسه ، بأن ما يدور في ذهنه ، مجرد تخاريف صباح . حاول أن يغير موضوع تفكيره ، انه ينظر حواليه .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

حاول أن يشغل نفسه . غير أن الأرض على يمينه ، والأرض على يساره ، كانت تناديه . الخضرة زاهية ، والمحصول وافر ، وسمرة الأرض الرصاصية التي تبدو لعينيه من بين عيدان النباتات ، تدغدغ حواسه ، ان ما يشغله انه لا يملك قطعة أرض واحدة . سوى منزله في البلد ، وقبره في الجبانة . أما الأرض التي يزرعها فهي بالإيجار ، والبهائم التي تؤنس وحشته في سيره هذا ، فهي شرك ، له نصفها فقط . حاول أن يقول أن الحال على أسوأ ما يكون ، غير أنه تذكر أن مولانا يطلب منهم في المسجد ، كل صلاة ، ان يشكروا الله على نعمائه ، فحمد الله في سره .

الطريق ما زال طويلاً إلى حقله ، وفراغ الخريف العذب ، ونسماته الباردة ، وانفساح الحقول يجعل قمر الدولة أن يغنى ، وعندما اقترب من حقله ، فكر بمسرات صغيرة ، تقلل من جهامة الحياة وكآبتها في نظره . فكر في أيام الأعياد والمواسم ، وفي يوم السوق ، ومن ليالي الشوق ، ومن نظرات الرجال المبللة بالإحترام ، التي يقابل بها الناس ابنه مصرى من البلد .

توقف على رأس الحقل . انزل أكبر ابنائه من فوق الحمار ، نظر من كل الإتجاهات . كان الصمت يخيم فوق الحقول . قال لنفسه ، ان العليل قد طال به زمن المرض . وان دواؤه موجود ، غير أن الحكيم لم يصرفه له حتى الآن . فى يكون ذلك ، .

أقول لكم ، لايجب ان نلومه ، بل من الواجب علينا ، ان نقرر بكل بساطة الحياة هنا ، ان الذنب ليس ذنبه على اى حال .

الكبار والصغار :

في البدء ، ينبغي لنا جميعاً أن نتعلم ، ان نعرف ، ان نحاول وضع العوالم الخلامية في اذهاننا ، والعواطف الجامحة في صدورنا ، في كلمات محددة . قريتنا كذبابه من شباك عنكبوت ، إاسيرة برمتها لشكل ثابت للحياة والناس . الناس فوق الارض ، ورب العبـاد في السماء . وما كان كان ، ومصائر الناس يقررها الحكام . وقال الله تعالى في كتابه الكريم ، وهو اصدق القائلين ، اطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم .

أدركنا بالفطرة ، ان ثمة شيء ما يحدث . فإزداد اهتمامنا بسماع نشرات الأخبار ، واصبحت الأصابع تمتد إلى مؤشرات الراديو ، كي تسمع المحطة الأجنبية . وسألنا القادمين من البنادر بلهفة عن الأخبار ، وسمعنا آلاف الأخبار ،ورأينا الجرائد في يد الأعيان من ورقتين ، فقالوا أزمة ورق ، وقالوا أزمة أخبار ، فضحكنا من اعماق القلوب المثقلة بالمرارة . وحضر ذات مساء مندوب من المحافظة ، أخذ سيارات الأغنياء ، وقيل امت ، وقيل صودرت ، وقيل تم الإستيلاء عليها مقابل تعويض مالي ، فقلنا فلتكن البداية ، وانتظرنا يوم يأتي إلى بر مصر ، يتساوى فيه الغني والفقير .

— موجز الأنباء .

عندما قالوا طفوا النور ، قلنا لاتوجد لمبة نور في البلد كلها ، وعندما طلبوا منا دهان الشبابيك باللون الأزرق . فتشنا بالعيون من الجدران ، فلم نجد سوى طيقان صغيرة . البيوت في بلدتنا بنيت طلباً للستر ، من أجل منع العيون من فضح ما بداخل البيوت .

ذهب إلى الحرب فلان وفلان وفلان وفلان . سمعنا البيانات . رسائل الجنود للاهل والأحباب في بريد الأذاعة . وسمعت الآذان كلمات جديدة . اعلان حالة الطوارىء ، التعبئة العامة،القوات المسلحة المصرية تتراجع إلى خط الدفاع الثاني في محاولة للتجمع والتماسك . اسرائيل العدو المشترك ، الدفاع المقدس . الأرض والعرض . لقد كسب العدو الجولة الأولى

من معركة طويلة . لقد خسرنا المعركة ولكننا لم نهزم . ذلك ان العدو لم يتمكن من فرض ارادته علينا .

— كان هذا هو الموجز .

وإليكم الأنباء بالتفصيل من القاهرة .

نحن اهالي الضهرين ، بحيره . نقول .

ثم كان الصمت والانتظار ، وخلال الانتظار . اصبحت الدقيقة ساعة ، والساعة يوما ، واليوم اسبوعاً ، والاسبوع شهرا والشهر عاما والعام اربعة اعوام كاملة . نحن رجال صموتون ، صبورون ، صبر ايوب مر المذاق . غير انكرامتنا معلقة فوق الجباه . بدلا من الكوفيات والقفاح ، الذي نلف به الوجوه في أيام الشتاء البارد .

— ايها المواطنون .

اليكم هذا النبأ . حدث ان .

ثم كان موضوع مصرى .

ولا ننكر أننا ناقشنا الأمر على المصاطب وفي صحن الجامع وفي الباحة الصغيرة وفي العش مع الراوي . وفي الحقول ، وعلى مدارات السواقي . ناقشه كل واحد مع نفسه على انفراد غير أننا لم نتفق في نهاية الأمر على شيء . قال أحدنا ان مصرى عمل لعبه مع الحكام الكبار في مصر ، وبرطل وأخذ شهادة المعاملة ، وحضر إلى البلد ، ولن يعود إلى الخدمة بعد ذلك . وكل شيء بالقرش . وقال : ان حنك الحكومة مفتوح ، وطالما ان يدك بداخله فكل شيء على ما يرام . وقال آخر : ان قر الدولة قد طلق زوجته ، أم مصرى ، وبالتالي فمن حق مصرى ان يعاف من الخدمة العسكرية ، على اعتبار انه العائل الوحيد لأمه المطلقه . وقالوا ان الطلاق قد تم سراً . وان قر الدولة دفع مبلغاً كبيراً من المال للمأذون نظير ان يتم المشروع . اقسم البعض معاً ، انه شاهد بنفسه ، كشف العيله الذي كتب فيه هذا الكلام . وقال ثالث : ان مصرى في اجازه طويله ، وانه يدفع مبلغاً من المال ، للشاويش في وحدته ، وهو يكتب حضوره يومياً .

— يا عم واكله تخريف .

اللى عمله مصرى ، واخيانه ، مصرى هارب .

قيل لنا ، في هذا المساء ، اننا نعيش في دوله . وان هذه الدولة لابد وان تحترم . وان الدولة ان فقدت هيبتها ، فقد فقدت في نفس الوقت مبرر وجودها . كان المتحدث هو أحد مدرسي المدرسة . قال لنا : انه سيتم القبض على مصرى ، اليوم أو غداً . أو بعد غد . الأمور ليست سائبه . وعند سماعنا لهذه الكلمات . خفنا كلنا من مصرى . الموضوع كله يحيط به الغموض . لقد ارتبط موضوع مصرى بالدولة حسب تعبير المدرس . والكلامه حسب كلا منا نحن . والحكومة في نظرنا نحن الفلاحين البسطاء ، هي المكاتب الكبيرة والعمارات العالية والأبنية الضخمة التي يقف أمامها العساكر في البنادر البعيدة . القطارات السريعة ، وأسلاك التليفونات التي تحفظ بداخلها أخطر الأسرار .

في مساء الأمس . قال مولا نا ، وهو يأمرنا بتسوية الصفوف . ان ما حدث وما يحدث وما سيحدث لمصر . كان مقدراً منذ آلا ف السنين في اللوح المسطور . اكل . وبنا لا نسألك رد القضاء بل اللطف فيه . وقال للرجال ، لو اطلعتم على الغيب لأخذتم الواقع . نظر كل رجل إلى الواقف بجواره ، حدق في وجهه . همس كل منا لنفسه ، بأن ما حدث كان غضباً من الله على بر مصر . وان قضاء أحق من قضاء آخر ، ولا بد من قبول ما حدث .

— لم يبق يا أبنائي سوى متابع عجائب هذا الزمان .

قال مولانا هذا واستدار . انه يتجه الآن إلى القبلة . وعلى الجدار القبلي . تصرخ الرسومات والنقوش والكلمات . تهيب بنا أن نستسلم ، تعدنا بالجنة ، وتصف الصراط المستقيم والجنات والأنهار والماء والخضرة والوجه الحسن .

— نويت نصلي صلاة المغرب جماعة .

— الله أكبر .

— الله أكبر .

بعد الصلاة ، تحدث مولانا كثيراً عن القلوب الخالية من الرحمة . والخلاعة في البنادر ، والكفر والخمر والنساء والميسر . إن صوت مولا نا يعلو في صحن الجامع ، فيسمع له الرجال رنيناً محبباً .

— إن القضية يا أبنائي ، ليست النصر أو الهزيمة ، بقدر ما هي محاولة البحث عن شكل أكثر نبلا وطهراً للحياة في بر مصر .

وتمر فترة صمت مثقلة بعلامات الاستفهام .

— وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

— عليه الصلاة والسلام .

— انه قال :

إن شعوراً بعدم الفهم يسيطر علينا . ما حدث هناك لا يمكن تصديقه . اننا عندما نسمع كلمة العدو . نحاول أن نفتش في نفوسنا عن معنى هذه الكلمة . نحن كثيراً ما نتعارك . وقد يتحول العراك إلى عصا ترفع ، وفئوس يلمع حديدها في الهواء . ودماء تسيل ، يكتسب لونها القاني معناه على تراب الأرض . غير أننا في المساء نجلس معاً . نحقق ، يقبل الغلطان من وقع في حقه الغلط ، وننهي الموضوع . وتأتي رياح الليل الشمالية ، بعد صلاة العشاء ، كي تغسل النفوس .

— قوات العدو تقوم صباح اليوم .

العدو . العداوة . الحرب . القتال . الاشتباكات ، تبادل إطلاق النار . نحن هنا نسمع هذه الكلمات . وعندما نسمعها نديرها في الرؤوس . نحاول أن نجعلها جزءاً من مكونات عقولنا ، غير أنها تظل طافية على السطح . معزولة غريبة منسية . ورغم عدم الفهم ، فإن الإحساس بعدم الاطمئنان للغد . والغد معنى مطوط ، يصل إلى سنة كاملة . موجود لدى كل رجل . إن الرجل منا يتوقف في منتصف ضحكته . يمسح فمه بظهر يده . يقول لنفسه . اللهم اجعله خيراً . ثم يؤكد لزوجته واولاده الذين توقفوا عن الضحك ، ان الإيام القادمة ، ستحمل لنا كارثة محققة الحدوث . مصيبة تهز البلد . هزة لم تحدث من قبل .

منذ أكثر من عام . قال مولانا قبل الصلاة . إن هذا الزمن زمن العجائب . ورغم الركوع والسجود ، وتلاوة آيات القرآن ، فإننا جميعاً قد شغلتنا هذه الكلمات . لدرجة أن بعضنا أخطأ الصلاة . وبعد أن ختمنا الصلاة . ودعونا الله . سألنا مولانا عن معنى ما قال له لنا . سبع عجائب ستحدث . قال مولانا — وبعدها ينتهي الأمر كله . وعندما سألنا مولانا عن هذه العجائب . اقترب منا . قال ان للحيطان آذان . وانه لا يطلب لنا سوى السلامة . قال مولانا : ان هذه العجائب هي العلامات . التي ستقرب اليوم المشهود . طلب من كل منا ، ان يحاول أن يفتش عنها اينما اتجهت عيناه . وسيجدها في كل مكان . سألناه : كم علامة ظهرت حتى الآن . قال ستة .

— والعلامة الباقية .

— استغفر الله ربي .

راح كل منا يصور الأمر لنفسه ، غير ان شيئاً شعوراً لا لون له . سرى في النفوس . علامة واحدة وينتهي الأمر كله . ان الانتظار في حد ذاته أمر عذب . وفي هذا الكفاية . قال مولانا . فلنترحم على من ماتوا ، ولنحزن على من ذهبوا ولم تكتب لهم العودة . ولنطلب السلامة لمن ظلوا هناك . ولنرفع الأكف والعيون والقلوب نحو السماء طالبين من العلي القدير ان يمر يومنا بسلام .

— آمين يا رب العالمين .

مصري :

سيدي قائد الوحدة رقم .
لي الشرف .
وكلي ثقة بما تتحلون به سيادتكم من انصاف وعدالة .
سيدي .
كان سلوكي دائماً .
إني مسؤول عن رعاية أسرة مكونة من .
وسبق أن أبديت بطولات خارقة في معركة .
هل تذكر سيدي .
قائد وحدتي .
عائد اليكم .
أقول لسيادتكم .

اكتوبر سنة ١٩٧١ .

إن مناطق من أرض مصر ، ما زالت تؤكد كل صباح ، أن أقدام الغرباء تدب عليها في الذهاب والعودة . وانني أدرك الآن ، ان ارض بلادي أصبحت مباحة لأصوات الأقطار البعيدة ، حيث تسمع في كل وقت . كلمات غير مفهومة . بلهجات غريبة . ونرى وجوهاً لم نرها من قبل .

في الصباح ، أصحو من نومي . أغسل وجهي ، أترك رأسي تحت المياه . أدرك أثناء تناول الافطار ، أنه ليس ثمة شيء ما يمكن عمله خلال اليوم كله . فيدب في القلب والنفس فتور غريب . انظر أمامي . على البعد تتدلى سماء خريفية شاحبة . وتحت السماء خيام وسيارات ونقط مراقبة بعيدة .

قلت لكم مراراً . ان الانتظار قد طال . وان العيون قد ذابت من التحديق . وان الرموش والوجوه قد ملت الأمر كله . وان الدقائق والساعات والأيام والليالي قد تآكلت من طول المسافة وبعد الوقت .

قلت لكم . ان الصدأ قد ران على القلوب والشفاه . وان القطارات الليلية . تلك التي تمر في ظمأ الليل وصمته ، تذكرنا بالأهل والأحباب . اننا عند سماعنا صوتها ، نستدير ، نعطي ظهرنا للناحية الأخرى . ونمسح العيون والقلوب من مناظر بلدتنا الحبيبة .

قلت لكم ذلك من قبل مراراً .

غير أن ضابطنا قال لي ذات مساء . وكان الحديث أقرب الى النجوى . أنتم لستم رجال . همس لنفسه . ان هذا الزمن ليس زمن رجال . ذهب الرجال ودالت دولتهم.سألني . هل دفنت في الرمال من قبل أياماً . قلت لا . سألني . هل عجنت الخبز ودفنته في رمال الجبل حتى ينضج بفعل الشمس ثم أكلته . قلت لا . سألني هل نمت في العراء خلال الليالي الشتوية شهراً بأكله دون دون غطاء . قلت لا . هل شربت البول. لا .هل أكلت الثعبان من الجوع . لا.هل تعرف كيف تداوي قرصة العقرب بدون طبيب . لا . هل تستطيع أن تقضي شهراً بأكله دون لحظة نوم واحدة . هل تستطيع أن تعرف الجهات الأربع في صحراء مترامية الأطراف دون دليل أو بوصلة . ربت على كتفي ولى زمن الرجال إذن . سألت نفسي ، هل نحن انصاف رجال . رد علي وكأنه كان يسمع تساؤلي . ليتكم ساويتم هذا . ترك حديثه في النفس إحساساً مائعاً كسحب الصيف الكاذبة . التي لا تحمل سوى الوهم . كان السؤال ملحاً : كيف ولماذا . وكانت الإجابة على السؤال في ضراوة الموت نفسه . وتوقفت طويلاً في صمت الليل أمام كلمة نحن . رحت أديرها في الذهن أكثر من مرة . من نحن ؟ وتمثل لذهني صورة الكرة والشوارع المبلطة بالفتيات ، والفحم الأبيض والتأوهات والانصات لسيدة الغناء العربي . والأكف القائمة في الأكف والعيون المغسولة بالدموع . اننا لا نتخايل ولا نفعل كل صباح بطولات خارقة . لقد أدركنا منذ البداية . ان ما في نفوسنا عظيم . وقلنا ان مصر لن تعرف العقم أبداً . غير اننا أدركنا الآن ، أن أقصى ما يمكننا عمله ، وبعيداً عن العبارات النبيلة .

هو نحتفظ لأنفسنا بقدر ضئيل من النقاء الداخلي. بعيداً عن الطوفان. وان نطلب من الذين سيأتون بعد الطوفان الذي سنغرق فيه . ان لا يلومونا ، بل يحاولون ان يجدوا لنا العذر.

إنني أتذكر الآن ، مناقشاتنا ، كلماتنا ، أيامنا ولياليناالتي دفناها في صفحات الكتب ، الشعيرات السوداء التي تساقطت من فوق الرؤوس قبل الأوان . أيامها . كنا قد قررنا تغير العالم . قلنا تغييره من أساسه وإلا فلا . وقررنا أن من يناقشنا هذه الرغبة . خائن وعميل ولا يستحق شرف الحياة في القرن العشرين .

لا أدري كيف أكمل الحكاية . غير أني أدير وجهي ، وأقول بصوت لا أريد أن أن يسمعه أحد ، أقول أن ما حدث بعد ذلك ، أننا كسرنا .

تلك هي الحكاية .؟

وفي كل يوم ، ومهما أفعل طوال يومي ، أجري ، أذهب . أتحدث ، أقوم بتمرينات رياضية ، أغسل ملابسي . أعد طعامي ، أقرأ ، أكتب الأشواق والحنين على أوراق معطرة . أبعث بها للأهل والأحباب . ورغم كل هذا . ثمة لحظة بعينها في آخر يومي ، إنها لحظة الغسق الرمادية . أجدني وحيداً ، وحيداً إلى أبعد حدود الوحدة . في هذه اللحظة . أرشف الصمت والظمأ . وأنوح يوماً ميتاً سقط من حساب العمر . وفي لحظة الوحدة . أفتش بداية يومي . فأجد أنه تفصلني عنه آلا ف السنين .

سنوات قبيز وهولا كو وبونابرت وليالي قطر الندى وخماروية وتأملات الحاكم بأمر الله . وسجون المماليك وخيانة خاير بك وتخلي الخديوي توفيق عن مصر . وبذخ الخديوي عن اسماعيل . فأدرك هول ما أعيشه .

وفي آخر اليوم ، لا يكون هناك من أمل ، سوى في حديث النفس ، وخلال حديث النفس ، أقترب من الجنون . أقرب يوم العودة . أشق شارع رمسيس في مواكب الإنتصار وأمامي أسرى الأعداء . أخطب في الجماهير راسماً شكل الحياة فيما بعد النصر ، أرسل تهديداً رسمياً إلى ريتشارد نيكسون فيقصره بالبيت الأبيض . أعيد تنظيم العمر والعالم من جديد وأعيش في دنيا لا وجود لها سوى في خيالي .

أقول :

كانت أيامي صراع وتراب وأنين .

الوصلة الأخيرة :

قال الراوي :

علمتني الأيام والليالي . وحوادث الزمان ، هذه الحكمة الصغيرة . يجب أن نجعل حبورنا عالي الصوت . وأن يغطي ضجيج الفرح والسعادة على أي صوت آخر ، حتى لا يعود الهم القديم فيستولي علينا من جديد .

الضهرين . لها شارع رئيسي يقسم البلد نصفين . تتفرع منه الحارات على الجانبين كالخطوط على ورقة التوت . في منتصف البلد مسجد وباحة . وحول البلد قناة صغيرة ، تدور على شكل نصف دائري . تجري فيها المياه . وتنعكس على سطحها البيوت والحارات والأشجار . وفي الباحة وعلى المصاطب يتكلم الرجال كثيراً . وفي ملل الحياة وانعزالها . كثير من المؤثرات ومحاولات الإقناع والكذب .

لقد انف الحدث بنا ودار . وحكايتنا اقتربت من نهايتها .

لم يعد مصري إلى وحدته . وشى به أحد أبناء الضهريتا . والمذكور أعلاه يقيم في البلد بصفة مستمرة ، وقد أكل أكثر من شهر حتى تاريخه . والأجر والثواب عند الله . حضر من الق القبض عليه .

— أنت مصري فر الدولة الضهراوي .

— أيوه يا افندم .

يضع الحديد في يديه . أحاطبه رجلان ، قيل أنهما من مباحث المركز . وابتعد الثلاثة عن الضهريته . ان عيون الرجال تلاحقهم . والرجال الثلاثة في سيرهم البطيء يبتعدون ، ويصغر حجمهم كلما ابتعدوا . وفي النهاية اصبحوا نقطة باهتة السواد معلقة على حافة الأفق .

واختفوا تماماً .

وانقطعت أخبار مصري بعد ذلك عن البلد .

* * *

ـ يا سادة يا كرام ، ما يحلى الكلام إلا بذكر النبي ، عليه الصلاة والسلام :

ـ صلى الله عليه وسلم :

قال الراوي :

قلنا في الحكم والأمثال :

ـ الأسد أسد وإن كلت مخالبه :

القاهرة ، ١٩٦٩ . محمد يوسف القعيد

• • •

معارك نقدية

الشكل مع المضمون ملتحماً

صبري موسى في «الأمكنة الفاسدة»

مجاهد عبد المنعم مجاهد

تطرح أعمال صبري موسى كلها وروايته الأخيرة « فساد الأمكنة » * بصفة خاصة قضية جمالية : هل الصورة الفنية هي مجرد جزء من الصياغة الفنية أم أنها هي لب العمل الفني ؟ بشكل آخر : هل الصورة مجرد تجسيد العمل الفني لإبراز مضمونه أم هي المضمون

* « فساد الأمكنة » رواية لصبري موسى وهي الرواية التي فازت بجائزة الدولة التشجيعية للرواية هذا العام وقد صدرت ضمن سلسلة الكتاب الذهبي العدد (٤) ٢٠ يوليو ١٩٧٣.

نفسه ، وانا إذا جردنا العمل الفني من هذه الصورة لم يبق منه ولو حتى هيكل واهن يشير إلى الفن ؟

وطرح هذه المشكلة بهذا المنظور إنما يكشف عن بعد آخر في القضية ، بعد حضاري : كيف استطاع صبري موسى (ألا) يدخل تحت مظلة نجيب محفوظ الذي دمغ جيل صبري موسى في غالبيته بطابعه الاجتماعي في الإبداع ؟ وكيف شذ صبري موسى عن جيله المتأثر بكتابة القصة القصيرة متأثراً بفن أنطون تشيكوف الذي يجد وجهه المصري عند يوسف إدريس في بداياته على الأقل ؟

فلنتأمل هذه الصورة الواردة في ص ٣٩ من الرواية : « فيتداعى إلى ذهنه مشهد قديم لزوجة هذا الباشا المسماة إقبال هانم والتي تصغره بواحد وعشرين عاماً . . شبه عارية على رمال مرسي عن الساحلية ممددة بجسدها اللدن المعطاء كله أمام ماريو الجالس بجوارها شبه عار هو الآخر .. يجمع قواقع البشبش الدقيقة الحجم المتموجة الألوان ، ويرصها جامدة ساكنة على الجسد الأنثوي العاري ، فتتلألأ في وهج الشمس الغاربة كأنها فصوص . . جواهر ، تزينه وتزيده فتنة ، فما تلبث الحيوانات اللزجة الدقيقة المختبئة في تلك القواقع أن تطمئن للدفء المنبعث من حرارة اللحم ، فتخرج أقدامها الهلامية وتزحف بقواقعها على جسم المرأة ، بنشاط وسرعة هنا وهناك ، حول الرقبة ، والثديين وفوق البطن ، وداخل السرة ، كأنما قد دبت الحياة في القواقع فجأة . . . بينما تتلوى إقبال هانم ، مدغدغة مثارة تصرخ وتضحك ويختلط ضحكها بصراخها فيخرج من فمها الشهواني على ذلك الشاطىء البكر مزيج من الرعب المصطنع واللذة » .

هل هذه مجرد صورة منتزعة من الواقع فحسب ؟ أم هي القدرة على التشكيل الفني بحيث أصبح الواقع أسطورة والأسطورة واقعاً ؟ لسنا هنا أمام الممكن المستحيل النادر الحدوث كما يظن بالفن عادة ، بل نحن أمام المستحيل الممكن كما حدثنا أرسطو قديماً بحيث لا نكون أمام واقع فحسب ، أو أمام فن فحسب ، بل نحن أمام أسطورة فنية أو فن أسطوري .

فهل مثل هذا التشكيل يصلح له البعد الاجتماعي ؟ لقد أدرك المؤلف تنافر التجسيد الفني الأسطوري مع البعد الاجتماعي المباشر فلم يأخذ منه سوى قشرة رقيقة . . وليتعانق طريقه الفني مع البعد النفسي والفلسفي أساساً وليكن كل هذا لا في أمكنة واقعية تماماً ، بل في أمكنة تكتسي هي الأخرى بذلك الطابع الأسطوري الذي يشكل جوهر فنه وأسلوبه الأدبي . . وأين يمكن العثور بمثل هذا المكان الأسطوري إلا في جبل وحيث عمليات التعدين وحيث البشر

متحدون مع الطبيعة ومغتربون عنها في وقت واحد ، وليبرز هذا أيضاً بشكل أكثر عمقاً مع بطل أسطوري هو الآخر ، ولا يمكن أن يتهيأ هذا إلا لدى إنسان مقتلع من جذوره غير نابت نبتاً طبيعياً في أرض المكان وإنما هو مقيم إقامة مصطنعة ، إنه المقيم العابر والعابر المقيم ، مغترب في عواطفه وفي مصيره . .

وهكذا حتّم اتجاه المؤلف إلى هذا الأسلوب في عرض الصورة إلى أن تكون هي نفسها محتوى العمل الفني بحيث جاء هو الآخر تشكيلا أسطورياً . . وارتسمت الصورة البانورامية للرواية : جبل الدرهيب بدهاليزه وصخوره وتاريخه العريق وكنوزه ومعادنه قرب الحدود المصرية السودانية في الصحراء الشرقية . . وهو ليس مجرد جبل مادي ، بل هو أيضاً أسطورة . . فقد كان الدرهيب « هلا لا عظيم الحجم ، لا بد أنه قد هوى من مكانه بالسماء في زمن ما ، وجثم على الأرض منهاراً متحجراً ، يحتضن بذراعيه الضخمتين الهلا ليتين شبه واد غير ذي زرع ، أشجاره نتوءات صخرية وتجاويف ، أحدثتها الرياح وعوامل التعرية خلال آلاف السنين » (ص ٩) وهذا الجبل يحمل في باطنه في آن واحد : المـادة والأسطورة : الذهب ومعدن التلك تجسيداً للحضارة والجشع معاً ، وهو مقبرة لزعيم المتصوفين أبو الحسن الشاذلي المدفون بالقرب منه . إنه رمز الفناء والخلود معاً . . ولتقع في هذا الجبل الأحداث الأسطورة . .

وحتى يتلاحم الشكل والمحتوى ليكونا في النهاية محتوى تشكيلياً رسم المؤلف لعمله بطلا أسطورياً : نوقازي استقر فترة في إيطاليا ثم ارتحل إلى مصر ليعيش في الدرهيب حيث التعدين حديثاً وقديماً منذ أيام قدماء المصريين . . هو رجل ليس به استقرار يريد أن يصبح ملكاً للتعدين في أرض ليست أرضه الطبيعية لكنها أرض يريد أن يقتحمها . . وإذا كان قد ترك امرأته إيليا في إيطاليا بعد أن اغتصبته وأنجبت منه إيليا الصغيرة ، فليجعل من جبل الدرهيب امرأته فلا يعود الجبل حجراً فحسب ؛ بل يصبح الحجر المرأة ، وليزن به حتى يخصبه . . يقول المؤلف : « إيليا شهوة جامحة كما أن الجبل شهوة جامحة كما أن تلك الصحراء من حوله بسكونها الصوتي شهوة كبرى أشد جموحاً . . فما الغريب في أن تتكرر داخل جسده رجفة النشوة التي تهز الروح وتسرقها لحظة انتقال سائل الحياة المخصب من جسد إلى جسد . ما الغريب في أن تتكرر داخل جسده تلك الرجفة حين يقف في قلب الدرهيب العظيم في السراديب الحارة والسراديب الباردة يتحسس الجدران البكر مختبراً طراوتها محدداً بالطباشير الأبيض علامات لعماله ليثقبوها بآلاتهم ويحشرون في بكارتها أصابع متفجراتهم » (ص ٧٧) والمؤلف يعي محتواه وتشكيله معاً : « ويتنبه نيكولا بيننا يغطيه

تراب المتفجرات الداخلية التي تهتك بكارة الصخور إلى أن الدرهيب قد أصبح بديلا لإيليا زوجته » (ص ٧٨) ثم أضاف المؤلف في الصفحة نفسها : « كانت الطبيعة من حوله امرأة عظمى احتوته واستأثرت بجموحه وحيويته » وأضاف أيضاً بعد قليل : « وما هذه الصخور العاتية التي تواجهك بين الحين والحين كأنها تتحداك وتطالبك بمغالبتها والتغلب عليها غير ذلك النفور والصد الطبيعيين في المرأة متممين لفتنتها وغوايتها » (ص ٨٠) وحتى يتناسج البطل في الرواية بشكل أسطوري يبرزه المؤلف على أنه لا يريد أن ينشىء مدينة صناعية للتعدين في الجبل فحسب ، بل يريد أن ينشىء مدينة تدل على خصوبته الجنسية ولتكن هي بديلا عن إيليا : « وحشد طاقته كلها لينسج حلمه بأن ينشىء في هذا الجبل مدينة عامرة بالخصوبة والحركة » (ص ٨٠) .

وليكن الأشخاص المحيطون في الجبل أسطوريين هم الآخرين : ليكونوا (قادرين) على اقتحام الجبل مادياً ، و (عاجزين) عن اقتحام خرافاتهم وتمزيقها معنوياً . . ليكن صديقه (إيسا) إنساناً وأسطورة معاً أسطورة يسرق سبيكة الذهب ليرفعها إلى روح جده فوق الجبل في ضوء الشمس حتى تهجع روحه ، وليكن إنساناً شريفاً يرجع السبيكة بعد أن أراح أرواح أجداده . . ولكنه يكتشف ومعه السبيكة متهما بالسرقة . . وليدخل تجربته الأسطورية : ليمش على النار ولتدعه بهدوء إن لم يكن سارقاً ، ويمشي فلاتحترق قدماه فهما مدربتان على طيب الصحراء وطيب الصدق معاً وليتعانق مع البطل الاسطورة نيكولا الذي بلا جذور . . وليكن هناك أيضاً العامل الذي يتحدى الصخر ويكتسب المعرفة العلمية ولكن ليظل أسير أن أهله قد جذبتهم الى عمق البحر سمكة جنية يريدون الامساك بشعرها الذهبي فتأخذهم إلى القاع . . وليتمكن هو من اصطياد هذه السمكة بعد أن اصطفقت بالقارب والساحل . . لكن هـذه السمكة تصبح عاره حيث أراد مليك البلاد في رحلته إلى الصحراء أن يضاجعها على مرأى من الحاشية ومن جديد يمتزج الواقع والاسطورة .

وحتى تكتمل الأسطورة ليخيم على المكان موت أسطوري حاد : يغرق ثلاثة في بئر ثم تأتي الحيات التي تتلوى هابطة صاعدة تلتهم الأجساد في الجب . . وتتبدى براعة المؤلف في تجسيد الموت وهو يصف موت أحد الجمال : « إن كومة العظام كانت جملا ، يدقق فيها النظر فيجدها منهارة متناثرة . . فيعرف أن الموت قديم وانه فاجأ الجمل وهو يمشي فتهالك على نفسه . وأحياناً يجد نيكولا أن الجمجمة مشرئبة تحملها عظام العنق بوضوح فيعرف أن

الجمل قد مات وهو جالس يتأمل هذه الصحراء في عظمة وأن جوارح الصحراء قد نهشت لحمه الميت لتبقى عظامه علامات ناصعة البياض على الصخور مئات السنين » (ص ٢٦ – ٢٧)

ولا يبقى إلا أن يكون الحدث أسطورياً ليكتمل التشكيل الأسطوري لرواية « فساد الأمكنة » . . وبالفعل يدرك المؤلف أن جوهر العمل وصميمه الأسطوري يكمن وسط هذا الجو الأسطوري وإلا حدث اختلال بين الشكل والمحتوى . . فما هو هذا الحدث الأسطوري ؟ إنه ليس أقل من أن يضاجع ابنته إيليا . . وكانت إيليا الصغرى قد قدمت أبيه ورآها مليك البلاد فطمع فيها واستدعاها إلى خيمته خلال رحلته إلى الصحراء وينتهكها وترجع إلى بيتها حيث كان والدها غارقاً في حالة هستيرية حيث كان يريد أن يكون أول من ينتهكها ويكون ملكاً عليها كما هو ملك على الطبيعة . . وها هو نفسه متكسرة والخمر التي عب منها في الليلة المنصرمة تفرقه في بحر من الخيالات و « رأى نفسه عارياً مع أبيه في حمام تركي وبدا الحوض الكبير المليء بالماء الساخن وكأنه وعاء كبير جداً من الفضة يغلي على نار جهنمية لا ترى فيتصاعد البخار ويتكاثف وتتلاحم مجموعاته فتلد أباه عارياً وتلده هو أيضاً عارياً ، وتلد كل هؤلاء النساء والرجال والأطفال الذين يراهم في الحمام التركي معه يصنعون اختلاطاً حميماً وتلاحماً بين الأجساد العارية المكسوة بالبخار الكثيف بموه عريها ويضفي عليه الغموض والسحر. وشعر بنفسه خفيفاً كفقاعة محمولة على هذا البخار الكثيف الذي يتحول إلى سحب. ثم تختفي جدران الحمام المكسوة بالرخام النقي لتنطلق تلك السحب في سماء زرقاء لامتناهية، فيشعر نيكولا بنفسه متطايراً ومتجاوزاً إلى أبعاد يعجز الوعي عن حصرها حتى تسقطه السحابة التي تحمله عارياً فوق جبل ، بينما عرق الحمام التركي وماؤه لا يزالان يقطران من جسده الحلامي ! » (ص ١١٨ – ١١٩) وكانت إيليا عند عودتها قد نامت على سريرها في غرفته واستغرقت في النوم وعندما استيقظ أبوها وجدها و« فاحت في أنفه تحت الأغطية رائحة الشهوة التي أفرزها جسده خلال غيبوبته ، فانبثقت في عقله على الفور كضوء ساطع صورته وهو يضاجع ابنته ،فارتجف وهزت القشعريرة جسده كله في نفس اللحظة التي انتبهت فيها عيناه إلى تلك الابنة المهدرة على فراشها المجاور له . . ولم يكن أمامه من فرصة للتملص » (ص ١٢٥) وعندما أفاق وتبين فعلته قذف بنفسه في البحر حيث سمك القرش وينقذه رفاقه ولكن بعد أن تكون سمكة القرش قد «عجزته جنسياً . .

وكيف تنتهي الرواية ؟ بأسطورة أيضاً !! لقد تزوج أنطون بك أحد أصحاب المنجم إيليا حتى يحصل على الباشوية ويكون له ابن من نسل ملك حسب اعتقاده ، وتنجب إيليا

بالفعل . . وفي الليل يتسلل نيكولا ويخطف الوليد ويقذف به إلى أعلى الجبل ، وكان الوليد قد مات في يديه من شدة إحكام قبضته عليه ويتركه للجوارح : « ورأى بعين خياله ضوءاً جارحاً من تلك الصقور البنية الريش الصفراء المناقير يحوم في السماء دائراً في دائرة متسعة مرة ومرتين وثلاثاً دوراناً يتزايد انخفاضه في كل مرة تمهيداً للانقضاض فيحمل في مخالبه تلك الفريسة المطروحة حلالاً له ، فيرفعها في السماء ، قرباناً شفاعة من نيكولا وتوبة ! » (ص ١٤٦) وتبدأ عملية البحث عن نيكولا وتتبعه ابنته في الكهوف : « هيا يمكنك أن تختبىء يا نيكولا بكل ما تحمل روحك من عذاب وتتبغ يا نيكولا في كهف صغير مغلق ، كطفل في رحم أو دودة في شرنقة . ولن تكون بحاجة إلى الطعام ولديك في داخلك من الألم ما يكفي لتحضنه ! » (ص ١٥٦) وتعثر ابنته عليه . . ويتوهج كل هذا بحوت أسطوري للابنة حيث ضربت قدم نيكولا في الستارة الخشبية للمنجم وانهارت الصخرة وانحبست وراءها وهي تصرخ : « وكأنما الألم المفعم واليأس والدهشة في تلك الصرخة المفجوعة تعاتبه وتدعوه للبقاء معها . . كأنما تلوح له بعالم مسحور ها كفيلان بخلقه في تلك الصحراء ليعيشاه معاً جنباً إلى جنب كما كان دائماً رجل وابنته أو رجل وأمه أو رجل وامرأته المعشوقة والمفضلة » (ص ١٥٨)

وتنتهي الرواية بنيكولا غارقاً في الخمر وسط الأمكنة « ثم يقبع مستنداً بظهره إلى صخور الدرهيب التي بدأت في التثلج حتى يظهر في شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفلي الخفيف مطلاً فوق جزيرة العرب ويبدأ المشتري يتأرجح بعيداً فوق الصحراء الكبرى فيسبح عقل نيكولا في الملكوت » (ص ١٥٩)

وهكذا يستعيد صبري موسى للعمل الفني أصالته بأن يكون متميزاً يستحضر شخصية مؤلفه وهي متفردة غير متكررة . . ويستعيد العمل بعض عنامته التي افتقدناها طوال جيل كامل من القصص المصرى الغارق في شدة الوضوح . . يستعيد له أن العمل الفني هو أولاً وقبل كل شيء عمل فني قبل أن يكون رؤية اجتماعية وهو يستعيد له أن العمل الفني هو الكل من خلال الجزئي . . إنه البحث عن المطلق من خلال العمل الفردي . . إنه الخطيئة من خلال خطيئة نيكولا المغترب المتوحد . . إنه اللامتناهي من خلال المتناهي . . إنه الخطيئة والتفكير معاً . . إنه العجز إزاء أسرار الحياة . . إنه الإنسان الضائع المتناهي وسط لاتناهي الطبيعة التي هي مقبرته ومفخرته معاً . . التي هي عامل انتصاره وانهزامه في وقت واحد . .

وهكذا بصبري موسى ينشأ وضع : ليس المهم فقط أن تكون فناناً ، بل المهم أيضاً أن تعي أبعاد هذا القيد ، أي أن ترسم له تخطيطاً . . أن تكون على دراية بتشكيله وصياغته وتجسيده وابرازه . . و « فساد الأمكنة » ليست فحسب عملاراتعاً ذا ملامح خاصة ستنحفر في مجرى التاريخ الأدبي لمصر الحديثة ، بل الرواية هي عمل فني يثير قضايا جمالية وربما تكون بذرة دراسات نقدية وفنية جديدة ، وتتيح للنقد وعلم الجمال فرصة طرح قضايا جديدة . . إن « فساد الأمكنة » تؤكد القضية الهامة : إن العمل الفني العظيم هو ملهم الدراسات الفنية والجمالية العظيمة . . وستظل خصائصها الفنية الجمالية أخصب من أية دراسة نقدية عنها ، بل هي بكل أبعادها السيكولوجية والميتافيزيقية ستكون منطلقاً جديداً في فن الرواية المعاصرة .

لقاء مع صبري موسى

ليس فوز صبري موسى بجائزة الدولة التشجيعية هذا العام مجرد حدث عادي مما يتكرر كل عام ؛ فان تكريم صبري موسى هو تكريم لجيل كامل هو الجيل الذي سقط بين الجيلين . . الجيل الذي تفتح ابداعه مع بدء الثورة المصرية فجاء جيلا له طابع خاص : لقد تفتح في ظل الليبرالية وفي الوقت نفسه كان يستشرف أبعاد التغير الاجتماعي وكان نواة ابداع خاص وكان ملهماً لجيل بعده وسقط هو بين الجيلين . . إنه جيل صبري موسى وبدر نشأت وفاروقمنيب وعبد الله الطوخي وصالح مرسي وكمال مرسي وكامل أيوب وسيد جاد ونجيب سرور إنه الجيل الذي ركز على الفن والإبداع ولم يركز على تسنم المناصب الإجتماعية فلم يتمتع بشهرة كافية مما ألقى بظل على تجربته الإبداعية فأجهدها ولم يجعلها تكتمل تماماً وانتهى إما بالصمت وإما بالإبتعاد وإما بالتغرب ولم تبق إلا قلة قليلة تجدد في صمت واخلاص ومنها صبري موسى الذي توج شوط ابداعه منذ مجموعة قصصه « القميص » عام ١٩٥٨ برواية « فساد الأمكنة » . وقد آن أن نتعرف على الفنان من داخله فجاء هذا اللقاء :

فلنبدأ من جبل « الدرهيب » الاطار الذي تجري من خلاله أحداث الرواية نريد أن نعرف بشيء من التفصيل كيف نبتت فكرة رواية « فساد الأمكنة » ؟

صبري موسى : في الحقيقة سنجد صعوبة في اختيار التفاصيل التي تجيب على هذا السؤال :

فقد ظلت الرحلة للصحراء تستهويني منذ وعيت أن مصر بلادي منتزعة من براثن تلك الصحراء انتزاعاً . . « هبة النيل » . . وكم كانت دهشتي وأنا أراها من مقعدي في السماء داخل طائرة . . شريط رفيع طويل أخضر لا يكاد يرى وسط مساحة هائلة من اللون الأصفر الصخري . . !

وقد كانت رحلتي الصحراوية الأولى في الخمسينات (١٩٥٨) تجاه الغرب . . وراء السلوم وحدودنا مع ليبيا . . وبدت لي الصحراء الغربية آنذاك جيرية بيضاء ، تبدو فقيرة عاطلة إزاء البحر العظيم الأبيض . . ولا أظنني قد كتبت بعد تلك الرحلة سوى بضع مقالات تتناول بالاشفاق حاجة سكان تلك الصحراء من الاهتمام والرعاية .

وفي الستينات (١٩٦٣) رحلت إلى الصحراء الشرقية ، فيما وراء أسوان والسد العالي وحدودنا مع السودان . . رحلت أكثر من مرة بأكثر من وسيلة . . مرة بالقطار حتى قفط ومنها بالسيارة عبر طريق الحج القديم إلى القصير على البحر الأحمر ثم مرسى علم وأبو غصون إلى الصحراء الحقيقية . . ومرة بالسيارة مباشرة من السويس بحذاء البحر الأحمر حتى برانيس في أربع وعشرين ساعة متواصلة . . اشتريت بعدها سجائري من قرية حلايب المصرية السودانية التي تعيش على شاطىء البحر الأحمر خارج نطاق الحدود الدولية وخارج نطاق الزمن أيضاً حيث باع لي سجائري الأمريكية الحديثة المستوردة مخلوق أسمر في ثياب بيضاء يضفر شعره على طريقة فراعنة طيبة القديمة !

ومرة ذهبت بالطائرة . . حملتني من القاهرة ذات فجر واسقطتني بعد ساعتين في قلب الصحراء عند حماطه ، وهي نقطة صغيرة للأمن والاتصالات اللاسلكية تبعد ساعة وربع ساعة بسيارة النقل القديمة عن جبل الدرهيب حيث كان فوراً مبيتي في معسكر خشبي مهجور يخص منجماً قديماً عاطلا عن العمل . .

وأعترف لك إنني لم أجد ابداً في هذا الجبل ما يميزه عن غيره من الجبال سوى اسمه الغريب الايقاع والتكوين . . وقد ظل هذا الإسم يلح على خيالي طوال ارتحالي في الصحراء وكأنما هو لغز مهيب تلقيه الطبيعة بين الحين والحين عبر طريقي يعترضني ويطالبني بتفسيره . .

وتنضاف إلى هذا اللغز تلك المعطيات البكر التي منحتها لي الطبيعة عبر الرحلة وأهمها ذلك الإحساس الغامر الحقيقي بجدة كل شيء وبكارته وكأنما العالم يوجد في تلك اللحظة فقط بالنسبة لي ، رغم قدمه الشديد ، مما يعطيني الحق بأن أضع له قوانينه وقواعده لأبدأ في تشكيله

على هواي . وأبتكر له مخلوقاته وسكانه . فكيف إذن لاتنبت في داخلي فكرة هذه الروايــة ؟

● وهل ما زالت للدرهيب في نفسك بقية يمكن أن تصلح موضوعاً لعمل فني قادم ؟

صبري موسى : أعتقد أن الدرهيب في « فساد الأمكنة » قد تحول إلى رمز للأرض بشمولها وأن نيكولا هو الإنسان في شموله ، وقد اكتفت « فساد الأمكنة » بأن تضع نيكولا في مواجهة كل الأسئلة التي يطرحها الدرهيب حول فكرة الوطن والأسرة أو الزواج والجنس والعمل والصداقة . . وقد بدأت الأسئلة التي يواجهها عنيدة وقاسية لدرجة انه يسلم بعجزه في النهاية ، ويرغب – هربا من هذا العجز – أن يتحد بالطبيعة الأم فيصبح حجراً أو صخرة من صخور الجبل . . ويصبح بالتالي قوياً وعظيماً مثل الطبيعة . .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن ندرك أن التصميم الفني في « فساد الأمكنة » لم يترك في الدرهيب بقية لعمل في قادم . . ومن يدري . . فبالنسبة لي فإن (أبشر) ولد (إيسا) البدوي ما يزال يوجد في ذاكرتي الفنية ويلح عليها بين الحين والحين . .

● لقد خيّم على الرواية جوالأسطورة والجنس والموت . . . فهل هناك تأثيرات بأعمال كازنتزا كس وهيمنجواي والطيب صالح؟

صبري موسى : أنا معجب بهؤلاء جميعاً وبغيرهم أيضاً . . لكنني أحب بتحيز كل الأساطير القديمة وأعتقد أنها أثرت في منهجي واختياري.

● لقد بدأت بـ « القميص » وهو مجموعة قصص قصيرة . . كيف حدثت النقلة عندك من القصة القصيرة إلى الرواية ؟ وماهي مراحل تطورك الفني ؟

صبري موسى : القصة القصيرة لم تكن البداية . . لقد بدأت رساما ونجحت إلى حد ما . . وحينما فشلت في الشعر حاولت القصة القصيرة .. وحين جاء زمن السفر والترحال استهوتني محاولة تسجيل الرحلات . . كانت بالنسبة لي تعمقاً في معرفة الأرض والناس . . ومهرباً من نوعية العمل الصحفي المعتادة ولعل ذلك هو ما قادني إلى الرواية . . ثم بدأ فن السينما يستهويني فكتبت عدداً من السيناريوهات . . « قنديل أم هاشم » ، « البوسطجي » ، « الشيماء » « رغبات ممنوعة » ، « العذاب اللذيذ » ثم عدت من جديد للرواية وهكذا . .

● يلاحظ بصفة عامة في انتاجك اهتمام شديد بالصورة والصياغة الفنية. كيف تكونت هذه الميزة لديك ؟ وهل تنميها بشكل واع ؟

صبري موسى : لقد بدأت كما قلت لك رساماً . . وقد حاولت الشعر . . وهما فنان يعتمدان اعتماداً جوهرياً على الصور . . ثم إن الحياة كلها صور . . أما الصياغة عندي فهي محاولة التعبير بهذه الصورة التي تقول كل شيء بأقل الكلمات الممكنة لكن المشكلة دائماً في اختيار هذه الكلمات . . فإن كثيراً من الكلمات التي تستخدم قد فقدت معناها الجوهري الحقيقي من كثرة الاستخدام . . وأنا أدرب نفسي باستمرار على لعبة الكلمات هذه . . فأعيد ترتيبها وتشكيلها بحيث تبدو جديدة ، وتكتسب قدرة على الإبهام والإيحاء . .

● بمناسبة الحديث عن الصور ، يلاحظ أن الصورة عندك ذات طابع شاعري فما هي علاقتك بالشعر ؟ وهل يمكن للفن القصصي أن يستفيد من الشعر ؟

صبري موسى : مازلت أطمع أن أكون شاعراً وأعظم القصص تأثيراً سوف نجد روح الشعر في صياغته . .

● ما هي المكونات الخاصة التي جعلتك تفلت تماماً من إسار نجيب محفوظ ويوسف إدريس وأنطون تشيكوف الذين دمغوا معظم كتاب القصة من جيلك تماماً من ناحية الشكل والمضمون بطابعهم ؟

صبري موسى : أنا رغم كل شيء قليل الإنتاج ، ولعل هذا يعطيني فرصة البحث والإختيار والتجدد المستمر . . وحتى في مجموعاتي القصصية القصيرة التي جاءت [بعد القميص » حكايات صبري موسى » و « وجهاً لظهر » و« مشروع قتل جارة » سوف تجد أن منها قد أفلتت من إسار سابقتها واختلفت عنها . . وكذلك أيضاً تختلف « فساد الامكنة » كرواية في شكلها الفني ومضمونها عن سابقتها « حادث النصف متر »].

● ما هو المستقبل الذي تتصوره لكل من القصة القصيرة والرواية في مصر ؟

صبري موسى: لقد أتيح لي — وما زال — بحكم إشرافي على بريد القصة في مجلة «صباح الخير » الأسبوعية أن ألتقي بالمئات من الوجوه غير المعروفة من كتاب القصة القصيرة

هذا بالإضافة إلى مئات القصص التي تصلني شهرياً عن طريق البريد . . كما أنني قد لاحظت ان عدداً هائلا من القصاصين الشبان قد ولدوا بين قواتنا المسلحة خلال سنوات الانتظار . . بعد النكسة وقبل العبور . . هؤلاء جميعاً يشكلون حقولا خصبة تنبت باستمرار وعلى مدى السنوات القادمة وروداً متألقة تزين مستقبل القصة القصيرة . . أما الرواية . . فلا خوف عليها ، وهناك هذا العدد الكبير من الأسماء الشابة الذين يزاولون كتابتها الآن في مصر .

مجاهد عبدالمنعم مجاهد　　　　مدينة المقطم

صبري موسى في سطور

– من مواليد مدينة دمياط عام ١٩٣٢

– تخرج من الفنون التطبيقية عام ١٩٥٢

– يعمل حالياً كاتباً بمجلة صباح الخير الاسبوعية

) أعماله :

– القميص (١٩٥٨)

حادث النصف متر (١٩٦٢)

الصحراء (١٩٦٣)

– في البحيرات (١٩٦٤)

– حكايات صبري موسى (١٩٦٥)

– وجهاً لظهر (١٩٦٩)

مشروع قتل جارة (١٩٧١)

فساد الأمكنة (١٩٧٣)

– العمل القادم له رواية « السيد من حقل السبانخ » تدور أحداثها عام ٢٨٣٣ بعد الميلاد حيث يكون الفلاح بطلها قد اصطبغ بالطابع الآلي للتقدم التكنولوجي .

جمال الغيطاني

من القصة الوثائقية إلى القصة العسكرية

رياض عصمت

في أعقاب نكسة حزيران ١٩٦٧ كان على الواقع الأدبي العربي أن يعاني مخاضاً ، فنكسة ١٩٦٧ استرعت الانتباه إلى الكم الهائل من السلبيات المعششة في كياننا الحضاري ، بل الى قصور الأدب عن دوره في التحريض والتنبيه والتثوير . كان هذا بشارة لولادة أدب جديد ، غير أدب الندم على ما فات ، وغير أدب التغني بالبطولات . وفي مصر على أطراف الأرصفة الأدبية برزت ملامح جيل جديد من كتاب القصة القصيرة ، ملامح تحمل أصالة وجرأة وتجربة ، ولمعت أسماء جمال الغيطاني ، محمد يوسف القعيد ، مجيد طوبيا ، ابراهيم أصلان ، محمد البساطي ، وغيرهم من الكتاب الشباب .

وسرعان ما انتظم العقد بمجموعة من النقاد الشباب وعلى رأسهم صبري حافظ ، عبد الرحمن أبو عوف ، وعدد من الشعراء الجدد ، الذين لم تكن أبعاد تجربتهم قد اتضحت بعد . واستطاع هذا العقد أن يشق طريقه في مجلة حرة أسموها « جاليري ٦٨ » ، وهي مجلة أدبية غير دورية صدر منها ثمانية أعداد ثم توقفت بسبب المشكلة المادية بشكل رئيسي ، إلى جانب موقف الإهمال الذي وقفته المؤسسات الثقافية الرسمية منها .

ولكن الحركة الأدبية الشابة استقطبت الاهتمام رغماً عن كل هذه الظروف ، وأصبحت الموضوع الرئيسي المطروح على مستوى مصر والعالم العربي في آن واحد . والواقع أن « الثورة الثقافية » المبتورة التي حاول الشباب من كتاب القصة خلقها في مصر كانت نتيجة طبيعية للواقع المتدني ، علاقات والتاجاً ، والذي أسفرت عنه مأساة النكسة ، كما كانت على صلة أكيدة بثورات الشباب في العالم التي بدأت في فرنسا عام ١٩٦٨ وهزت كيانها الاقتصادي والثقافي والسياسي ، وغزت عديداً من دول العالم المتحضر . لذا انبثقت حركة الشباب منذ عام ١٩٧٠ وتكررت صرخاتهم السياسية والفنية والثقافية .

ولا شك أن حركة الكتاب الشباب في مصر ، إن لم تسفر عن كثير من القيم الأدبية الجديدة ، فإنها أسفرت عن هز الركود الثقافي القائم ، والتجمعات القديمة المبنية على أسس غير صحية . واستطاع الشباب أن يستقطبوا الاهتمام الجاد من قبل جيل الرواد وكبار المثقفين ، لذا أجرت مجلة « الطليعة » المصرية استفتاء عن الكتاب الشباب في مصر والوطن العربي عام ١٩٧٠ في عددين متتاليين ، وأخذت آراء عدد من كبار المثقفين في قيمة أعمالهم واتجاهاتهم ومنهم الدكتور لويس عوض والدكتورة لطيفة الزيات وغيرهم .

واليوم دعونا نستعرض أعمال جمال الغيطاني من خلال مجموعتيه « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » و « أرض – أرض » وهما تمثلان تطور قصته وربما تطور القصة الشابة في مصر عبر فترة ما بعد النكسة .

في مجموعته الأولى لفت الغيطاني الأنظار واحتل مكان الصدارة بين كتاب القصة الشباب ، بعد أن نشر طيلة خمس سنوات عديداً من المحاولات القصصية في مجلات بيروت والقاهرة .

وقد كتب الناقد الشاب عبد الرحمن أبو عوف عن هذه القصص القديمة خارج المجموعة قائلا : « تشكل معظم سمات هذه المحاولات السابقة تمرساً واعياً بخبرات تجربة القصة الواقعية في أدبنا الحديث . . . وينعكس عليها بتفاوت مجموعة المشكلات الجمالية التي عانت منها تجربة الرواد من لا شين حتى يوسف إدريس ، فغالباً ما تسلط عدسة الكاتب على الجوانب المعتمة

المتآكلة التي يعيش فيها البسطاء والمسحوقون في أسفل السلم الطبقي للمجتمع ، وشبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة ربما تكون في تصورهم معبوداً وثنياً بيده تخطيط دورة حياتهم » .

أوراق شاب عاش منذ ألف عام

في مجموعة « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » البطل عند جمال الغيطاني هو الزمن . انه المنظار الذي يرينا الحاضر بالقناع وفن ، لأنه يكسبنا منطق التاريخ . هذا المنظار يقرب أحياناً ويبعد أحياناً أخرى ، وينتقل بحرية من تراث الماضي إلى يوتوبيا المستقبل .

من عالم المستقبل نقرأ وثائق عن الماضي في قصة « أوراق شاب » ، الماضي الذي هو حاضرنا ، هذه الوثائق كتبها شاب أثناء الحرب التي نشبت في تلك الأحقاب البعيدة بين أجدادنا على ضفة النيل وبين دويلة صغيرة لم يصلنا غير معلومات ضئيلة عنها .

وكانت تسمى « إسرائيل » . لكنه من المعروف أن هذه الدويلة قد اختفت تماماً بعد ذلك وضاعت أخبارها نهائياً ، ونرى هنا مشاعر أجدادنا في هذا العصر البعيد حيث يبدو أن وطنه كان يتعرض لبعض الأخطار ، كما نلمس أيضاً احساسات أبناء هذه الفترة المليئة بالتناقض قبل انتصار الاشتراكية في كواكب الأرض كله .

شذرات مختلفة من حياة عصرنا ، تزداد عمقاً وفنية من خلال هذا العرض الشيق الذي ورد في المقدمة ، لكن الفكرة الأساسية والتكنيك يظلان متفوقين عنده على الأسلوب والبيان القصصي المتماسك . ان شمولية القصة وعدم اعتمادها على خط تام باتجاه واحد بل على خطوط متوازية تتجمع في شذرات ، يعطيان تكاملا في البناء العام للفكر والواقع في آن واحد . ولكن اللغة تضيع أحياناً في العادية ، وتفتقد قصته التشويق والتنويع فتصبح عزفاً على لحن واحد .

ويستغل الغيطاني التكنيك نفسه بشكل آخر عندما يعرض مخطوطاً من الماضي (من ابتداع خياله طبعاً) كتبه مدير سجن قديم اشتهر بهوله . وقصة « هداية أهل الورى لبعض ما جرى في المقشرة » لا تتحدث بالتأكيد عن ماضي الإرهاب إلا بقصد اسقاطه على الواقع ، والتصدي لكل ما يمثله تاريخ الارهاب من اجحاف بحق الانسان .

ويتابع الكاتب التكنيك نفسه في قصته « كشف اللثام عن أخبار ابن سلام » فيروي لنا عبر مخطوط قديم قصة ثائر هب لنصرة الفقراء فتألب رجال السلطة عليه حتى أوردوه مورد الهلاك . وفي هذا أيضاً إسقاط واضح على مصرع البطل الروماني الثوري في عصرنا ،

والذي كلما ذكرناه تذكرنا « أبو ذر الغفاري » و « غيفارا » ، وكل ما مر بينهما من الثوار الصحايا .

ولكن الغيطاني يلجأ إلى تنويع في أسلوبه « الوثائق المتخيلة » – إذا صح التعبير – فيقدم لنا حلا « فانتازيا » في قصته « المقتبس عن عودة ابن اياس إلى زماننا » عندما يأتي بشخصية مؤرخ قديم إلى زماننا هذا ، ويضعه في خصمه ، فيكشف بهذه الصورة المغرية عن الحقيقة وراء سطح الأحداث عن طريق تسليط بؤرة ضوء مكثفة عليها .

هذا الأسلوب من الموضوعية الفنية يساعد القارىء على تحليل وفهم واتخاذ موقف من العالم المجسد في القصة . ان الغيطاني ينطلق من مقولة أن الذي يعيش المشكلة أقل قدرة على استيعابها من الذي يراها رؤية شاملة وموضوعية . لذا فهو ينقل ذاتيته كفنان إلى موضوعية المتجرد ، وينظر إلى الحياة الإنسانية بشمولية التاريخ ومرونة الخيال ، يختار من الحياة مقتطفات وشذرات كل واحدة على حدة لا تفيد ، ولكن تجمعها يفيد ، إذ يجعل لها قيمة الإحاطة ليس بشخصية ما فحسب مثل ابن سلام او ابن اياس أو ذلك الشاب الذي عاش منذ ألف عام ، ولكن بكل الحياة التي كانت تجري آنذاك والتي تجري الآن ، وهو يربط بينهما بعلاقة جدلية ، فيسقط الماضي من الحاضر بطريقة ذكية غير مباشرة ، أو يصور هذا الحاضر مغرباً (والدافع الفكري ينطبق على ما أراده برخت من التغريب فيساعدنا على رؤيته بوضوح أكبر ، بألم أشد ، وبأمل أكثر) .

هذا التكنيك الذي يستخدمه جمال الغيطاني بتنويعات مختلفة يذكرنا ببدايات الرواية الحديثة وبالأخص الرواية الإنجليزية ، على يد كل من دانيال ديفو ، وريتشاردسون ، وهنري فيلدينغ . التكنيك الذي يحاول إقناع القارىء بموضوعية الحدث ، وتقريبه قدر الإمكان من الواقع والإقناع ، وذلك عن طريق اللجوء إلى أسلوب الرسائل أو المذكرات ، كما في رواية « مول فلاندرز » لديفو أو رواية « باميلا » لريتشاردسون .

الرغبة في الإقناع بحقيقة ما حدث هي الوريث الفني للواقعية الكلاسيكية عند جمال الغيطاني وهي التي أعطت لقصصه طابعاً مميزاً وشمولياً ، رغم أن هذه الطريقة قد تصل – ووصلت بالفعل – إلى شيء من تفتيت الحدث الرئيسي وتشتيت القارىء عنه .

لعل من عيوب جمال الغيطاني أنه حريص دائماً على قول شيء محدد بشكل مسبق ، قبل أن تبدأ عملية الإبداع بالتكون ، وهذا ما يجعل أدبه عبارة عن وسيلة إيصال يتلاعب بها

إرادياً ، وليس حدساً إبداعياً وغاية في حد ذاته لتتمتع الشخصيات فيه بحريتها وتنمو مع الحياة الداخلية للقصة نموها الطبيعي . إن شخصياته تكاد تفتقر إلى الحياة ، لتظل مجرد أشباح هلامية تطل من مرآة الماضي واوراقه الصفراء ، ثم تموت لتبقى الفكرة فحسب وهي فكرة عامة جداً على الأغلب . لذلك فالغيطاني عندما حاول رسم شخصية محدودة في قصة « أيام الرعب » المتبقية من المجموعة ، فشل في تعميق الشخصية رغم طول القصة ، وظل رسمها يدور على سطح الأحداث المتجاورة ، فأصبحنا على صلة وثيقة بما يفعل الشخص وبما يشعر ، ولكننا لم ندرك من هو .

إن الجدلية في بناء قصص الغيطاني أساس لا يمكن إغفاله ، والجدلية هنا تتخذ ملامح صراع درامي يكشف وينور ، فتمتد أبعاده عبر الزمان واضحة ومستمرة . إنه يحكي عن زماننا هذا ، بصدق وإقناع ، لأن « الابعاد » أو التغريب يساهم في عملية الإقناع . ومهما كانت العقبات التي تحول بين كاتب شاب وبين تكامل الشكل والمنهج ، فإن القيم التي يدافع عنها جمال الغيطاني هي قيم الحرية ، ونصرة الفقراء والإيمان بالمستقبل ، والدفاع عن الأرض .

* * *

أرض ــ أرض :

في مجموعته الثانية « أرض ــ أرض » ينتقل جمال الغيطاني عبر ممارسته الواقعية كمراسل حربي على جبهة القناة في أعقاب نكسة حزيران ١٩٦٧ ، إلى كتابة القصة الواقعية الشعرية ، ومعظم قصصه هذه تستمد من تجربة الحرب والجبهة ، مواضيعها وأرضيتها . وكما كان الصراع قائماً في مجموعته الأولى ما بين التاريخ والحاضر أو ما بين الحاضر والمستقبل ، فإن الصراع الدرامي ينتقل هنا بصيغة أخرى جديدة إلى أرض الواقع الصلبة . هذه الدرامية تفيد فن القصة لديه لأنها تنور وتكشف .

هنا في قصصه الحربية يبرز الغيطاني فكره مرة أخرى ليضع في كل قصة تناقضاً طبقياً حاداً ، فهو يقدم لنا دائماً صورة العالمين بتنويعات مختلفة على اللحن الواحد . هذا يتكرر في « أرض ــ أرض » ، « إجازة ٧٢ » . و « مناجاة ليلية تحت هدير المدافع » ، و « شكاوى الجندي الفصيح » .

قصة « أرض ــ أرض » تروي عن صدام مباشر ما بين مرارة الواقع التنظيمي في كيان المجتمع العربي وقيامه على الروتين والإهمال واللاإنسانية مقابل الجبهة حيث الموت يترصد

الإنسان في كل لحظة . إنها محاولة لإسعاف جريح تبوء بالفشل وعدم الا كتراث لأن الجريح فقير وعاجز عن الشكوى .

ولعل أفضل تعليق على القصة هو ما كتبه الناقد الكبير الدكتور علي الراعي في مجلة روز اليوسف عام ١٩٧١ :

« والقصة توضح في قصد فني رائع ، وفي صورة مركبة – تنبع من لاوعي المدرس ومن وعيه على حد السواء ، وتعبر عن إحساسه بمصر وإحساسه بالعالم معاً – توضح أن المجتمع القديم أعجز من أن يواجه تحدي الصاروخ » .

ويتابع الدكتور الراعي قائلا :

« هذا هو الأدب الثوري الحق الذي نبع من النكسة مباشرة : أدب واع ، متزن ، وما بالقصة من حزن يكفي كي يخلق محبطاً . ولكن القصة – كالجوهرة النادرة – تختزنه كله في محيطها الصغير ، وتتألق به ، وتضيء كالماسة السوداء .

حزن دفين ، متكبر ، لا يبكي لأنه لا فائدة من البكاء . ولأنه يعرف طريقاً آخر أجدى من البكاء .

وإلى جوار هذا الحزن ، حب دافق لأرض هذا البلد ، وناس هذا البلد ، يتمثل في الإشارات الكثيرة الدقيقة – التي تبدو عابرة – لأحوال البسطاء وعاداتهم ورغباتهم وأفكارهم وكلها تبدي النقد ولا تدري » .

وأسلوب جمال الغيطاني في هذه المجموعة قد ازداد ثراء وكثافة شعرية . ولكن ثرثرته وإسهابه لم ينعدما في جميع القصص . لذا تجد قصته « أرض – أرض » تتوه في محيطات الإسهاب الطويل وراء التفاصيل المملة ، بحيث يفقد القصة القصيرة أبرز وأنق معالمها وهو الكثافة التي تقربها من مصاف الشعر ، الأمر الذي يؤثر على فنيتها ، ويعجز عن نقل الواقع إلى مصاف الرمز ، بل وكثيراً ما تحجب الأبعاد الخلفية الكاتب بين متاهات السرد والوصف . مع ذلك فان الغيطاني يحول « التكنولوجيا » إلى شعر .

وها هو يصف الصاروخ المرعب في تناقض تام مع الحياة الإنسانية ، وفي تداخل شفاف مؤثر معها .

في تمام التاسعة والنصف ، تتدفق العربات في الميادين ، لا يوقفها موت ولا وحيل انسان ألف روح آدمية عن العالم ، يضحك الناس ، يدمعون ، تتساقط نقط المياه من الزير إلى الصفيحة الموضوعة تحته ويد مجهولة في مكان قصي تضغط زراً أسود اللون . . . احمر . . . أو أصفر . . . أو ربما تشد مقبضاً فينفرد من الثبات صاروخاً طوله كرجلين ممددين فوق الأرض يطلع بطيئاً وكأنه لا ينوي الأذى ، يعبر الأعمار والذكريات وصور الطفولة المنسية وعبير الأغاني القديمة وندامات الليل ولهفة المسافرين . جوفه ملء بتروس وأسلاك متداخلة في أنابيب مبطنة بمادة بيضاء طرية . وعندما أمسك الضابط بالعمود المعدني الا يقف قال إنه من أنق أنواع الألمنيوم ، ودرجات القلا ووظ دقيقة جداً ، تدور حولها صامولة مسدسة رمادية والعمود يحفظ اتزان اللوحات المحلق » .

قصص الغيطاني الحربية تستمد كثيراً من مادتها دون مباشرة ولا ضجيج ولا افتعال من حياة الجبهة . إنه يسجل بعضها بواقعية مفرطة عبر تجربته الخاصة – على ما يبدو – تجربة صحفي يعرف حياة المدنية المترفة وهو يعمل كمراسل صحفي في الجبهة ، فيكشف من خلال هذا التناقض الحاد ما بين الرفاه والقسوة عن إحساس إنساني حاد ومتبلور ، كما في قصته « مفاجأة ليلية تحت هدير المدافع » .

ولكن أفضل قصة في المجموعة هي قصة « الظمأ » ، وكان الغيطاني قد نشرها في مجلة الآداب اللبنانية عام ١٩٧١ .

وقصة « الظمأ » عبارة عن مونولوج طويل لأم فقدت ولدها في حرب حزيران ١٩٦٧ ، حيث تشكل مجموعة الذكريات الصغيرة والتداعيات المتلاحقة لتفاصيل طفولته وشبابه خطاً مأساوياً متنامياً مع تخيلاتها حول ضياعه في الصحراء الجافة .

« الظمأ » تكاد تكون قصيدة شعرية نثرية ، مؤلمة في واقعيتها ، صادقة ، حارة ، وفنية . الغيطاني يبحث دائماً عن إثارتنا بحافز شعري رقيق قد يكون مشاعر الأم الثكلى أو حنان الجنود تجاه طفلة مشردة في الجبهة كما في « عصفور الشتاء المهاجر » .

أما قصته « إجازة ٧٢ » – وهي من بدايات قصصه الحربية – فهي على عكس « مفاجأة ليلة » لأنها تحمل البطل من الجبهة وغبارها إلى المدينة بكل رقتها وطمأنينتها ورفاهيتها . أيضاً يرتسم أمامنا عبر هذه الحيلة التكتيكية التي تماثل حيلة التلاعب بالزمن من خلال الفانتازيا

التاريخية في مجموعته الأولى « أوراق شاب » ، يرتسم أمامنا بعد درامي للقصة يهز المشاعر بنفس الصورة والتكنيك والإيحاء .

وفي معظم قصص « أرض — أرض » يتركز الصراع الدرامي على استكشاف أرض الواقع « بكاميرا » فنان أصيل . هناك دائماً إنسان مضطهد . . . واضطهاده ليس فردياً ولكنه نتيجة لوضع عام . هذا ما يدفعنا لتأكيد وعي الكاتب الفكري والفني . إذ يحتفظ بالفكر كخلفية للصراع المرسوم برهافة حس على خارطة الشكل الفني للقصة .

ومن أجمل قصصه أيضاً « شكاوى الجندي الفصيح » التي تكشف عن التناقض ما بين الناس المسحوقين طبقياً والناس المرفهين وراء مكاتب وغارقين في بحر من الروتين والتعالي الزائف . هذه الرسائل يحاول الغيطاني بطريقته الوثائقية التي أشرنا اليها إقناعنا بحقيقتها أو على الأقل بتأكيد واقعيتها — يرسلها جندي في الجبهة إلى مدير الدائرة التي كان يعمل فيها محتجاً على فصله من العمل دون أن يدري أن رسالته أصبحت موضعاً للتندر وجلب الاهتمام ما بين سكرتير المدير وموظفة لديه ، وان احزانه ليست [إلا] هامشاً مهملا لحياة هؤلاء الناس الغارقين في اللامبالاة والهموم الصغيرة الجانبية قياساً لهموم الوطن والناس الملتزمين بهـــا حتى الموت .

ولكن قصة « المغول » ، التي تعود إلى شكل تجاوزه الغيطاني ، هو شكل استلهام التاريخ مع اضفاء طابع الحداثة عليه ، تنفرد بين قصص المجموعة الأخرى بالضياع وعدم التأثير . بينما تتصدر القصص « الظمأ » و « شكاوى الجندي الفصيح » .

جمال الغيطاني كما يبدو ما يزال حائراً بين الواقعية وبين الفن الحديث ، مما يجعل التفاوت واضحاً في قصصه من حيث الجودة . هذه الواقعية تفقد أحياناً قصصه بريقها وعاطفيتها فيشعر المرء أن الكاتب حيادي تجاه الأشياء — وبالتأكيد هو ليس كذلك — وأنه يسير مجريات الأحداث من الخارج فقط ، وفي موضوعية باردة أحياناً إلى حد مثير للاستغراب .

لكن جمال الغيطاني يظل موهبة قصصية صاعدة باستمرار تحاول بأصالة أن تشق لنفسها وللقصة العربية المصرية طريقاً جديداً ينتقل من الخاص إلى العام ، ومن المحليـــة إلى الإنسانية .

* * *

خواطر أدبية

(١)

بين ثقافتين

على هامش الترجمة

الدكتور ابراهيم الكيلاني

تسود العالم اليوم ثقافتان متناقضتان لكلٍّ منهما أنصارها ومريدوها ، والمتعصبون لها أو عليها : تقليديةٌ وهي مجموعُ ما انتقل الينا من تُراث فكري وروحي عَبْرَ الأجيال وتتصفُ بالمحافظة والحرص على الديمومة وسط عالمٍ يشهد تطوراً سريعاً في أنماط الحياة ، وانهياراً متسارعاً للقيمِ القديمة . ولئن كانت المجتمعاتُ بحاجةٍ إلى هذه الثقافة ضماناً لاستقرارها واستمرارها فان سَيْرَ التاريخ بدأ يزحمها ويُضعفها

ويفرغها من محتواها . ولا ريب في أن المعاقل الحقيقية لتلك الثقافة هي المدارس والجامعات حيث تدرَّس الآثارُ الأدبية الفذَّة التي كتبها أُناس « كرّستهُمُ » العرفُ العادة ، واعترافُ أجدادنا لهم بالنبوغ والعبقرية . فوجب على الأجيال ، في كل زمان ومكان احترامُ تلك الآثار وتقديسُها .

وقد أثبت الواقع والتجربة أن هذه الثقافة في الشكل الذي تقدمُ فيه أبعدُ من أن تكونَ ذاتَ تأثيرٍ موضوعي على أجيالنا الصاعدة ، فان المفاهيم التي تحرِصُ تلك الثقافةُ على ترسيخها في الأذهان لا تلقى ، كما يأملُ أنصارُ التقليد ، تجاوباً مثمراً مع شعور جيلِ أواخرِ القرن العشرين ، وملكاتهم العقلية وتصوراتهم الذهنية ، فهي ثقافة غريبةٌ عنهم لا تُخاطبُ عاطفةً ، ولا تنمي ملكةً ، ولاتعمقُ وجداناً ، فهي اصطناعيةٌ كتبيةٌ تعيش في منأى عن التجربة الحياتية المعاصرة والواقع المعيش ، ثم إن امتلاكَ الحيل القديم ناصيةَ هذه الثقافة التقليدية وما تحتويه من بيان ولغة تدّعي الأصالة وحقائقَ يضمنُها تُراثٌ غنيٌ متشعب ، لايغيّر من هذه الواقعة المؤلمة .

ونجد إلى جانب الثقافة التقليدية المثقلة بالموروثات والعاجزة عن مسايرة المدّ الحضاري الحديث ، ثقافةً أخرى هي الثقافة العلمية القائمة على التقنية التجريبية والرياضية ، وهي ثقافةٌ رائجة ، آخذةٌ في التوسع على حساب الثقافة التقليدية مُستقطبةً اهتمامَ الجماهير ومستأثرةً بإعجابهم حتى باتت المقارنةُ بين الأدبي والعلمي ميداناً للمقايسة في الذكاء والمواهب بل التفضيل بين التفوقين العقلي والنقلي ، وإذا كانت الثقافة التقليدية تخبّش الواقع وتُبعد عن الحياة كما يدعي خصومها فان

الثقافة العلمية البحتة بمحاكاتها المجردة وبُعْدها عن استبطان الفعالية النفسية ، تُفقرُ الروح ، وتجفّفُ منابع الإحساس ، ومن المعلوم ان مسارَ التفكير العلمي يقوم على وضع القوى العاقلة المفكرة في خدمة ظواهر الطبيعة ، بُغْيَةَ استنباط الأقيسة والقوانين حتى اذا طال الزمنُ امتص التفكير العلمي طاقةَ الإنسان الروحية أو حال دون تجميعها وامتدادها وغدت الثقافة الفكرية والروحية عملاً هامشياً ، ومجموعةً من الأفكار الخيالية والعواطف المبهمة ، والألفاظ الطنّانة في حين أن العلم في نظر العلميين يرتكز على قاعدة صلبة وأقيسة واضحة لا تنكر ولا تُدحض .

إن مثلَ هذه الأفكار السائدة سواءً ما له علاقة بالثقافة التقليدية أو العلمية تدل على تحول ينذر بالخطر الذي يهدد الإنسان المعاصر في إنسانيته ، وفي رأيي أن الثقافة العلمية التقنية بوقوفها عند حدّ الكشف والاختراع العلميين وباحلالها الكشفَ الخارجيَّ للأشياء والكائنات مكان المشاركة النفسية والاتصال الروحي قد ادخلت الفسادَ على الحضارة وشوهت العقولَ ووسعت الفجوةَ بين العلم والأخلاق تلك الفجوةُ التي بدأ الإنسان المعاصر يعاني أخطارها ومآسيها .

على هامش الترجمة

لاشك في أن الفعالية الذهنية والنتاج الفكري في الشرق العربي مُمثلان اليوم في ترجمة الآثار الأجنبية إلى العربية ولا نغالي إذا قلنا إنّ بعض الكتب المؤلّفة إن لم يكن جلّها يمتُّ بصلة بعيدة أو قريبة إلى

الفكر الغربي سواء بالاقتباس الحذر أوالمحاكاة المتحفظة أو المسخ الوقح أو السّرَق المفضوح .

وقد يتساءل المرء بعد أن انتزعت لبنان من مصر مبادرةَ النشر والتوزيع في العالم العربي عن جدوى هذه المترجمات وأثرها في تكوين الذهن العربي وإغناءِ عقلية الانسان العربي المعاصر إذ لم يروِ التاريخ عن أمة هجمت بمثل هذه الضراوة على نتاج غيرها من الأمم ، شوقاً إلى المعرفة ، وطلباً للعرفان كما يفعل العربُ الآن ، وهذا ، لعمري ، شيء محمود ، ومتمنّى تُغْبط عليه الشعوب المتخلفةُ ، والآخذة باسباب التقدم والارتقاء ،والشعوب العريقة بالحضارة على السواء ، لولا أن غلبت على حركةِ الترجمة عندنا نزعةٌ تجاريةٌ أخضع فيها الكتاب المترجم إلى دوافع واعتبارات وموازين هبط فيها المفهومُ العلمي والرسالة الثقافية الحضارية التي يبشّر بها الكتابُ إلى الدرك الأسفل .

ولعل أهمَّ ما جنى على الكتاب المترجم ما يسميه أربابُ النشر اليوم « السوق » . وكلمةُ السوق هذه مقرونةٌ بالاستغلال والسرعة وانتهاز الفرص في توفير الربح وقطع الطريق على المنافسين . وقد حدثني من أثق به عن مسار عملية الترجمة التي تتمُّ في قطر عربي مجاور فقال : يصدر الكتاب الأجنبي في بلدٍ أوروبي أو اميركي فيصلُ بعد بضع ساعات إلى بلد عربي فيعمد الناشر إلى تقطيع أوصالِ الكتاب وتقسيمه إلى ملازم يُعطى كلُّ مترجم ملزمةً أو أكثر فلا يمضي أسبوع إلاَّ والكتاب قد تُرجم وطُبع ووزع وغزّا السوقَ المحلية والعربية في أيام معدودة ، وقد ثبت أن كتباً أجنبيةً وصلت مترجمةً إلى القارىء العربي قبل أن يقرأها أهلُها في بعض البلدان البعيدة عن العاصمة !

ولا تَسَلْ بعد ذلك عن قيمة الترجمة الموضوعة بين أيدي القُرَّاء ، فهي ، على الغالب ، مزيجٌ من أساليب مختلفة تتراوح بين المتين ذي العبارة العربية المصقولة ، والاسلوب الحرفيّ الركيك ، والاسلوب الضعيف المتهافت المُخلّ بالمعنى والمبنى . فأين نحن من ترجمة تتولاّها فئة ممتازة ملكت ناصية اللغتين يكون فيها الأثر المنقول من لغة إلى أخرى هو الرابح كما يريد الأمناء المتشددون ؟ بل أين نحن من ذلك التعريف للترجمة الكاملة الصحيحة وهي إصفاق المعنى الأصلي من لغة إلى أخرى بحيث يتشابه الاسلوبان مع احتفاظ النص المُتَرْجَم بطلاقة النص الأصلي وانفتاحه ؟

ولعلّ أسوأ ما ابتليت به الترجمة من الواغلين عليها سيطرةُ ما اسميناهم الحَرْفيين الذين تأبطّوا المعاجم وأغاروا على روائع الفكر الأجنبي يُعملون فيه تشويهاً حتى فقدت تلك الروائع المثخنة ملامحها الأصيلة وأوصافها الجميلة . وقد دأب هؤلاء ومَنْ هم وراءهم على ادعاء الأمانة والدقة فيما ينقلون ، واذا ما داخلك الارتياب فيما يدّعون اثبتوا لك بالشواهد القاطعة المطابقة الحرفية بين النصّين ، وغيرَ عالمين ان مماثلة الترجمة للاصل ليست معادلةً لغوية فقط ، ولا حصيلة ارتباط صلتين ثنائتين هما النص الأصلي والنصّ المترجم ، أو المؤلّف والمترجم ،بل تقوم المطابقة على ثلاثة دعائم هي : **المؤلّف والمترجمُ ثم القارىءُ** الذي من أجله تمّت الترجمة ، والذي من حقه ان يفهم ويستمتعَ ويستفيد . ويبدو مع الاسف أنه هو المغبون حيناً والمخدوع أحياناً .

الأدب والصحافة

من الشائع المعروف أن اغلب الأدباء الذين نعُموا ببعد الصيت وسيرورة الاسم جاؤا إلى الأدب عن طريق الصحافة أي أنّ هذه كانت لهم بمثابة مدرسة تعلموا فيها إلى جانب انتظام مواعيد الكتابة ، أساليبَ البيان والتعبير السهلَ في مخاطبة الجماهير ، واستثارةَ القريحة في مناسبات مُنْتَظَرَة أو مفاجئة ، والاستجابةَ لدواعي الظروف التي يفرضُها العملُ الصُّحُفي .

واذا امعن الباحثُ النظرَ في الأسلو بين الأدبي والصُّحُفي وجد أنّ ما مِنْ صفة في أحدهما إلاّ وفي الآخر نقيضُها ، فالمزاج الصُحفي مزاجٌ ناريٌ ، سريعٌ ، موآت ، يقرب من الاندفاع والانجال في حين أن مزاج الأديب بطيءٌ ، متردّد أقربُ إلى التأمل والتقدير والامعان في استعراض الفكرة وتلمُّس وجوهها المختلفة ، وفي الوقت الذي يتعمق الأديب في دراسة موضوعه ، مراعياً في ذلك مقتضيات المعنى والمبنى في عملية إصطفائية شاقة أو تركيبية معقدة نجدُ أنّ أولى مزايا الصُحُفيّ الناجح القدرةُ على الامتصاص واستيعاب الأشياء والقضايا والحوادث الحالية بنظرة سريعة ينتج عنها حلولٌ سريعة مناسبةٌ لها .
واذا كان للأديب أن يقف موقفَ الإلتزام تُجاه القضايا أو المباديء أو المثلُ التي آمن بها ، أو المناداة بها ، أو الدفاع عنها فإنّ مثل هذا محرّمٌ على الصُحفي حتى في القضايا التي يُطلب إليه فيها أن يختار بين رأيينْ أو حلّيْن مما يكثر وقوعه دوماً في القضايا الإنسانية المتشابكة ، ذلك أن قارىء الصحيفة يَنْشُدُ رأياً وموقفاً معيّناً في القضايا التي يقرأ

عنها وتشغل باله والتي أوكل إلى صحيفته المفضّلة الدفاعَ عنها وصيانتها ، فعلى الصُحفي إذاً أن يقدم هذه الحلول والآراء بصورة مُرضية لاتدع مجالاً للريبة أو الضعف أو اللبْس ولو خالف بعمله هذا ، الحقيقةَ ومنطق الحوادث والتاريخ . إن القاءَ نظرةٍ سريعة على أعداد صحيفة قديمة تُظهر من خلال زاوية التراجع الزمني صدقَ ما ندّعيه .

اما الأديب فعليه أن يسير دوماً في خط المبدأ أو المذهب الذي اعتنقه وعُرِفَ به فَيَتَتَبَّعَهُ قُراءُه مهما كانت الظروف فهو في نظرهم القائدُ والدليل ، وهو البدايةُ والنهايةَ . وثمة فارقٌ آخر بين الأديب والصحفي وهو أن هذا يعتمد على الواقع الآنيّ الذي حرّك فضوله أو اهتمامه فعليه أن يستنفد هذه المادة الحساسةَ السريعةَ العَطب قبل أن يُعفيّها الزمن أو تطويها الساعات فتمسي عتيقةً باليةً لاروحَ فيها ، في حين أن الأديب يختزنُ المشاعر والمشاهد والصور في سبيل استعمال مُقبل قد يطول ميعادهُ أو يقصرُ وهذا ما حدا بالشاعر غوته إلى القول : « إذا استطاع الشاعر الإستيلاء على الحقيقة في الحاضر ، واذا عالج ما عُرِض عليه آنياً اي في الوقت الذي يكونُ فيه الانطباعُ طازجاً فهو سيعمل حقاً شيئاً جيداً واذا صادف وفشلَ في ذلك فهو لم يفقدْ شيئاً » . أي أن الانطباع يكون قد ثبت في الذاكرة الواعية والقوى العاقلة متخذاً مكانه لحين الحاجة ، فهو على كلِّ حالٍ لم يَضعْ .

واذا كان الاعتماد على الآنيّ السريع من صفات العمل الصُحفي فان هذا العمل يظلُّ ناقصاً ، بعيداً عن الكمال في أغلب الأحيان أي أنّه لم يستكمل نصيبه من العناية والاتقان لأن الأثر الصُحفي قصيرُ العُمر ، مُعرَّضٌ للزوال بخلاف العمل الأدبي المفروض فيه التنميقُ والتصنيعُ

والزينةُ والتأنقُ في الأفكار والاسلوب، وذلك أن الأديب عندما يبلغُ أشُدَّهُ ويتّجهُ نحو الاكتمال المُبدع يبخلُ على الصحيفة بكنوزه، فلا يُعطيها أحسن ما عنده بل يدّخرُه لكتبه وآثاره الحالية أو المقبلة، واذا كان الصُحُفي يتجاوب ومؤثراتِ الحوادث وأصداءَ الوقائع فيُعطيها أثمن ما عنده فانه يدّخر عندما يؤلف كتباً ما يَفْضُلُ من هذا المحصول بخلاف الأديب الذي يعمل في الصحافة فإنه يستبقي لآثاره الكُتُبية الزُّبْدةَ ويَدَعُ الزَّبَد للصحافة حتى الانطباعات العابرة والمشاعر الطارئة والإيحاءات الآبقة والأحاسيس الشاردة فإنه بها لضنين .

« يتبع »

* * *

في المكتبة الغربية

حول ترجمة الدكتور الكيلاني لكتاب «تاريخ الأدب العربي»

للمستشرق الفرنسي رجي بلاشير

لقد كلف الدكتور ابراهيم كيلاني نفسه مهماً عسيراً حين ندب نفسه لترجمة « تاريخ الأدب العربي » للمستشرق الفرنسي بلاشير . ولا شك أنه بذل في الترجمة جهداً كبيراً ، وكان جهداً مشكوراً .

فأسلوب بلاشير أضاف إلى دقة اللسان الفرنسي ومنطقيته دقة ومنطقية وحذراً وتحفظات وإيجازاً وإشارات ووسواس الخلق العربي . فغير غريب أن تعسر ترجمته وأن يتعثر من يتصدى لهذه الترجمة . وإذا كنت هنا أقف على هامش الكتاب وترجمته مقدماً بعض التعليقات والملاحظات ، فلكيلا يمر هذا الكتاب الخطير دون أن يلحظ ، وكنوع من العون الأدبي ، هذا إذا كنت مهيأ لمثل هذا العون .

(١) وأول ملاحظة أقدمها هي :

إن علامات الترقيم ليست حلى تنثر في أثناء النص المكتوب هكذا فوضى . ، لا إن لها وظيفة غاية الخطورة . فهي تقع عند مفاصل التفكير ولفتاته . فتكون عند المفاصل الأساسية على نحو ، وعند الثانوية على نحو آخر ، وعند لفتات التفكير الكثير المختلفة على أنحاء مختلفات . وكذلك أمر الفقرات . فكل فقرة هي دفعة كاملة من التفكير ذات بداية ونهاية ، ولكنها وثيقة الصلة بالدفعات الأخرى . إنها ، ولا بأس بهذا التشبيه ما دمنا في صدد الشعر العربي القديم ، بعير بقطيعته أو جملة في قطار ، والعقل هو سائق الأظعان. فاذا وضعت علامات الترقيم في مواضعها كانت معالم تهدي القارىء وتيسر له الفهم ، أما إذا بعثرت دون التقيد بوظائفها فإنها تصبح أداة تضليل ، ويكون إهمالها خيراً من إثباتها . .

وكم كان يود المرء ، وقد حاول الدكتور الكيلاني أن يحذو في ترجمته حذو النص الفرنسي ، لوانه فعل الشيء نفسه إلا فيما تقتضيه العبارة العربية ، بالنسبة لعلامات الترقيم ووصل الفقرات وفصلها ؛ ولكنه للأسف أهمل ذلك في مواضع كثيرة . ولتبيان هذا الإهمال اكتفي بمثال واحد مأخوذ من مقدمة الكتاب :

فلو أخذنا الفقرتين اللتين تبدءان بـ « وقد رأينا من جهة أخرى التوقف . . » وتنتهيان بـ « . . تعكس في آن واحد حياتها ومثلها العليا » (انظر الصفحات ١٠ ، ١١ ، ١٢ من الترجمة) ، وقارناهما بالنص الأصلي (الصفحات X ، IX ، IIX) ، لوجدنا أنها أيضاً فقرتان ، ولكن الأستاذ المترجم فصل جزءاً من الفقرة الأولى ووصلها بالفقرة الثانية . ذلك مع ان الفكرتين اللتين تعبر عنهما الفقرتان مختلفتان ومتميزتان : ففي الفقرة الأولى يذكر المؤلف أنه سيقف في تأريخه الأدب العربي عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

مبيناً الأسباب ، أما في الفقرة الثانية فيعرض لتأثير الوسط على الأدب العربي وغلبة الصفة الجمعية على هذا الأدب . فإذا انتقلنا إلى علامات الترقيم وأحصينا بعضها وجدنا المؤلف قد استعمل في الفقرتين المذكورتين ثلاثاً وعشرين نقطة وإحدى وسبعين شولة ، بينما لم يستعمل الأستاذ المترجم إلا ست عشرة نقطة وثلاثين شولة ؛ والأهم من عدد هذه العلامات تغيير مواضعها وتبادل المواضع فيما بينها .

(٢) وبعد هذه الملاحظة المتصلة بالشكل ، نعمد إلى الترجمة ذاتها لعرض بعض ما نزل بها من إصابات هنية وبليغة وسنقف عند مقدمة الكتاب نستخرج منها الأمثلة . قد يوجد من يعترض على هذا الإمساك الخاص بالمقدمة العثور على الأمثلة ، بأن من يقترب من كتاب قد يجد في البداية صعوبة في الفهم ، وبالتالي في الترجمة ، حتى يأتلف مع طريقة الكاتب في التفكير وأسلوبه في التعبير لتزول هذه الصعوبة . في الحقيقة ، كان في الإمكان الاعتماد على أي فصل للحصول على الأمثلة ، بل وربما كان الحصول عليها أيسر لأن المشكلات وما يتعلق بها من تعقيد ودقة في التفكير وفروق هنية وتلاوين ستطرح في معظم الفصول أكثر مما طرحت في المقدمة . كما أن الاعتراض كان يكون وجيهاً لولا أن الأستاذ المترجم قد أعاد النظر في الجزء الأول من الكتاب حين أرسله للطبع ثانية . ولقد تلافى بالفعل بعض النقائص ، منها ما يتصل بالدقة ومنها ما يصلح خللاً فاحشاً في المعنى :

فمن النوع الأول مثلاً ما جاء في الطبعة الأولى (ص ٩ ، ١٠) : « . . ثم إن القارىء يجد بحثاً اجمالياً في الصفحات التي كتبها المستشرق غودفروا ديمونبين في الطبعة الثانية من كتابه « النظم الإسلامية » . . . ويجب ألا نهمل ، بصورة خاصة ، كتاب « مختصر تاريخ الأدب العربي » للأب عبد الجليل الذي قدم في شكل نظرات منهجية ما كان عليه الأدب العربي منذ نشوئه إلى أيامنا هذه . ومن اللازم أن نضيف إلى ما تقدم ذكره من المقالات والكتب الكلاسيكية كتاب « اللغة والأدب العربيين » للسيد بلاشير الذي جمع أول مرة بين مشكلتي اللغة والنتاج الأدبي » . فمرت عليها يد الإصلاح فظهرت في الطبعة الثانية (ص ٥ ، ٦) على الصورة التالية : « . . ثم ان القارىء يجد بحثاً اجمالياً جيداً (مزيدة) على الطبعة الأولى في الصفحات ، الدقيقة في تفكيرها ، (مزيدة) ، التي أضافها المستشرق (لا وجود لها بالطبع في الأصل الفرنسي) غودفروا ديمونبين إلى الطبعة الثانية من كتابه « المؤسسات الإسلامية » (استبدلت بالنظم في الطبعة الأولى وهي أصح في ترجمة institutions) . . . ويجب بصورة خاصة ألا نهمل (تغير مكان « بصورة خاصة » فبدل أن تتعلق بالإهمال كما في الطبعة الأولى أصبحت تتعلق بالوجوب ، والفرق في المعنى واضح . وإن كان الأولى أن يقال « وعلينا

« On accorde également une spéciale attention »« أن نولي اهتماماً خاصاً.. » و فرق بين « عدم الإهمال » و « إيلاء الإهتمام » كتاب « مختصر تاريخ الأدب العربي » الجليل (أزال كلمة الأب التي لا وجود لها في الأصل الفرنسي) الذي قدم في شكل مستحب لمحات موثقة نسبياً » ، (بدل : شكل نظرات منهجية) عما كانت عليه الآداب العربية منذ نشوتها إلى أيامنا هذه . ولا بد من أن نضيف إلى ما تقدم ذكره من المقالات والكتب المدرسية (بدل الكتب الكلاسيكية ، وربما كان مناسباً تعريب manuel بموجز) كتاب « اللغة والأدب العربيين » للسيد (لا وجود لها طبعاً في الأصل الفرنسي) بلات الذي جمع أول مرة بين قضيتي اللغة والأدب وهما قضيتان لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى (بدل : بين مشكلتي اللغة والنتاج الأدبي) » .

ومن النوع الثاني ، اي أصلاح الخلل الفاحش ، ما جاء مثلا في الطبعة الأولى (ص ١١) : « إن أولى هذه المخالفات (لبروكلمان) تضييق مفهوم كلمة « أدب » ؟ وسوف لانستبعد مجمل الآثار المكتوبة في اللغة العربية من شعر ونثر أدبي فحسب بل الآثار الفلسفية والكلامية والفقهية والعلمية . . » . فأصبح في الطبعة الثانية (ص ٧) : « ان أولى هذه المخالفات تضييق مفهوم كلمة « أدب » ، وسوف لاتعني هذه الكلمة بعد الآن مجمل الآثار المكتوبة في اللغة العربية ، وأعني بذلك الشعر والنثر الأدبي والآثار الفلسفية والكلامية والفقهية والعلمية . . » . والخلاف بين الترجمتين يكاد يبلغ درجة التضاد . وربما تكون الترجمة أقرب إلى الدقة ، وان لم تكن حرفية ، إذا كانت على الصورة التالية : « فأولا ، سنقف عند تعريف لكلمة « أدب » أضيق بكثير . فلن تدل هذه الكلمة منذ الآن على مجمل الآثار المكتوبة باللغة العربية ، اي الآثار المكتوبة شعراً ونثراً أدبياً مضافاً اليها الآثار الفلسفية واللاهوتية والفقهية والعلمية . . » (انظر النص الفرنسي ، ص VIII) .

ومن هذا النوع أيضاً ما نجده في الطبعة الأولى (ص ١٥) على هذه الصورة : « وتَنْحلُ (هكذا مشكولة) التراجم من تأييد لهذه النظرة الجماعية القائمة على عدم التمييز بين الشخصيات.. ....اذ لانملك سوى مجموعات قليلة الأهمية ولكنها ثمينة جداً لاحتوائها على نوادر وملح وحكم واستشهادات ، وبالإختصار على وثائق ذات قيمة في تأريخ العادات ولكنها عديمة النفع عند كتابة ترجمة متصلة منزهة عن الأهواء والميول الشخصية . . » ، فأصبح في الطبعة الثانية (ص ١٢) « وليس ثمة شيء ، حتى التراجم ، إلا ويؤيد الانطباع القائم على غير المميز والجماعي . . . اذ لا نملك سوى مجموعات قليلة الأهمية ، ولكنها ثمينة جداً ، لاحتوائها على نوادر وملح وحكم وشواهد ، وبالإختصار على كثل من الوثائق الثمينة جداً في تأريخ

العادات ، ولكنها على العكس ، عديمة النفع عند كتابة ترجمة « حياة » متصلة ، والتفريق بين مختلف النزعات الشخصية . . » . والتخبط في الترجمة الأولى واضح ، فهي في جزئها الأول غير مفهومة البتة ، وفي جزئها الأخير تقع في المعنى المعاكس ، إذ بينما المقصود «ترجمة حياة تمتاز بفرديتها وميولها الخاصة » نجدها تصر على « التنزه عن الميول الشخصية » . واقترح الترجمة التالية فقد تكون أكثر انطباقاً على النص الفرنسي (ص XII) : « لا شيء حتى التراجم ، إلا ويؤكد هذا الانطباع بالامتياز والجمعي . . . فليس تحت أيدينا إلا ركام من سقط المتاع ، ولكنه إلى ذلك ذو قيمة لا تقدر ، يحتوي على حكايات ونوادر وأحكام ونصوص ، وبكلمة واحدة على كتلة من الوثائق الثمينة جداً في تأريخ العادات ، ولكن جدواها ، على العكس ، تافهة في كتابة ترجمة « حياة » متصلة وفي استخلاص الميول الفرديــة . . »

(٣) أما وقد اتضح أن الجزء الأول ، وفيه مقدمته ، قد أعيد النظر في ترجمته فأصلح منها ما أصلح ، فيمكننا أن نختار بحرية من المقدمة ما نشاء من أمثلة على ما اعتور الترجمة من « علل » ؛ يشجعنا أن الإنسان أول ما يقدم على عمل يقدم بحماسة وهمة لا تفتران إلا حين يتطاول ويأخذ الملل يعمل فيها إرهاقاً وفتكاً . وليس هنا الاستقصاء وإنما هي بعض أمثلة على ما في الترجمة من نقص في الدقة يتفاوت في درجاته ، وغموض أو التباس قد يصلان إلى حد الاستغلاق ، وانحراف عن المعنى قد يضيق وقد يتسع حتى يأخذ الوجهة المعاكسة .

فن الأمثلة على مجانبة الدقة ما نجده (في الصفحة ٧) : « والطريقة المجدية حقاً ، لتطوير معارفنا عن الأدب العربي ، هي ، دون ريب ، في أن نحصي ما عرفناه عن هذا الأدب من منجزات هزيلة ، وأن نرسم لوحة لمادتنا الفقيرة ، وأن نحدد إطار البحوث المقبلة . وإذا كان على كل عمل علمي ، من حيث المبدأ ، أن يحل محله عمل آخر أكثر كمالا ، فسيؤخذ على عملي أنه صنع بسرعة ، لأنه ألف بصورة مبكرة ، وهذا ما يكون عذره وعلة وجوده معاً . » ولأننا لا نريد أن نقدم صياغة جديدة للترجمة ، إذ لكل كاتب حر في صوغ جملته ، نكتفي باقتراح عبارات قد تعطي الترجمة فضل دقة أو إيجاز . فبدلا من « . . . في أن نحصي ما عرفناه عن هذا الأدب من منجزات هزيلة ، وأن نرسم لوحة لمادتنا الفقيرة ، . . . » في مقابل النص الفرنسي (انظر ص VIII) «.. de faire un bilan de nos maigres acpuisitions, de tracer un tableau de notre pauvreté,

نقترح ما يلي : « . . . أن نحرر « جرداً » بمحصولاتنا الهزيلة ، وأن نخط لوحة بما نحن مفتقرون إليه ، » . وبدلا من فسيؤخذ على عملي أنه صنع بسرعة . . » ، في مقابل

« celui entrepris ici aura seulement contre lui de «dater »plus-vite, » ، نقترح : « فالعمل الذي نباشره هنا سيؤخذ عليه أنه « شاخ » سريعاً » (بمعنى تجاوزه الزمن ، تخطاه البحث العلمي) .

ومثال آخر على مجافية الدقة نعثر عليه (في ص ١٢) : « إن مثل هذه الطريقة تقودنا إلى نتائج مخيبة للآمال ، ولكنها الوحيدة التي تبعدنا عن الأهواء ، وتحول دون إطلاق صفة الأصالة على آثار لا تملكها . . . » . ونقترح هنا أيضاً أن (يمكن ترجمة العبارة الفرنسية حرفياً) : فنقول : ضد الريح والتيار) نستبدل بها العبارة الآتية : « . . . ولكنها الوحيدة التي توقينا ، على الرغم من كل العقبات ، من ان ننسب الأصالة لأعمال لاتنم عنها إطلاقاً . . » ، ترجمة للنص الفرنسي (ص XII) :

« .. mais elle seule détourne, contre vent et marée, d'attribuer une originalité à des œuvres qui n'en offrent point »

(٤) أما الغموض والالتباس فهما الآفة المشتركة بين كثير من الكتب المترجمة . والأمثلة عليها في كتابنا كثيرة ، منها (ص ٨) : « ويختلف تعريف الكتاب الأدبي بالنسبة للجمهور . . » ، ذلك مع أن النص الفرنسي ، (ص IX) Un ouvrage littéraire : peut se définir comme tel par rapport au public» « الكتاب الأدبي قد يحصل على الإعتراف به أنه كذلك (قد يكتسب صفته هذه) من قبل الجمهور » ، وما أتى بعد هذا النص انما هو تأكيد لهذا المعنى وبسط له .

ومثال ثان نعثر عليه (في ص ١١) ، وهو : « ولم تعد جذوة الأدب العربي إلى الاتقاد إلا في منتصف القرن التاسع عشر حين مرت النهضة في سيرها المضطرب » . فالنص الفرنسي المقابل للجزء الأخير (الملتبس) من هذه الجملة ، هو : « Cette renaissance se poursuit sous nos yeux,avec des bonheurs divers » ومعناه : « وما زالت هذه النهضة تجري تحت انظارنا ، مختلفة في سعودها » .

(٥) وأخطر من الالتباس في المعنى الانحراف عن المعنى الأصلي الذي قد يصل إلى درجة التضاد . ومن ذلك في « مقدمة » الكتاب ، التي ما زلنا عندها ، ما جاء (في ص ٩) : وليس من العسير علينا أن نتبين ما يؤدي إليه هذا التقسيم من التباسات خطيرة . » . فالأصل الفرنسي وهو : Pourrant, un long examen n'est pas nécessaire pour discerner combien cette division repose sur une confusion grave» يعني : «لانحتاج إلى طويل بحث حتى يتبين لنا على أي خلط فاحش يقوم هذا التقسيم » .

ونجد في الصفحة ذاتها ما يأتي : « والخلاصة فان بروكلمان قد طبق ، بكل بساطة ، على تاريخ الأدب التقسيمات القابلة للنقد في بعض نواحيها ، تلك التي اعتمد عليها المؤرخون ، دون أن يذكر في الوقت نفسه أن ليس ثمة تزامن بين الحوادث التاريخية والوقائع الأدبية . » . وهذا الجزء الأخير من الجملة يقابل هذا النص الفرنسي :

« . . sans se souvenir qu' enc Qocurrence il n'y a pas ensynchronisme entre les faits historiques et les faits littéraires » ومعناه : « . . . غير ذاكر أنه حتى إذا ما اتفق وقوع أحداث تاريخية وأحداث أدبية في زمن واحد فليس بينها ارتباط زماني » .

كما نقع (في الصفحة التالية) على هذه الجملة : « إننا قدرنا إذاً بانطلاقنا من اعتبارات تختلف عما ذكرناه أن من الصواب تعيين أوائل كل مرحلة أدبية وأواخرها . » وهي المقابل للجملة الفرنسية (ص ×) :

« C'est donc en portant de considérations fort différentes qu'on a éstimé devoir fixer le début et la fin de chaque période litteraire » ومعناها : « وعلى ذلك قدرنا أننا ، انطلاقاً من اعتبارات جد مخالفة ، يجب أن نحدد بداية كل عهد أدبي ونهايته » .

(٦) وهل من حاجة بعد لأمثلة أخرى مستقاة من فصول الكتاب المختلفة ؟ أليس فيما ذكرناه من أمثلة كفاية ، وبخاصة أننا لم نستنفد ما في المقدمة منها ؟ ثم إننا لم نقصد إلى النقد ، بل إلى التنبيه أولاً إلى ضرورة العودة إلى نظام « المراجعة » فيما تنشره وزارة الثقافة من كتب مترجمة ، شرط أن تكون « حقيقية » ؛ والتنبيه ثانياً إلى قيمة هذا الكتاب الذي لا يدانيه ، فيما أعلم ، كتاب آخر في تاريخ الأدب العربي والذي ينبغي أن يكون موضوعاً لدراسات ومناقشات شتى وكثيرة .

وفي الختام ، يكون من الظلم البين أن ننتقص من فضل الدكتور الكيلاني ، الذي حمل عبء نقل هذا الكتاب الضخم ، بمعان كثيرة ، إلى قراء العربية ، فأفاد أكثر بكثير مما يفيد (أو يضر) كثير ممن نصبوا أنفسهم أساتذة للغة العربية والأدب العربي وتاريخه .

ناقد عربي

۞ ۞ ۞

في المكتبة العربية

القطار

تأليف : صلاح حافظ

عرض وتحليل : رجاء طايع

في محاولة لتتبع سريعة للتيارات الفكرية والأدبية خلال ربع القرن الأخير من حياتنا الثقافية، نجد أن شعارات واتجاهات كثيرة أخذت تطرح نفسها في السوق الفكرية العربية . وغالباً ما تكون هذه الشعارات متناقضة ومتباينة ، حيث يمكننا القول إن الصفة الوحيدة المشتركة بينها هي الرابط الزمني فقط .

وتتأكد لنا هذه الحقيقة أكثر فأكثر عندما ننطلق في رؤيتنا هذه من منظور العلاقة الجدلية بين السياسة والفكر ، أو بين السياسة والأدب . فالتغيرات السياسية والإجتماعية التقدمية التي حدثت في بعض أقطار المنطقة العربية ، ساهمت إلى حد كبير في بلورة مفاهيم فكرية معينة ، وطرح معادلات أدبية جديدة ، تتمتع برصيد ثوري ذي طابع متميز ، وتقف في وجه المقولات الفكرية والأدبية القديمة ، هذه المقولات التي تشكل الركائز الأساسية للأديولوجيات اللبرالية في المنطقة العربية .

وكنتيجة طبيعية لعدم الاستقرار الفكري والاجتماعي الذي يسود المنطقة ، نجد أن كثيراً من هذه الشعارات الثورية الجديدة تبلورت دلالاتها بشكل عشوائي وارتجالي ، متضمنة مفارقات فكرية من الصعب السكوت عنها .

فمثلا شعار « الأدب الملتزم » ، الذي هو أحد أهم هذه الشعارات ، وأكثرها تداولا في السوق الأدبية ، يترادف في معناه مع تيار أدبي يلتزم القضايا الوطنية والقومية ، ويتبنى وجهة النظر التاريخية للفئات الاجتماعية المنتجة ، والمضطهدة طبقياً .

إن نظرة علمية صحيحة للمقولة السابقة ، تتكشف عن مفارقة فكرية واضحة . لأن تعبير « أدب ملتزم » شمولي وعام ، ولايصح قصره على اتجاه أدبي معين – بغض النظر عن الخلفية الفكرية والعقائدية لهذا الاتجاه – .

وكلمة «التزام» كلمة مطاطية ، لأن أي موقف فكري هو في جوهره وفي حقيقته موقف ملتزم بشيء ما ، أو بفئة ما أو بخلفية ما .

فالرومانتيكية التزام ، والعبثية التزام والعدمية التزام ، شأنها شأن الواقعية ، بمختلف اتجاهاتها : الطبيعية ، والانتقادية ، والاشتراكية ، أو أي موقف أدبي أو فكري آخر .

رأيت لزاماً على أن أتعرض لهذا الموضوع كمدخل لدراسة رواية « القطار (١) » ، لأن هذه الرواية مثال نموذجي لأدب الواقعية الاشتراكية – وليس للأدب الملتزم كما ورد على غلاف الرواية – .

تتعرض « القطار » لمرحلة كفاحية هامة في تاريخ مصر الحديث ، وتطرح قضايا وطنية واجتماعية هامة ، في حقبة كانت فيها مصر ترزح تحت نير الاستعمار المباشر من جهة ويضطهد شعبها نتيجة واقع طبقي متعسف من جهة أخرى .

تدور أحداث هذه الرواية حول قطار يحمل عدداً من السجناء السياسيين الذين ارتأت السلطات العليا في القاهرة نفيهم إلى أقاصي الصعيد ، بسبب خطورتهم ، وخطورة المبادىء التي ينادون بها ، والتي تتركز حول الاستقلال والحرية والعدالة الاجتماعية . . .

بداية الرواية ، هي بداية رحلة القطار من محطة القاهرة ، حيث تقطر عربة السجناء بالقطار الذاهب إلى الصعيد ، وتضم أربعة وخمسين منفياً ، منهم الطبيب المتمرد على طبقته الأرستقراطية ، والمثقف المتقوقع خلف أسوار غربته الذهنية ، والشاعر ابن الأرض الفقيرة

من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٧٤

والطفولة المقهورة ، والكاتب الثوري ، واللاجىء السياسي ، والعامل ، والمحامي . . . . إضافة إلى اليوزباشي المكلف بمهمة إيصالهم إلى المنفى ، بمساعدة فريق من رجال البوليس .

ويعلم أهالي المساجين بأمر النفي ، فيحاولون اعتراض طريق القطار ، ويضطر اليوزباشي للسماح لهم بمقابلة أبنائهم المساجين وتوديعهم .

وتتأزم أحداث الرواية تدريجياً ، وتتحول عربة السجناء إلى كتلة ملتهبة من الحماس ، تسري حرارتها في كل محطة يتوقف فيها القطار خلال رحلته الطويلة . ويتمكن هؤلاء السجناء بهتافاتهم وأناشيدهم الوطنية الحماسية من إشعال الشرارة الأولى لثورة شعبية ساخطة ، تعم أرجاء البلاد ، تمرداً على حالة الظلم والفقر المدقع الذي يئن تحت وطأته قطاع كبير من الشعب .

والرواية بفصولها المتعددة لوحة بانورامية شاملة ، تزدحم بالمشاهد الجزئية ، المتعاقبة بشكل سريع ، مما يجعل أية عملية لحصر أحداثها أو تحديدها صعبة إن لم أقل مستحيلة .

تشكل الأحداث العنصر الأساسي في هذه الرواية ، فهي تتسلسل بترابط زمني منطقي ، وتؤدي وظيفتها في خدمة الصراع ، ودفعه إلى ذروة التوتر ، مما جعلها العماد الأول لهيكل الرواية الدرامي والفني .

فالأحداث الجزئية الصغيرة تسهم في تأزيم المواقف ، وبلورة الصراع ، والإرهاص له ، مما يكسب الرواية حيوية أو حركية متميزة ، فنشعر وكأننا أمام كائن حي ينمو تدريجياً حتى يأخذ تشكله النهائي .

وتتجلى براعة الكاتب الفنية في إمساكه بزمام الأحداث ، وربطها جيداً رغم كثرتها وتعاقبها السريع ، مما يجعل الحبكة محكمة ، والصراع واضح الملامح ، وهذا سبب كون الكاتب لا يعتني كثيراً برسم شخصياته ، ولا يهتم بإبرازها ، وإعطائها أولوية فاعلة في البناء الفني والدرامي لروايته .

فالرواية تعج بالشخصيات الثانوية المكملة لإطار الرواية العام ، والمسخرة لخدمة الفكرة الأساسية التي يريد الكاتب إيصالها إلى القارىء ، والمتمثلة في النضال ضد الاستعمار الأجنبي ، والاستغلال الطبقي .

وتبرز من بين هذه الشخصيات الكثيرة ، شخصية اليوزباشي التي نستطيع – بشيء من التساهل – اعتبارها رئيسية ، لأنها تطل علينا في جميع فصول الرواية تقريباً .

والخاصية الملفتة للنظر في هذه الشخصية ، انها شخصية نامية تسهم الأحداث في تطويرها ، وإغنائها باستمرار بأبعاد جديدة :

١ – ففي البداية نتعرف على اليوزباشي المتقوقع خلف أسوار تجربة عاطفية ذاتية ، تفرضه كإنسان يتمتع بقدر كبير من الرهافة المرضية . وينطلق في رؤيته للحياة من خلال تجربة حب وحيدة انتهت بالزواج ، فالكون بالنسبة له يتمحور عند « هذه المخلوقة العاجية الصغيرة ، ذات الجسد الضئيل ، هي كل التجربة ، والمعرفة ، والمخاوف والأحلام في حياته . وطوال عدة سنوات مضت لم يتح له غرامها أن يفكر كما يفعل الناس في المستقبل ، والسياسة ، والصحف ، والثروة . أو حتى الموت . فقد كانت قصته معها أول معركة ، وآخر معركة واجهت شبابه . »

فهو بعيد عن الحياة العامة ، وينظر إليها من خلال امرأة ، ويؤمن أن كل ما يمت إلى العالم الخارجي لا علاقة له به ، أو لا يمسه صميمياً .

تمثل رحلة القطار بما تحمله من مفارقات ، حدثاً فريداً في حياة هذا اليوزباشي ، الذي يشعر بعد أن يكتشف المأزق الحرج الذي وضع فيه ، وطبيعة المهمة الخطرة التي أسندت اليه أنه « ضائع في محيط هائل ، وبأنه فقد كل شيء : غرامه ، ومستقبله ، وماري ، والقصص التي كان سيرويها لتضحك . وبدت له الهتافات التي تطرق أذنيه . . . طلقات مصوبة كلها إلى سعادته ، تدمرها في قسوة ووحشية . . .

إن الباب الذي بينه وبين هؤلاء المتمردين لن يحميه منهم كما كان يظن ، ولكن هل يستسلم ؟ هل يترك نفسه للمصير الذي يرسمونه ؟ محال ! إنهم يهددون كل سعادته . يريدون أن يدمروا في لحظات كل ما يعيش من أجله . ولكنه لن يستسلم . . . لا يمكن أن يستسلم . وسيعرف كيف يدافع عن نفسه . سيعرف كيف يقهرهم . »

٢ – وتكون بداية التحول في شخصية اليوزباشي ، عندما يدرك أن مساجينه ليسوا أشراراً كما كان يعتقد ، فهاهم يطلقون أصواتهم في أغنية وطنية جميلة ، تعاطفاً منهم مع طفلة في الخامسة من عمرها ، تقف وراء إحدى نوافذ بناء يطل على القطار الواقف في منطقة الورش ، قبل دخوله محطة القاهرة . . وها هي الطفلة البريئة تلوح لهم بيديها الصغيرتين ، فلا يملكون إلا أن يبادلونها تحيتها الحارة . . .

لقد مست إنسانية هذا الموقف أعماق اليوزباشي ، وفرضت عليه تساؤلات عديدة تتعلق بهؤلاء المتمردين وبموقفه منهم « ما نوع هؤلاء الرجال الذين يستطيعون وهم وراء القضبان

في الطريق إلى مصير مجهول ، أن يغنوا لطفلة ؟.. لقد كانوا منذ لحظات يملأون الدنيا بصراخ رهيب يعرفون أنه يهدد مستقبله ، وها هم الآن يتحولون إلى رقة الملائكة ، ويقولون كلاماً جميلا لا يملك الإنسان إلا أن يحبه . . . لم يكن يعرف تماماً نوع الفرق بين هذه الأغنية وبين الهتافات التي يرددونها ، ولكنه كان يشعر أن الأغنية لا تهدده . . . وربما لأنها أغنية ... ولأنها كانت تقال لطفلة . . . ولأن الليل والهدوء ، وظلال الواقفين في نوافذ البيت الكبير ، كانت كلها توحي بالوداعة والسلام . . . »

٣ — إلا أن هذا التحسس العاطفي المباشر للمشكلة يبلغ ذروته ، عندما يدخل القطار محطة القاهرة ويجتمع أهالي السجناء حوله أملا منهم في مشاهدة أبنائهم ، وإلقاء نظرة الوداع عليهم ، وفي خضم هذا الزحام يلمح اليوزباشي فتاة شابة « صافية البشرة كالبلور . ينسدل شعرها ناعماً على كتفيها ، وتكاد تكون نسخة أخرى من زوجته » تتلفت أمامها حائرة ، والدموع تترقرق في عينيها ، فيجد نفسه يندفع نحوها بحركة غير إرادية ، ويسألها عن السجين الذي تبحث عنه ، ويقف منادياً بالإسم الذي ذكرته ، ويفسح لها الطريق إلى احدى النوافذ لتلتقي بمن جاءت من أجله . « وتراجع اليوزباشي بعد ذلك عائداً وهو يسأل نفسه : كيف فعل هذا ، وهو يعلم أن عيوناً كثيرة تراقبه وترصد حركاته ؟.. إنه لا ينفعل عادة بآلام الناس ولا يفهمها عندما ترتسم على وجوههم . . ولكن ذلك الشبه الصارخ بين الفتاة وزوجته» إن الألم هذه المرة يرتسم على ملامح مألوفة لديه ، الألم الآن غير بعيد عنه ، فهو يتحسسه ويفهمه ، لذلك كانت استجابته العفوية هي محاولة إزالة هذا الألم .

٤ — وتسهم الأحداث التي تتوالى بعد ذلك في تغيير قناعات اليوزباشي تدريجياً ، وإكساب رؤيته للأمور أبعاداً جديدة ، وفي النهاية ، ومع وصول القطار إلى الصحراء — المنفى ، يصل اليوزباشي إلى لحظة اكتشاف الذات من جديد بكل ما تحمله هذه اللحظة معها من الرهبة والحيرة : « إنه يذكر الآن حين ركب القطار أول مرة ، فيشعر أنه قد مضى وقت طويل جداً ، وأنه كان عندئذ أصغر كثيراً مما هو الآن ، وهو ليس سعيداً بذلك ، وليس شقياً ، ولكنه خائف .. ويخشى أن تكون هذه الرحلة قد غيرت مصيره وهو لا يدري . . .

فتنهد اليوزباشي وتراخى في مقعده . . والأغنية تطرق من بعيد أذنيه المستسلمتين ، وفي دمه مشاعر غامضة ، وذكريات ، وإحساس عميق بأنه لن يعود أبداً نفس الرجل الذي ركب القطار منذ أربع وعشرين ساعة في فناء السجن الكبير . . » .

ومما يلفت النظر في هذه الرواية تركيز الكاتب على العنصر النسائي ، واهتمامه بالإتيان

بنماذج نسائية كشخصية « محاسن » – زوجة أحد السجناء – التي تبدو لنا واضحة الملامح ، عاشت « محاسن » طفولتها يتيمة في بيت عمها « وفي هذا البيت تعلمت القراءة ، لأن ابن عمها صفوت كان طالباً في الجامعة ، مولعاً بالسياسة ، وتعليم الآخرين ، وفي هذا البيت أيضاً لم تكن محبوبة ، لأن ابن عمها أحبها فجأة ، وتزوجها رغم اعتراض الجميع . ثم فجأة أيضاً أصبح يذهب إلى السجن أكثر مما يذهب إلى الجامعة . فاعتبروها مسؤولة عن ضياع مستقبله . وبفضل ذكائها ، وقدرتها الغريبة على التلاؤم السريع مع الواقع القاسي ، تعلمت « التريكو » وعملت في أحد المصانع ، وبذلك فرضت نفسها كقولة إنتاجية ، واستعادت احترامها عند أهل زوجها ، ولا سيما وأن دخلها أصبح جزءاً هاماً من ميزانية المنزل .

وشخصية « محاسن » شخصية قيادية بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ، فهي التي جمعت طابور الأهالي ، وقادتهم إلى محطة القاهرة ، ونظمت مظاهرات الاحتجاج على ترحيل السجناء ، و « لسبب ما كان الطابور كله يؤمن بها ، ويتصور أنها تستطيع أن تفعل أي شيء ، كما يتصور الأطفال حين يؤمنون بمدرسة محبوبة » .

وتبرز أيضاً شخصية « إجلال » ، وتتنامى ضمن ثلاثة محاور :

١ – إجلال في البداية فتاة جامعية ، سليلة أسرة ميسورة مادياً ، تعاني قلقاً وجودياً بسببه الفراغ العاطفي ، والإنغلاق الاجتماعي ، مما يسبب لها ضياعاً نفسياً تنعكس آثاره على نظرتها إلى الحياة والآخرين « كان الإحساس بأنها غريبة بين الطلبة ، يلاحقها كاللعنة . . . . كانت ترى نفسها دائماً منبوذة بشكل أو بآخر ، في زحام بالغ القسوة ، لا أحد فيه يرافقها ، ولا يد تحنو عليها ، وأخيراً لم تعد تتحمل . . . وجدت نفسها مدفوعة إلى الإقدام على أجرأ خطوة قامت بها في حياتها : أن تبدأ بالحديث رجلا لا تعرفه ... » .

٢ – تتوطد علاقة إجلال بزميل لها ، يمثل نقيض ما تمثله ، وتنمو بينهما الصداقة ، وتدخل « إجلال » عالماً غريباً جديداً ، وتتعرف لأول مرة في حياتها على قيم غير مألوفة ، وتلاحقها تساؤلات حادة ملحة « عبثاً تهربين من الصراع ، إنه حولك في كل مكان ، يسد عليك الطريق ، لا تظني نفسك شيئاً ما دمت تغمضين عينيك . هل فكرت أبداً في شيء اسمه الشعب ؟... » في هذا العالم الغريب الساحر ، عاشت إجلال أعنف تجربة مرت بها في حياتها ، « تجربة الأعمى الذي يفتح عينيه فجأة – في منتصف العمر – على عالم من النور يبهره ويزعجه » .

لكن هذا التغير في شخصية « إجلال » ينقلب انغلاقاً هروبياً على الذات بعد إلقاء القبض

على زميلها الثوري ، وتعود إلى قوقعتها خلف جدران غرفتها ، وتظن بعد فترة من الزمن أنها نسيت وإلى الأبد هذه التجربة الفريدة في حياتها .

٣ — لكن رؤية القطار الواقف قرب بناء منزلها ، ورؤية هؤلاء السجناء ، وهم يرسلون أصواتهم بأغنية جميلة من أجل طفلة صغيرة بريئة تلوح لهم بيديها . . إن هذا الموقف ينكأ جراح « إجلال » ، ويعيدها بقسوة إلى ذكرياتها المنسية ، وقد أدركت أنها لن تحب أحداً سواه ، وأن عليها أن تفعل شيئاً لتخليصه من مأزقه « لا مفر من الصراع . هكذا كان يقول دائماً » ، ولكنها الآن أصبحت تفهم . وخنقتها الدموع . فاستلقت على وجهها ، تسكبها فوق صفحات الكتاب . ولكنها كانت سعيدة . كانت أخيراً قد وجدت الحب » .

فكل من شخصية « اليوزباشي » و « إجلال » تتنامى تدريجياً نتيجة محرضات خارجية — هي الأحداث بشكل رئيسي — حتى تصل إلى لحظة الوعي الكامل للذات ، أو اكتشافها من جديد .

اعتمد الكاتب في رسم شخصياته على طريقة تحليلية تصفها خارجياً وداخلياً ، مع العناية بوصف الجزئيات الصغيرة ، وهذه الطريقة تتناسب مع أسلوب الرواية السردي ، وتحقق الإنسجام والتآلف بين عناصرها الفنية .

وأسلوب الرواية واضح وبسيط ، يقوم على الوصف التفصيلي في معظم الأحيان ، مما يجعل مضمونها واضحاً ، وقريباً إلى أذهان أكبر عدد ممكن من القراء ، دون الإغراق في التسطحيـــــة .

لكن هذه الرواية لا تخلو من الميلودراما والمبالغات الفجة في بعض المواقف ، كموقف الرجل العجوز في الفصل السادس ، حيث يمر القطار تحت « كوبري شبرا » ، فتدب الفوضى ، ويسود الهرج والمرج بين الواقفين على الكوبري لدى سماعهم الهتافات الحماسية الصادرة من القطار ، ويصدف أن يتواجد على الكوبري في تلك اللحظة رجل عجوز يحمل حفيده بين ذراعيه ، ونتبين أنه ثائر قديم ، انحرف عن طريق النضال ، وتخلى طائعاً عن مبادئه الثورية منذ زمن بعيد . وتكون استجابة هذا الثائر القديم عندما يرى القطار ، ويسمع هتافات ركابه أن يقف ساكتاً ، ويأخذ باستعادة ماضيه ، هكذا بشاعرية ورهافة نادرتين . مع أن الاستجابة الطبيعية والواقعية لهذه الشخصية في موقف كهذا هي الإمساك بحفيده ، ومحاولة الخروج السريع من هذا الخضم البشري المتلاطم . إن هذا الموقف المبالغ فيه ، يثير لدى القارىء إحساساً بالافتعال وعدم التصديق .

ومن الأمور الملاحظة في هذه الرواية أيضاً أن الكاتب أورد نماذج لشخصيات كان من الممكن أن يرسمها بشكل أفضل مما أتت عليه : كشخصية « أم بدوي » مثلا التي تطالعنا في بداية الرواية . . . وتمثل « أم بدوي » نموذج الفلاحة المصرية البائسة ، والمسحوقة تاريخياً . . . والتي تدرك غريزياً أن سجناء القطار لا يعتبرون شقاءها أمراً عادياً ، وأنهم يريدون لها أن تستريح ، ولاتعود للكدح كالثور في الساقية . فشخصية « أم بدوي » لم تتمتع بحضور حقيقي في الرواية ، ولم يتعمق الكاتب في إبراز خصائصها ، رغم الزخم النفسي الكامن فيها .

وكذلك شخصية « الوزير » في الفصل السابع ، كان من الممكن أن تمثل دلالات جادة ، ومعان غنية ، تتناسب مع أحداث الرواية وموضوعها الجاد . لكنها أتت مسطحة ، وممسوخة ، وكاريكاتورية ، وذات بعد أحادي .

« القطار » رواية عقائدية بالدرجة الأولى ، تجسد منطلقات فكرية معينة ، ولكنها تبتعد ما أمكن عن المباشرة والدعاوية ، وتتحقق فيها شروط النجاح الفني ، وخاصة في ربط الأحداث المتشعبة ، والشخصيات الكثيرة ، لتؤدي وظيفتها في بناء الهيكل العام للرواية .

ويصح اعتبار « القطار » نموذجاً لأدب الواقعية الإشتراكية ، فهي تؤكد على الترابط بين النضال الوطني ، والنضال الطبقي ، وتبين أن الوعي الطبقي يترافق في نموه ، وفي تحويله إلى واقع ثوري وكفاحي من الوعي القومي ، وتتبنى وجهة النظر التاريخية للطبقات المسحوقة ، وتتجسد لنا هذه المقولة واضحة في شخصية « أم بدوي » في الفصل الأول ، وفي أحداث الفصل العاشر والفصل الحادي عشر .

وتؤكد « القطار » على أهمية النضال الجماعي ، وتتمتع بنظرة مستقبلية تفاؤلية ، تؤمن بانتصار الإنسان المكافح ضد الظلم بشتى صوره « الفصل الأخير » .

* * *

سجل المعرفة التعليمي

محو الأمية بين الماضي والحاضر
في القطر العربي السوري

سميح عيسى

ترتكز فلسفة التربية والتعليم والثقافة في ظل الثورة العربية المتكاملة المنشوده على مسلمة أساسية هي: – «التفتح الكامل لشخصية المواطن بمختلف جوانبها الروحية والفكرية والجسمية عامدة الى بعث أصالة الأنسان العربي وقيمة أخلاقه السامية التي تجلت في فترات النهوض السابقة، وغرس خلاصة التجارب البشرية من الأفكار والصفات التقدمية هادفة إلى خلق جيل عربي قادر على حمل رسالة العرب الخالدة في تقوية القيم الحضارية والأنسانية في الحق والمحبة والعدالة والبطولة واحترام كرامة الإنسان .. – »(١)

فاذا ما أدركنا أن أكثر من نصف سكان مجتمعنا العربي عامة وقطرنا العربي السوري خاصة . . أميون يجهلون القراءة والكتابة ويفقدون وسائل الأتصال بالوسط الذي يعيشون.

(١) المنهاج المرحلي لثورة الثامن من آذار صفحة ٨٩ – ٩٠

فيه .. ولو تبينا ما يؤدي اليه ذلك من عجز كبير في خلق الجيل العربي القوي القادر على حمل رسالة العرب وتحقيق أهدافها . . . لعلمنا أن مشكلة الأمية تعتبر من أخطر أعداء الثقافة . . بل من أخطر أعداء التقدم الصناعي والزراعي والإجتماعي والحضاري على الإطلاق . . . . .

لمـــاذا – ؟ !

لأنه أصبح من المعروف والواضح جداً – بعد الوقوف على تجارب الدول وبخاصة الدول الإشتراكية التي عانت من مشكلة الأمية وانتهت منها – بان التخلف الاقتصادي والإجتماعي والفكري يرتبط ويستمد بقاءه في كل مجتمع من عوامل عديدة تجيء الأمية في مقدمتها وتبقى جميع الجهود المبذولة القضاء على هذا التخلف مخفقة ما لم ترتبط بالقضاء على الأمية وقرائنها الدالة (الجهل – الفقر – المرض) ..

ولقد أصبح من المؤكد أيضاً بأن مجتمعنا العربي عامة وقطرنا العربي السوري خاصة لن يتمكن من تحدي معوقات التقدم والنمو وتحقيق تطلعاته وأهدافه الكبرى المتكاملة إلا بوضعه خارج مدار الأمية . . إذ أنه ليس مقبولاً بأي شكل من الأشكال في عصر انتصار العلم والمعرفة والنور والحرية أن يكون هنالك ٦٠ ٪ من مجموع سكان القطر العربي السوري أميـــون ..

من أجل ذلك كله أصبحت مشكلة الأمية في قطرنا العربي السوري تشغل بال القيادات والجهات الرسمية وغير الرسمية بالوقت الحاضر وتعمل جاهدة على انهاء هذه المشكلة (بدراستها وبوضع الحلول واتخاذ الخطوات والقرارات الجادة الفعالة للقضاء عليها بعـــد صدور القانون الجديد لمحو الأمية رقم ٧ لعام ١٩٧٢) مستفيدة بذلك من تجارب الدول والمنظمات والهيئات العالمية والعربية . . . . .

حجم مشكلة الأمية في القطر العربي السوري : (١)

تختلف نسبة الأمية باختلاف الجنس وفئات السن والأنشطة الإقتصادية .. الخ وفيما يلي بعض الإحصاءات الرسمية التي توضح تطور مناشط محو الأمية خلال الفترة الواقعة بين عـــام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ ومعالم حجم المشكلة وأبعادها في الوقت الحاضر . . . . . .

(١) جميع الإحصاءات الواردة معتمدة من قبل المكتب المركزي للاحصاء بدمشق نتيجة للتعداد العام في القطر عام ١٩٦٠ – وعام ١٩٧٠ .

الجدول رقم ١ – نسبة الأمية بين مجموع سكان القطر حسب تعداد عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠

عدد السكان حسب الجنس		المجموع العام		نسبة الأمية حسب الجنس		النسبة العامة	
عام ١٩٦٠	عام ١٩٧٠	عام ١٩٦٠	عام ١٩٧٠	عام ١٩٦٠	عام ١٩٧٠	عام ١٩٦٠	عام ٩٧٠
٢٣٤٤ذكور ٢٢٢١أناث	٣١٤١ذكور ٣٣١٠أناث	٤٥٦٥ الف نسمة	٦٤٥١ الف نسمة	٤٣٪ذكور ٧٧٪أناث	٣٦,٨ذكور ٧٣,٧أناث	٦٠٪	٥٥٪

الجدول رقم ٢ — نسبة الامية حسب الجنس وفئات السن عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠

فئات السن	نسبة الأمية بين الذكور		نسبة الأمية بين الإناث		نسبة الأمية في الجنسين	
	عام	عام	عام	عام	عام	عام
	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٧٠
١٠-١٤	٢٥٪	١٦٫٢٪	٦٥٪	٥٠٫٣٪	٤٤٪	٣٢٫٣٪
١٥-١٩	٢٨	٢٢٫٢	٧١	٦١٫٣	٥٠	٤١٫٣
٢٠-٢٤	٣٣	٢٤٫٧	٧٩	٦٧	٥٦	٤٥٫٢
٢٥-٢٩	٤١	٢٧٫٩	٨٥	٧٤	٦٤	٥١٫٩
٣٠-٣٤	٤٧	٣٤٫٥	٨٦	٨٠٫٩	٦٦	٥٨٫٣
٣٥-٣٩	٤٧	٤٤٫٤	٨٨	٨٦٫٣	٦٧	٦٥٫٣
٤٠-٤٤	٥٤	٦٧٫٦	٩١	٩١٫١	٧١	٧٨٫٧
٤٥-٤٩	٦٠	٥١	٩٢	٩٠٫١	٧٤	٦٩٫٤
٥٠-٥٤	٦٧	٥٩٫٧	٩٤	٩٣	٨٢	٧٥٫٦
٥٥-٥٩	٦٧	٦٣٫٢	٩٣	٩٣٫٩	٨٠	٧٧٫٧
٦٠-٦٤	٧٠	٧٣٫٣	٩٦	٩٦	٨٤	٨٤٫٨
٦٥-٦٩	٦٨	٧٤٫٢٠	٩٥	٩٦٫١	٨٠	٨٥٫٢
٧٠-٧٤	٧٣	٧٦٫٧	٩٦	٩٧٫٢	٨٥	٨٧
٧٥ فأكثر	٧٥	٧٩٫٣	٩٦	٩٨٫٢	٨٥	٨٨٫٦

= يلاحظ من الجدولين السابقين رقم ١ ورقم ٢ بكل وضوح التالي :

– ان عدد سكان القطر عام ١٩٧٠ أكثر بكثير من عام ١٩٦٠ وهذا يعود لأسباب متعددة منها « ارتفاع نسبة المواليد – انخفاض نسبة الوفيات – الوعي الصحي الجيد والتقدم الواضح في مجالات الحياة . . الخ » .

– ان نسبة الأمية قد انخفضت من ٦٠ ٪ عام ١٩٦٠ إلى ٥٥ ٪ عام ١٩٧٠ وهذا يعود إلى أسباب متعددة من أهمها :

آ – التوسع في عدد المدارس الإبتدائية .

ب – الازدياد المستمر في نسبة من يقبلون في المدارس ممن هم في سن التعليم الإلزامي . .

ج – انتشار الوعي بين المواطنين بمختلف فئاتهم والسعي المستمر وراء التعلم .

د – ارتفاع نسبة الوفيات في بعض فئات السن العالية التي تنتشر فيها الأمية بشكل ملحوظ . .

هـ – الجهود المتنوعة المحدودة في ميدان محو الأمية من قبل كافة الجهات العاملة الرسمية وغير الرسمية . .

– لاتزال نسبة الأمية بين مجموع السكان تعتبر عالية . . ولم تنخفض خلال عشر سنوات إلا بنسبة ٥ ٪ فقط وهذا يعود إلى أسباب كثيرة سيتم ذكرها فيما بعد . .

– ان نسبة الأمية تنخفض كلما كانت الفئة المدروسة من عمر أصغر وهذا يعود إلى التوسع في تطبيق قانون التعليم الإلزامي خلال السنوات الماضية . .

– كما يلاحظ ان نسبة الأمية بين الإناث ترتفع أكثر عن نسبة الأمية بين الذكور . وهذا يعود إلى أسباب كثيرة من أهمها الظروف الإجتماعية والإقتصادية والمعيشية للمواطن والإسرة والمجتمع بالإضافة إلى بعض التقاليد والأعراف والمفاهيم البالية وإلى تركيز الجهود في سنوات التخلف القديمة إلى حرمان المرأة من كافة الحقوق « حق التعليم – حق الإنتخاب – حق الترشيح . . الخ »

نشأة محو الامية في القطر العربي السوري وتطورها . . مجالاتها . تشريعاتها :

اتجهت الأنظار في قطرنا عقب الحرب العالمية الثانية وفور جلاء الأجنبي عنها إلى وجوب نشر التعليم الابتدائي وإلزاميته . . . بحيث يشمل جميع المواطنين والمواطنات وصدرت

تشريعات مختلفة في هذا الصدد . . . ولكنها لم تقو على تطبيقه ولا على وقف تيار الأمية المتصاعد لعوامل مختلفة من أهمها (العوامل السياسية – والاجتماعية والاقتصادية . . الخ) .

– ثم أوجب الدستور الصادر عام ١٩٥٠ محو الأمية في جميع أرجاء القطر العربي السوري خلال عشر سنوات جعل فيها (آنذاك) كل وزير للمعارف مسؤولا شخصيا عن تنفيذ ذلك ولكن انقضت السنوات العشر ولم تشهد بلادنا عملا جدياً ولا شبه جدي في هذا المجال باستثناء ما تم تحقيقه من التوسع في افتتاح المدارس الابتدائية وتيسير سبل ارتيادها للكثير من الأطفال في سن الدراسة غير أن عدد المدارس لم يكن كافياً بحيث يجد كل طفل مكاناً له في المدرسة وحيث يحمل ولي كل طفل على إرسال طفله اليها . . .

– ثم درس مجلس رعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية مشكلة الأمية في القطر وأقر في أواسط عام ١٩٦٢ توصيات تقدمت بها إحدى لجانه الفرعية – في تقارير – عالجت فيها واقع الأمية في سورية وطرق مكافحتها والوسائل الفنية اللازمة لذلك . . ولكن لم تنفذ توصيات المجلس لأسباب كثيرة منها « عدم الشعور بمشكلة الأمية وخطورتها وأبعادها الحقيقية . . . » .

– واستلمت وزارة الثقافة منذ إنشائها عام ١٩٥٨ من وزارة التربية (التي كانت مسؤولة رسمياً عن محو الأمية) مهمة محو الأمية (وذلك بناء على القرار بقانون ١٩٧ تاريخ ١٩٥٨/١١/٢٣ وتعديلاته الصادر عن رئاسة الجمهورية في ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٨ بشأن تنظيم وزارة الثقافة والإرشاد القومي وإلحاق بعض الإدارات فيها .

– وبموجب قرار وزير الثقافة والإرشاد القومي رقم ٨٧/ و لسنة ١٩٦١ في شأن تنظيم وزارة الثقافة . . أحدثت دائرة مكافحة الأمية وألحقت بمديرية الثقافة الشعبية – وعين عدد من الموظفين فيها كما يلي :

« رئيس دائرة + معاون رئيس شعبة + كاتب أول »

وحددت مهامها على الوجه التالي : « – تتولى دائرة مكافحة الأمية ما يلي :

آ – إعداد برنامج مفصل لمكافحة الأمية والقضاء عليها وتقديم المقترحات اللازمة لتحقيق هذا الغرض .

ب – التعاون مع سائر الوزارات والإدارات والمؤسسات والجمعيات على تحقيق برنامج مكافحة الأمية وبخاصة مع وزارات التربية والتعليم والعمل والشؤون الاجتماعية والأوقاف .

جـ – القيام بحملة واسعة من الدعاية لحث المتعلمين من الشباب على التطوع لمكافحة الأمية .

د – تتبع فعاليات جمعيات مكافحة الأمية وتنظيم نشاطها وتقديم المساعدات الأدبية والمادية لها .

هـ – العمل على تأليف كتب صالحة لمكافحة الأمية وتقديمها مع وسائل التعليم الأخرى مجاناً أو بأثمان زهيدة . . .

– ثم صدر القرار الوزاري رقم ٣٧٩/و تاريخ ١٩٦٥/٨/٢٢ في شأن احداث وتنظيم صفوف لتعليم الأميين وكان كالتالي :

« قرار رقم ٣٧٩ / و »
في شأن إحداث وتنظيم صفوف لتعليم الأميين (١)

المادة ١ – يحدث في محافظات الجمهورية العربية السورية صفوف لتعليم الأميين في دورات تعليمية تعين مواعيدها ومدتها ويحدد عددها في كل محافظة بتعليمات يصدرها وزير الثقافة والإرشاد القومي في مطلع كل دورة تعليمية .

المادة ٢ – تستخدم المدارس الرسمية وغيرها من الأبنية الصالحة للدراسة مقرات لهذه الصفوف وذلك بالاتفاق مع الهيئات المعنية في المحافظات التي يراد إحداث صفوف لتعليم الأميين فيها .

المادة ٣ – يتولى إدارة هذه الصفوف والتعليم فيها معلمون يختارون بتفويض من الوزارة من قبل مديري رؤساء المراكز الثقافية من أعضاء الهيئة التعليمية في وزارة التربية أو غيرهم في المقرات التي تحدث فيها الصفوف ويباشرون أعمالهم في المواعيد التي تحددها الوزارة على أن توافي الوزارة فيما بعد بقائمة بأسمائهم وصفاتهم لاستصدار القرارات اللازمة بتكليفهم من وزير الثقافة والإرشاد القومي .

المادة ٤ – يتولى معلم الصف إدارة صفه ، أما في المقرات التي يحدث فيها أكثر من صف واحد فيكلف أحد معلميها بإدارة جميع الصفوف مها يكن عددها لقاء تعويض إدارة شهري مقطوع قدره /١٨/ ليرة سورية .

(١) القوانين والأنظمة والتعليمات والقرارات الناظمة لوزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ص ١٣٠ عام ١٩٦٨ .

المادة ٥ – يتقاضى المعلم لقاء قيامه بالتعليم تعويضاً مقطوعاً قدره ليرتان سوريتان عن كل حصة درسية لا تقل مدتها عن خمس وأربعون دقيقة وتعتبر ساعات التسجيل والامتحان حصصاً درسية فعلية .

المادة ٦ – يكلف أحد آذني المدرسة التي يحدث فيها صف أو أكثر لتعليم الأميين أو أحد الأشخاص العاديين بتأمين الخدمة وذلك خارج أوقات الدوام ولقاء تعويض شهري مقطوع قدره (٣٠) ليرة سورية وتقوم إدارات المصانع والمصحات والسجون ومقرات النقابات والتعاونيات باتخاذ التدابير اللازمة من قبلها وعلى نفقتها لتأمين الخدمة في الصفوف المفتتحة فيها .

المادة ٧ – تربط صفوف تعليم الأميين في مدينة دمشق ومحافظتي دمشق والقنيطرة بالإدارة المركزية وتعالج شؤونها فيها (مديرية الثقافة الشعبية – دائرة مكافحة الأمية) . أما الصفوف التي تحدث في المحافظات الأخرى فتربط بالمراكز الثقافية العربية القائمة في مراكز المحافظات ويكون لهذه المراكز الإشراف على حسن سير العمل في هذه الصفوف .

المادة ٨ – يجوز بقرار يصدر عن وزير الثقافة والإرشاد القومي بتكليف بعض الإدارة المركزية أو المراكز الثقافية العربية أو غيرهم القيام خارج أوقات دوامهم الرسمي وإضافة إلى عملهم الأصلي بمراقبة صفوف تعليم الأميين وعلى كل من هؤلاء المكلفين الإشراف على ما يوكل اليه في هذه الصفوف – زيارة كل منها بمعدل مرة واحدة على الأقل في الشهر وتقديم التقارير الدورية عن سير العمل فيها ويتقاضى كل منهم لقاء ذلك تعويضاً شهرياً مقطوعاً قدره عشر ليرات سورية عن كل مقر تابع له مهما يكن عدد صفوفه وذلك طوال مدة الدورة ، على أن يصرف هذا التعويض بالاستناد إلى جدول تحدد فيه فترة العمل الفعلية ويصادق عليه مدير الثقافة الشعبية أو مدير أو رئيس المركز الثقافي العربي في مركز المحافظة ، كما يتقاضى تعويض الانتقال وأجور السفر في حال انتقاله خارج مركز عمله وفقاً للأحكام النافذة بهذا الشأن .

المادة ٩ – تصرف تعويضات المعلمين ومديري الصفوف والآذنين المكلفين بالعمل في صفوف مكافحة الأمية وفق أحكام هذا القرار بموجب لوائح مالية ينظمها المعلمون المكلفون بالإدارة في نهاية كل شهر يصادق عليها مدير الثقافة الشعبية في الإدارة المركزية ومدير أو رئيس المركز الثقافي في مراكز المحافظات وذلك من الاعتمادات المخصصة لذلك في ميزانية وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

المادة ١٠ – يقوم بالتدقيق قبل صرف ومراقبة الأعمال المالية العائدة لصفوف تعليم الأميين محاسبو الإدارة في وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي في دمشق والمحافظات .

المادة ١١ – تلغى جميع الأحكام المخالفة ولا سيما القرار رقم ٣٣٥ / و لسنة ١٩٦١ وتعديلاته .

المادة ١٢ – ينشر هذا القرار ويبلغ من يلزم لتنفيذه .

دمشق في ١٩٦٥/٨/٢٢ .

وزير الثقافة والإرشاد القومي

° ° °

ثم صدر القرار الوزاري رقم ٦٠١ / و تاريخ ١٩٦٦/١٢/٣١ الخاص بتنظيم وزارة الثقافة والإرشاد القومي وتحديد اختصاصات دوائرها (مجدداً) – وقد تحولت بموجبه دائرة مكافحة الأمية إلى مديرية لمحو الأمية . وحدد ملاكها الجديد كما يلي :

الوظائف « مديرية محو الأمية »	المرتبة	العدد	المجموع
مدير	ثانية	١	١
معاون رئيس شعبة	خامسة	١	١
منشىء رئيسي	٦	٢	٢
كاتب	١٠	١	١
			٥

أما مهام المديرية (على ضوء المادة ١٩ من القرار المشار اليه سابقاً) فقد حددت كالتالي :

١ – إعداد برنامج مفصل لمحو الأمية في القطر العربي السوري وتقديم المقترحات اللازمة لإنفاذه بالتعاون مع الهيئات والمؤسسات المحلية والعربية والأجنبية والدولية والوزارات والأدارات المعنية .

٢ – إقامة دورات للتدريس وفتح صفوف لمحو الأمية وتنظيم دورات تدريبية للعاملين في هذا الميدان .

٣ – العمل على تشجيع الهيئات والجمعيات العاملة في محو الأمية وتقديم العون المادي والفني لها وإقامة تعاون وثيق معها في هذا المجال .

٤ – الاهتمام بتأليف وطبع كتب دراسية للأميين الراشدين وكتب متابعة ونشرات مبسطة للمتحررين من الأمية .

٥ – العمل على الإفادة من الوســـائل العلمية الحديثة (السمعية والبصرية) المجدية في محو الأمية .

٦ – إقامة دورات متابعة للمتحررين من الأمية .

– مع تكوين مديرية محو الأمية وبعد تحديد مهامها الجديدة . . قامت المديرية في وزارة الثقافة بمهمة محو الأمية وأجرت تجارب كثيرة وقامت بمحاولات عديدة ولكن ظل ميدانها ضيقاً محدوداً لضآلة المخصصات والاعتمادات المالية – ولقلة الأجهزة الإدارية والفنية العاملة في المديرية بالإضافة إلى عدم وضوح مشكلة الأمية على صعيد القطر وفقدان الدراسات والبحوث والإحصاءات اللازمة للعمل في هذا الميدان . . وعدم وجود وإقرار واعتماد خطة شاملة متكاملة من قبل الدولة .

وإلى جانب وزارة الثقافة والإرشاد القومي (مديرية محو الأمية) ثابرت جمعيات قليلة ومنظمات وهيئات شعبية شبه رسمية على محو الأمية بين المواطنين والمواطنات ولكن ظل عملها أيضاً قاصراً بعيداً كل البعد عن إدراك الهدف الذي توخته . . لأن تحقيق محو الأمية كان ولا يزال أملا بعيد المنال ولم يتوفر له في الواقع إلا النيات الطيبة والرغبات الخيرة والإمكانات المحدودة وهي وحدها لا تكفي لمعالجة مشكلة تعتبر مشكلة قومية من مسؤولية المجتمع ككل ومن أخطر المشكلات .

– ثم اتجهت الأنظار والأفكار في مختلف الأقطار العربية إلى القيام بعمل عربي مشترك (في ميدان محو الأمية) والذي كان يقوم به كل قطر بمفرده فكان نتيجة ذلك أن عقد مؤتمر لوزراء التربية العرب والعاملين في مجال محو الأمية في مدينة الإسكندرية في المدة من ١٠ – ١٨/١٠/١٩٦٤ تحت شعار (التخطيط وتنظيم برنامج محو الأمية في البلاد العربية) . . . وأصدر التوصيات التي كان من أهمها :

١ – ضرورة اتفاق البلاد العربية على مفاهيم ومعالم رئيسية في محو الأمية لتشمل الخطط والبرامج والمحتوى والوسائل .

٢ – لمحو الأمية علاقة وثيقة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

٣ – يرتبط التخطيط لمحو الأمية وتمويله بالتخطيط القومي الشامل .

٤ – من الضروري إنشاء أجهزة محلية لتنظيم محو الأمية وإدارتها ومتابعة سيرها وتقويمها

٥ – من المحتم القيام بعمل عربي مشترك في هذا المجال يعتمد على تبادل الخبرة ونتائج التجربة والتعاون في تنفيذ مشروعات محو الأمية وذلك عن طريق إنشاء جهاز إقليمي عربي لمحو الأمية تابع لجامعة الدول العربية يشرف عليه مجلس عربي أعلى يتألف من ممثلي البلاد العربية ويرسم السياسة العامة لمحو الأمية في البلاد العربية – ويضع برامجها التنفيذية ويقر ميزانيته التي يمولها صندوق عربي مشترك تغذيه الدول العربية (وقد بلغ نصيب القطر العربي السوري ٤٪ من هذه المخصصات) . . .

وقد أقر مجلس الجامعة العربية هذه التوصيات في دورة انعقاده الرابع والأربعين الذي عقد في القاهرة في كانون الثاني ١٩٦٦ وقرر اعتبار عام ١٩٦٦ بداية الحملة العربية الشاملة لمحو الأمية ، كما اتفق أيضاً على أن تضع كل دولة عربية مشروعاً محلياً يكون هدفه القضاء على الأمية في مدة أقصاها خمسة عشر عاماً . الخ . . .

– وقد عقد الجهاز الإقليمي العربي لمحو الأمية والمجلس الأعلى لمحو الأمية منذ عام ١٩٦٦ ولا يزال اجتماعات عديدة وأصدر توصيات وخططاً مدروسة أخذت الأقطار العربية تستأنس بها في برامجها المحلية والمرحلية والبعيدة المدى . .

ومع ذلك انقضت السنوات ولم تقو الجهود العربية والمحلية على إنهاء مشكلة الأمية لأسباب سيتم ذكرها فيما بعد . . .

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن . . ترى ما الذي تم تنفيذه محلياً في ميدان محو الأمية منذ عام ١٩٦٦ وحتى نهاية عام ١٩٧٠ ؟ !

– من تتبع عمليات محو الأمية على صعيد القطر يمكن عرض المناشط في المجالات التالية :

في مجال البحوث والدراسات :

– قامت مديرية محو الأمية في وزارة الثقافة والإرشاد القومي بامكاناتها المتوفرة المحدودة بدراسة حجم مشكلة الأمية وتحديد أبعادها في القطر على ضوء الدراسات والبحوث المتوفرة في هذا المجال وبالذات الإحصاءات الواردة في التعداد العام للسكان على مستوى القطر

عام ١٩٦٠ وعام ١٩٦٨ . . . فوجدت أن المشكلة لا تزال بحاجة إلى دراسة جديدة لتتوفر المعلومات الدقيقة التي تساعد العاملين في مجال محو الأمية على التخطيط والتنظيم بغية إنهاء المشكلة بالأساليب العلمية والموضوعية . .

فأوصت المكتب المركزي للإحصاء القيام بإحصاءات دقيقة عن الأمية بكل أبعادها (خلال التعداد العام الذي نفذ في أواخر عام ١٩٧٠) وذلك بالنسبة لفئات السن – الجنس – المحافظة – مواقع العمل – الوضع الاجتماعي . . الخ .

وبالفعل قام المكتب المركزي للإحصاء بتنفيذ التوصية على الوجه الأكمل مما ساعد على تحديد حجم المشكلة وأبعادها . . ووضع الحلول المناسبة لها . .

– قامت المديرية بإعداد دراسة دقيقة عن مدى (علاقة الأمية بالتنمية والإنتاج) وقدمت هذه الدراسة إلى المؤتمر الإقتصادي الذي عقد في دمشق عام ١٩٦٨ .

كما قامت بتقديم ونشر بعض البحوث والدراسات عن مشكلة الأمية بين الحين والآخر في وسائل الإعلام المختلفة بغرض توعية المواطن المثقف والأمي على خطورة الأمية وأثرها في حياة القطر العربي السوري ككل ..

قامت المديرية بتقويم برامج ومناشط محو الأمية في القطر العربي السوري منذ نشأة محو الأمية في القطر حتى نهاية عام ١٩٧٠ .

ب – في مجال التخطيط والتشريع :

تنفيذاً لتوصيات مؤتمر الإسكندرية عام ١٩٦٤ ولتوصيات الإجتماع التنظيمي الذي تم عقده بالاسكندرية في المدة من ٣ – ١٩٦٥/٤/٨ ومع صدور المرسوم التشريعي في القطر العربي السوري رقم ١٤٧ المؤرخ في ١٩٦٧/١/٢٣ والذي شكلت بموجبه اللجنة الثقافية الوزارية التي أوكل اليها (ايجاد الوسائل ورفع المقترحات والتوصيات لمحو الأمية في القطر العربي السوري وملاحقة تنفيذها وتقديم التقارير بشأنها إلى رئاسة مجلس الوزراء) .

– قامت وزارة الثقافة والإرشاد القومي باعتبارها الجهة الرسمية المسؤولة عن محو الأمية في القطر .. بتقييم كافة الأعمال والتجارب السابقة في مجال محو الأمية مع الوقوف على كافة الصعوبات المادية والفنية .

وقامت بدراسة تجارب كافة الدول التي عانت من مشكلة الأمية وأوزارها . . والأساليب التي اعتمدتها في القضاء عليها ..

ثم درست مشكلة الأمية في القطر العربي السوري وحددت أبعادها وحجمها ووضعت الأسس والقواعد اللازمة لمعالجتها بطريقة علمية وموضوعية ...

فوضعت أخيراً مشروع خطة عامة متكاملة لمحو الأمية على مستوى القطر العربي السوري ومشروع مرسوم تشريعي يعتبر بموجبه التحرر من الأمية إلزامياً على جميع العاملين في القطاع الصناعي والدوائر الرسمية والمؤسسات وهذان المشروعان قد رفعا بالفعل إلى رئاسة مجلس الوزراء في شهر نيسان ١٩٧٠ بعد أن قامت لجنة عامة في القطر (من مندوبين عن الوزارات والمنظمات والاتحادات ...) بدراستها ومناقشتها .

ولكن مضى عام ١٩٧٠ دون أن يتم التصديق عليها ... لأسباب كثيرة ... سيتم ذكرها في حينها ...

جـ — في مجال التأليف والطباعة :

قامت وزارة الثقافة والإرشاد القومي بتأليف وطباعة الكتب التالية المقررة لتعليم الراشدين (في الأعوام المذكورة إلى جانب كل كتاب) تمشياً مع خطة عمل الوزارة في مجال محو الأميـة :

١ — كتاب قراءة (أنا أقرأ وأكتب) ... عام ١٩٦٦

٢ — كتاب حساب (أنا أكتب وأحسب) ... عام ١٩٦٧

٣ — كتاب متابعة خاص بالمتحررين في القطاع الزراعي (دليلي نحو حياة أفضل) ... عام ١٩٦٩

٤ — كتاب متابعة خاص بالمتحررين في القطاع الصناعي (طريقي إلى التقدم) ... عام ١٩٧٠

٥ — معين المعلم إلى تعليم الأميين ... عام ١٩٧٠ .

وقد تم طباعة وتوزيع الكميات التالية من كتب محو الأمية (مجاناً) على الجهات العاملة في مجال محو الأمية (منظمات ، اتحادات — جمعيات — جهات رسمية ... الخ خلال ٥ سنوات (من عام ١٩٦٥ — ١٩٧٠) :

— ٧٠ ألف نسخة من كتاب (أنا أقرأ وأكتب) .

— ٨٠ ألف نسخة من كتاب (أنا أكتب وأحسب) .

— ١٠ آلاف نسخة من كتاب (دليلي نحو حياة أفضل)

- ١٠ آلاف نسخة من كتاب (طريقي إلى التقدم)
- ٢٠٠٠ نسخة من كتاب (معين المعلم) ..

د — في مجال اعداد العاملين في مجال محو الأمية :

— أسهمت وزارة الثقافة والإرشاد القومي في حضور كافة المؤتمرات والدورات والحلقات الدراسية التي أقامها الجهاز الإقليمي العربي لمحو الأمية — والمركز الدولي لتعليم الكبار في سرس الليان في جمهورية مصر العربية .

— أقامت وزارة الثقافة بالتعاون مع الجهاز الإقليمي العربي لمحو الأمية في عام ١٩٦٨ دورة تدريبية (في دمشق) للعاملين في مجال محو الأمية في القطر العربي السوري تمثل كافة القطاعات (وزارات — مؤسسات — منظات — اتحادات صناعية عمالية الخ ...) وقد بلغ عدد المشتركين في هذه الدورة (٤٠) مشتركا .

— كما قامت مديرية محو الأمية في الوزارة بالتعاون مع الاتحاد العام النسائي بدمشق في عام ١٩٦٩ — وعام ١٩٧٠ بتنظيم وإعداد دورة تدريبية للعاملات في مجال محو الأمية وبلغ عدد المشتركات (٩٠) ...

هـ — في مجال افتتاح صفوف محو الأمية :

من دراسة الجداول الإحصائية المتعلقة بدورات محو الأمية المفتتحة من قبل كافة الجهات العاملة في ميدان محو الأمية (الرسمية وغير الرسمية) في جميع محافظات القطر العربي السوري منذ عام ١٩٦٥ وحتى نهاية عام ١٩٧٠ تبين التالي :

— تم افتتاح (١٦٨٧) مقراً لمحو الأمية منها (٥٢٦) للإناث — وضمت هذه المقرات (٢٠٩١) صفاً منها (٦٥٩) صفاً للاناث — وقام بالتدريس فيها (٢٢٠٧) معلماً و (٧٥٦) معلمة .

— وقد بلغ عدد المنتسبين إلى هذه الصفوف (٥٥٣٩٦) منتسباً ومنتسبة منهم (٣٨٢٤٢) من الذكور و (١٧١٥٤) من الإناث .

— تقدم من هؤلاء المنتسبين إلى فحوص التحرر من الأمية (١٨٠١٣) دارساً ودارسة منهم (١٢٧٩٥) من الذكور و (٥٢١٨) من الإناث .

وقد نال مصدقات التحرر من الأمية منهم (١٤٦٣٢) دارساً ودارسة منهم (٤٥٢٦) من الإناث .. وتعتبر هذه النتائج محدودة جداً اذا ما قورنت بحجم مشكلة الأمية وأبعادها ..

وخلاصة القول في هذا المجال .. أن انجازات جميع الجهات العاملة في ميدان محو الأمية (الرسمية وغير الرسمية) خلال السنوات الممتدة من عام ١٩٦٥ – ١٩٧٠ في كافة المجالات تعتبر خطوات عادية في طريق محو الأمية . . بعيدة كل البعد عن بلوغ الهدف الكبير (القضاء على الأمية) ..

والسؤال الآن ..

لماذا فشلت الجهود في القضاء على الأمية حتى نهاية عام ١٩٧٠ .. وما هي النظرة الجديدة لتحقيق الهدف .. ؟

إيماناً بأن الأمية ما تزال من أكبر المشكلات التي يعاني منها قطرنا العربي السوري وبالرغم من خطرها واعاقتها لخطط التنمية الإقتصادية والإجتماعية والتحرر القومي.. فان جميع الحلول والطرق والأساليب التي وضعت وطبقت (حتى نهاية عام ١٩٧٠) لمعالجتها ظلت قاصرة عن بلوغ الغاية المرجوة وذلك لأسباب كثيرة متنوعة من أهمها التالي :

١ – استمرار وجود حوالي (١٥٠) ألف طفل كل سنة خارج المدارس دون أن يتمكنوا من الإنتساب إلى المدرسة بسبب عجز الصفوف عن استيعابهم أو عدم وجود صفوف في مناطقهم لعدم تطبيق قانون التعليم الإلزامي على الوجه المطلوب .. وهذا العدد يشكل رافداً كبيراً للأمية .

٢ – اعتماد الأساليب غير العلمية .. والطرق غير الواقعية وغير الجماهيرية في عمليات محو الأمية من قبل جميع الجهات العاملة في ميدان محو الأمية بالإضافة إلى فقدان التنسيق الكامل بين تلك الجهات ..

٣ – لم توضع مشكلة الأمية ضمن الأولويات في مشاريع الدولة بل ترك أمر معالجتها والقضاء عليها للزمن .. والروتين .

٤ – رصد مبالغ محدودة (في ميزانية الدولة لمحو الأمية دون وجود خطة متكاملة لمحو الأمية) بحدود ٨٠ – ١٠٠ ألف ليرة سورية (سنوياً) – تصرف في مجال تأليف وطباعة كتب محو الأمية وأجور المدرسين والمشرفين في صفوف محو الأمية بالإضافة إلى شراء الأدوات والقرطاسية اللازمة لعمليات محو الأمية . .

٥ – عدم وجود تشريع موضوعي وعلمي ينظم عمليات محو الأمية على صعيد القطر ضمن برنامج واسع ومركز .. بالإضافة إلى عدم وجود الجهاز المركزي المتكامل لمحو الأمية

على مستوى القطر . . وقصر مسؤولية محو الأمية على عاتق وزارة الثقافة والإرشاد القومي دون مشاركة الوزارات والمنظمات والإتحادات والجمعيات بشكل جاد وفعال . .

٦ – فقدان التوعية القومية لأخطار الأمية على صعيد القطر اذ أن أكثر الأميين كانوا لايشعرون بالفائدة المعنوية والمادية من التعليم ولا يعتقدون أن التحرر من الأمية يرفع من شأنهم ومن شأن وطنهم . . . . بالإضافة إلى أن أكثر المتعلمين كانوا لا يشعرون بأهمية محو الأمية في عصر التقدم التكنولوجي الهائل ...

ولكن . . يمكن القول أنه مع بداية عام ١٩٧١ . . بدأت مرحلة جديدة في ميدان محو الأمية مغايرة تماماً عن جميع المراحل السابقة ...

فازاء ما تقدم وفي ضوء تجارب الشعوب ... والتجارب العملية التي قامت بها وزارة الثقافة والإرشاد القومي منذ تاريخ انشائها في أواخر عام ١٩٥٨ وتجارب الجهات الأخرى في ميدان محو الأمية . .

وتنفيذاً لما جاء في بيان السيد رئيس مجلس الوزراء وبيان القيادة القطرية في نهاية عام ١٩٧٠ في مجال السياسة التعليمية والثقافية والاعلامية « بشأن اعادة النظر في طريقة العمل القائمة في ميدان محو الأمية بسبب أساليبها غير الواقعية وغير الجماهيرية . . وضرورة إشراك المنظمات الشعبية والمهنية ووزارة التربية والمؤسسات الإجتماعية المختلفة ضمن برنامج واسع وواضح لمحو الأمية في القطر . . » .

فقد عمدت وزارة الثقافة والإرشاد القومي في حزيران ١٩٧١ إلى اعداد مشروع قانون جديد لمحو الأمية ينظم عمليات محو الأمية بشكل جاد وفعال ضمن فترة زمنية محددة . . ورفعته إلى الجهات المسؤولة في الدولة . . إلى أن صدر أخيراً عن السيد رئيس الجمهورية برقم ٧ تاريخ ٧ / ٣ / ١٩٧٢ وقد تضمن مواداً مختلفة من أهمها التالي : –

المادة ٢ – تلتزم بمحو الأمية جميع الأدارات والمؤسسات والهيئات والمنظمات الرسمية والشعبية والخاصة وجميع النقابات المهنية والإتحادات والجمعيات والأندية وأصحاب الأعمال والمتعلمين وذلك وفق أحكام هذا القانون وقرارات المجلس الأعلى لمحو الأمية .

المادة ٣ – تلتزم وزارة التربية – بدءاً من تاريخ نفاذ هذا القانون بتطبيق التعليم الإلزامي على جميع الأطفال الذين بلغوا سن الإلزام كل سنة .

المادة ٥ – مدة انجاز مهمة محو الأمية في الجمهورية العربية السورية هي ٦ سنوات على الأكثر بدءاً من تاريخ نفاذ هذا القانون .

المادة ٦ – كل أمي ملزم خلال المدة المذكورة في المادة السابقة بالعمل على التحرير من أميته باتباع الدورات التي تفتح لهذه الغاية وذلك وفق القواعد التي يضعها المجلس الأعلى .

المادة ٧ – كل متعلم تجاوز الثامنة عشرة من عمره ملزم بالإسهام في عملية محو الأمية وذلك وفق القواعد التي يضعها المجلس الأعلى .

المادة ٩ – يشكل مجلس أعلى لمحو الأمية من :

السيد – رئيس مجلس الوزراء « رئيساً »

السادة – وزير الثقافة والإرشاد القومي – وزير التعليم العالي – وزير التربية – وزير الشؤون الاجتماعية والعمل – وزير الزراعة والإصلاح الزراعي – وزير الدفاع – وزير الصناعة – وزير الإعلام – وزير التخطيط – وزير المالية – رئيس لجنة التوجيه والإرشاد في مجلس الشعب – نقيب المعلمين – رئيسة الاتحاد العام النسائي – رئيس الاتحاد العام لنقابات العمال – رئيس الاتحاد العام للفلاحين – رئيس اتحاد شبيبة الثورة – رئيس الاتحاد الوطني لطلبة سورية – رئيس اتحادالكتاب العرب « أعضـــاء » .

– معاون وزير الثقافة والإرشاد القومي « عضواً وأميناً للسر » .

المادة ١٠ – المجلس الأعلى هو السلطة العليا الموكل اليها تحقيق مهمة محو الأمية في الجمهورية العربية السورية وله وفق أحكام هذا القانون – أن يتخذ جميع التدابير والإجراءات اللازمة لتحقيق هذه المهمة وعلى الأخص ما يلي :

١ – وضع الخطة العامة والخطط المرحلية والفرعية واقرارها ومتابعـة تنفيذها وترتيب أولويات العمل .

٢ – وضع وإقرار أسس تعليم الأميين ومناهجه وبرامجه المختلفة وتحديد المستوى المطلوب الوصول اليه .

٣ – احداث الأجهزة الفنية والإدارية المكلفة بالاشراف على تنفيذ الخطة . . الخ .

المادة ١١ – تتولى مهمة مكافحة الأمية في المحافظات لجنة يشكلها المجلس الأعلى برئاسة المحافظ ويقوم المحافظ بتشكيل لجان فرعية في محافظته لهذه الغاية .

المادة ١٣ – ينشأ صندوق خاص لتمويل عمليات محو الأمية . يرتبط بالمجلس الأعلى ويودع فيه ما يرد اليه من مخصصات رسمية أو دولية – ومن أعانات وهبات يقبلها المجلس الأعلى ويتم الإيداع فيه والإنفاق وفق قواعد خاصة ونظام مالي ومحاسبي خاص يضعه المجلس الأعلى – وتعفى اموال هذا الصندوق عند قبضها أو صرفها إلى المستحقين من أية ضريبة أو رسم .

المادة ١٦ بعد انتهاء المدة المحددة في المادة ٥ من هذا القانون
لا يجوز ترفيع أي مواطن أمي لم يتجاوز الـ ٤٥ سنة في أية جهة رسمية أو في القطاع العام والمشترك أو في الهيئات والمنظات الرسمية والشعبية وجميع النقابات والاتحادات والجمعيات والأندية ما لم يحصل على المصدقة المشعرة بمحو الأمية .

المادة ١٨ – كل من يدعى من الفئات التالية للمساهمة في مهمة محو الأمية ويتخلف عن ذلك دون عذر مقبول تتخذ بحقه الإجراءات التالية :

– اذا كان من العاملين في الدولة أو القطاع العام يوقف ترفيعه إلى أن يقوم بالتزاماته وفق أحكام هذا القانون ولا يحول ذلك دون تطبيق العقوبات المسلكية بحقه ...

– اذا كان من طلاب الدراسة الثانوية أو الجامعية يؤخر منحه الشهادة أو يؤخر قبوله في فحوص نهاية السنة – ويتم ذلك وفق القواعد التي يقرها المجلس الأعلى . –

... هذا بالإضافة إلى المواد الأخرى الهامة المتعلقة بالحوافز والعقوبات المتنوعة والآن.. ربما يتساءل الكثير من الناس – ترى ما الذي تم من إجراءات فعالة في ميدان محو الأمية بعد صدور القانون رقم ٧ ؟ ! . . وهل حقيقة ستنتهي الأمية في المدة المحددة لها في القانون...؟!

– من تتبع عمليات محو الأمية بعد صدور القانون يمكن عرض المناشط والإنجازات التالية (على سبيل المثال) لا الحصر :

= عقد المجلس الأعلى لمحو الأمية عدة اجتماعات برئاسة السيد رئيس مجلس الوزراء

(رئيس المجلس الأعلى لمحو الأمية) اتخذت فيها القرارات الهامة المنظمة لعمليات محو الأمية على صعيدالقطر بشكل جيد وفعال . . ومن أهمها التالي :

١ – تكوين مجموعة عمل لمحو الأمية في وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مؤلفة من بعض الموظفين في وزارات الدولة ممن اتبعوا دورات خارج القطر في مجال محو الأمية.. مهمتها اعداد الدراسات والبحوث اللازمة والإشراف على تنفيذ خطط محو الأمية ... الخ

٢ – رصد نصف مليون ليرة سورية لتمويل صندوق تمويل عمليات محو الأمية من ميزانية العمل الشعبي ...

٣ – تشكيل لجان محو الأمية الرئيسية والفرعية في جميع المحافظات .

٤ – الموافقة على طباعة ٥ر١ مليون ونصف نسخة من كتب محو الأمية لتغطية حاجات خطة عام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٤ . .

٥ – اقرار نظام مالي ومحاسبي خاص لصندوق تمويل عمليات محو الأمية ... الخ .

= قامت وزارة الثقافة والارشاد القومي (مجموعة عمل محو الأمية) – باعداد وطبع خطة عمل لمحو الأمية لعام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٤ وتوزيعها على الجهات المعنية المسؤولة بعد مناقشتها وإقرارها من قبل المجلس الأعلى لمحو الأمية ... واستهدفت :

١ – تدريب ٤٠٠٠ متعلم من الذكور والإناث في جميع المحافظات لاكسابهم المهارات التي تساعدهم على تعليم الأميين الكبار .

٢ – تعليم جميع الأميين العاملين في القطاعين الصناعيين العام والخاص وقطاع الخدمات الملحقة بالدولة ويبلغ عددهم حوالي (١١٩٤٩٧) أمي وأمية .

٣ – تعليم الأميين في منطقة الغاب باعتبارها منطقة تعتمد على المكننة وأساليب الزراعة الحديثة ويبلغ عددهم حوالي (١٥) ألف أمي وأمية .

٤ – اعداد الترتيبات اللازمة للشروع بتعليم الأميين في منطقة سد الفرات . .

= كما تم وضع دليل عمل (لتنفيذ الخطة المذكورة) وقد أقر من قبل المجلس الأعلى لمحو الأمية وأرسل إلى الجهات المسؤولة ووضع موضع التنفيذ اعتباراً من ١٩ / ١٩٧٣/٧ وشمل خمس مراحل :

١ – تشكيل لجان محو الأمية

٢ – حصر الأميين وتصنيفهم

٣ – اعداد وتنفيذ الدورات التدريبية المحلية للمعلمين المقررة في كل محافظة .

٤ – دعوة الأميين للالتحاق بالصفوف المقرر افتتاحها في كل محافظة .

٥ – افتتاح صفوف محو الأمية . .

– هذا ويمكن القول بعد الوقوف عملياً على سير عمليات محو الأمية في جميع محافظات القطر – مؤخراً – ، بان نسبة تنفيذ الخطة والجوانب المتعلقة بها تتراوح بين ٣٠ – ٤٠ ٪ وان عدم تطبيقها على الوجه الأكمل يعود لأسباب متنوعة أهمها (هي حرب تشرين التحريرية وما ترتب على العاملين في كل من القطاعين الصناعي والخدمات من مهمات وواجبات قومية...)

ومع ذلك يتبين للجهات المعنية من كل ما تقدم مدى التطور والإختلاف الكبير والواضح بين عمليات محو الأمية وبرامجها وأساليبها وطرقها في الماضي وبين مناشط محو الأمية وخططها وأهدافها في الوقت الحاضر ...

ولكن . . هل ستنتهي الأمية – حقيقة – في المدة المحددة لها في القانون ؟ !

– ربما الجواب موجود في ضمير المستقبل . . ومع ذلك يمكن القول أن مشكلة الأمية تعتبر من أخطر المشكلات التي تقف عقبة كبيرة في طريق التقـــدم الاقتصـــادي والاجتماعي والحضاري . .

وان القضاء عليها وعلى قرائنها يتطلب حشد جهود وامكانات وخبرات جميع الجهات الرسمية وغير الرسمية ، بل المجتمع ككل .

* * *

اعــلان

تعلن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية في الجزائر أن الملتقى التاسع للفكر الإسلامي سينعقد في تلمسان من الفاتح إلى العاشر من رجب ١٣٩٥ ﻫ الموافق العاشر إلى التاسع عشر يوليو ١٩٧٥ م

وسيحضر طلاب وطالبات الجامعات وتلاميذ وتلميذات السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الأولى والنهائية سابقاً) من الجزائر ومن أي بلد كان ، وسيسمح لغير الطلبة من الجزائر وغيرها ممن هم في المستوى المذكور بالمشاركة في الملتقى .

وقد دعيت إلى الملتقى شخصيات جامعية ورجال بحث من الجزائر وغيرها من انحاء العالم الأسلامي لألقاء المحاضرات ، وعقد الندوات ، والمناقشة فيما بينهم بحضور الطلبة ومشاركتهم

ونظام الملتقى هو النظام الداخلي ، ويمكن السماح بالنظام الخارجي لمن يطلبه .

هذا وتتحمل الوزارة ، في اطار الملتقى ، نفقات الأقامة والتنقل داخل التراب الوطني ، وبالنسبة للطلبة الاتين من أوربا فستتحمل الوزارة نفقات سفرهم ذهاباً واياباً بالباخرة من مرسيليا واليها أو أحد مواني البحر الأبيض المتوسط .

وسيطلب من المشاركين إسهام رمزي قدره خمسون ديناراً جزائرياً ، ويعفى منه الطلبة الاتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، وسيعفى منه الساكنون والساكنات في تلمسان .

وترسل طلبات المشاركة إلى ادارة البحوث الأسلامية ، نيابة الملتقيات ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، ٤ نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكر كلمة الملتقى على زاوية الغلاف .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبه شهادة دراسية وشهادة طبية .

و آخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو التاسع عشر من ربيع الأول ١٣٩٥ ﻫ الموافق للفاتح من ابريل ١٩٧٥ م عند الأرسال ، ويكون ختم البريد شاهدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الأعمال كالاتي :

١) مساهمة تلمسان الزيانية في الحضارة والفكر الأسلاميين والعالميين — أسباب ازدهارها وانهيارها .

٢) موقف أسطنبول ازاء الغزو الأوروبي للعالم الأسلامي .

٣) موقف اسطنبول وباقي العالم الأسلامي من سقوط الأندلس وآخر مسلميها .

٤) هل كان الشعر في الأندلس سبباً في انحلال أخلاقها ثم سقوطها ، أم كان لها مجرد مرآة وانعكاس ؟

٥) دور الاداب والفنون عموماً ، والشعر والموسيقا خصوصاً ، في تعزيز أخلاق أمة أو انحلالها ، وفي شحذ عزائمها أو قتل روحها .

العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الأسلام وأوضاع الأمة الاسلامية اليوم .

بلاغ

تذكير بمباراة الفنون التشكيلية

في نطاق الإستعداد لإحياء الذكرى الألفية للشاعر ابن زيدون وتبعاً لما سبق أعلنت عنه وزارة الثقافة ، يهيب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بالفنانين التشكيليين مغاربة وغيرهم من أبناء الوطن العربي أن يتخيلوا صوراً تعبر عن شخصية الشاعر ابن زيدون وولادة بنت المستكفي وملامحهما أو تترجم جانباً من حياتهما النفسية والعاطفية بعد دراسة عميقة لحياة الشاعرين وأوصافهما من خلال الكتب والمرويات .

وقد رصدت الوزارة لذلك ثلاث جوائز قيمة قدر كل واحدة منها خمسة آلاف درهم .

فعلى الراغبين في المساهمة الإلتزام بما يلي :

— أن يكون طول اللوحة بالنسبة للرسامين من ٥٠ سنتيماً فما فوق .

— أن لايكون الإنتاج موقعاً رسماً كان أو نحتاً أو نقشاً .

— أن يرفق برسالة بها بيانات توضيحية عن الإنتاج ومذيلة باسم المنتج وعنوانـــــه .

وآخر أجل للقبول ، نهاية مارس المقبل بحول الله ويبعث الإنتاج أو يسلم إلى مصلحة التنشيط الثقافي بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، شارع غاندي — الرباط .

اعــلان

في نطاق الإستعداد لإحياء الذكرى الألفية للشاعر ابن زيدون القرطبي الأندلسي وتبعاً لما سبق أن أعلنت عنه وزارة الثقافة يهيب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بالفنانين الموسيقيين مغاربة وغيرهم من أبناء الوطن العربي أن يقوموا بتلحين إحدى القطع المناسبة من شعر ابن زيدون .

وقدخصصت لذلك ثلاث جوائز قيمة كل واحدة منها خمسة آلاف درهم.

- جائزة لأمثل لحن عربي مبتكر ومستوحى من البيئة الأندلسية
- جائزة لأمثل لحن عصري عربي
- جائزة لأمثل لحن عصري غربي

وستخصص الجوائز لكل لحن جديد خاص بالمناسبة ، متوفر على دقة العزف وحسن الصوت ، متمكن من النوبات ، محسن للتصرف فيها مع سلامة الأداء للشعر العربي .

فعلى الراغبين في المساهمة أن يبعثوا بانتاجهم مسجلا على شريط تسجيلاً جيداً بسرعة ٧٫٥٠ (١٩) إلى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية شارع غاندي . الرباط . وآخر أجل لتقديم الإنتاج نهاية مارس (آذار) المقبل بحول الله .

ويمكن للمغاربة الموسيقيين الإتصال بمصلحة التعليم الفني بالوزارة لتمكنهم من مجموعة المختارات الشعرية ، التي أعدت لهذا الغرض .

شروط المسابقة الموسيقية

١) في حالة اختيار المؤلف المشارك في المسابقة ، التلحين وفق النمط الموسيقي الأندلسي يجب عليه أن يلتزم بالقوالب الموسيقية الأندلسية التي نلخصها فيما يلي :

أ (قالب الصنعة المبنية على القصيدة

ب(قالب الصنعة المبنية على التوشيح

ج) قالب التخليل

ويشترط أن يكون اللحن مبنياً على أوزان الموسيقى الأندلسية الخمسة وهي : البسيط — القائم ونصف — البطايحي — الدرج — القدام .

وللمؤلف الإختيار في وضع لحنه وفق الحركتين الموسيقيتين (البطيئة وحركة الانصراف — السريعة) مع مراعاة النقرات الزمنية لكل وزن .

٢ (يتعين على المؤلف الذي سيختار التلحين وفق القوالب الموسيقية العربية الإلتزام بالأنغام والأوزان الشرقية ، وأن يراعي في عمله الإبتكار والتطوير حسب القالب الذي سيختار التلحين فيه .

٣) على الملحن الذي يفضل التلحين على النمط الغربي أن يضع في اعتباره خضوع عمله للطريقة العلمية مع مراعاة ادخال عناصر هارمونية بالإضافة إلى توزيع آلي يتمشى والطرق المستعملة في الموسيقى العالمية .

٤ (المقطوعات الغنائية يجب أن لاتقل عن خمس دقائق وأن لاتتعدى عشر دقائق .

٥ (ترسل القطع إلى مصلحة التعليم الفني مسجلة على شريط بسرعة (٧٫٥٠) (١٩)

أما القطع الموضوعية وفق الأسلوب الغربي فيستحسن أن ترسل مكتوبة وموزعة بالنوطة الموسيقية ، وآخر أجل لقبول القطع المرشحة ٣٠ مارس (آذار) ١٩٧٥ .